

mngool.com

الدارة

مجلة فصلية محكمة تصدر
عن دارة الملك عبد العزيز

العدد الأول - السنة الخامسة والثلاثون - ١٤٣٠هـ

الدارة

المشرف العام

أ. د. خالد بن محمد العنقري

رئيس التحرير

د. فهد بن عبدالله السماري

هيئة التحرير

أ. عبدالله بن عبدالعزيز بن إدريس

أ. د. عبدالله الصالح العثيمين

أ. د. سليمان بن عبدالرحمن الذبيب

أ. د. إبراهيم بن محمد العبيدي

أ. د. عبدالرحمن بن زيد الزنيدي

أ. د. عبدالله بن ناصر الوليعي

أ. د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق

د. ناصر بن محمد الجهيمي

أ. حمد بن عبدالله العنقري

إدارة التحرير

أ. عبدالله بن إبراهيم المزروع

أ. عبدالله بن عبدالرحمن الطريقي



الإسهامات

ترسل البحوث باسم رئيس التحرير

ص. ب ٢٩٤٥ . الرياض ١١٤٦١ . المملكة العربية السعودية

هاتف ٤٠١١٩٩٩ . فاكس ٤٠١٣٥٩٧

بريد إلكتروني aldarahmagazine@aldarahmagazine.com

السعر

السعودية ٥ ريالات، الإمارات العربية المتحدة ٧ دراهم،

قطر ٧ ريالات، البحرين ٥٠٠ فلس، الكويت ٥٠٠ فلس،

سلطنة عمان ٥٠٠ بيسة، المغرب ٨ دراهم،

مصر ١٥٠ قرشاً، تونس دينار واحد

خارج الدول العربية ما يعادل دولاراً أمريكياً واحداً

الاشتراكات السنوية

٢٠ ريالاً للاشتراك من داخل المملكة العربية السعودية

للاشتراك من الخارج ٦ دولارات أمريكية

ترسل الاشتراكات بشيك مصدق باسم

دارة الملك عبد العزيز على العنوان الآتي:

ص. ب ٢٩٤٥، الرياض ١١٤٦١ . المملكة العربية السعودية

هاتف ٤٠١١٩٩٩ / ٢٠١٦ . فاكس ٤٠١٣٨٩٤

بريد إلكتروني aldarahmagazine@aldarahmagazine.com

موقع الإنترنت www.aldarahmagazine.com

شركات التوزيع

السعودية: الشركة السعودية للتوزيع، الرياض، هاتف: ٤٤١٨٩٧٢

مصر: مؤسسة الأهرام للتوزيع، القاهرة، هاتف: ٥٧٨٦٢٠٠

الإمارات العربية المتحدة: دار الحكمة، دبي، هاتف: ٢٦٦٥٢٩٤

البحرين: مؤسسة الهلال للتوزيع، المنامة، هاتف: ٢٩٤٠٠٠

الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، الكويت، هاتف: ٢٤١٧٨١٠

سلطنة عمان: المتحدة لخدمة وسائل الإعلام، مسقط، هاتف: ٧٠٠٨٩٥

قطر: دار الثقافة، الدوحة، هاتف: ٤١٣١٨٠

المغرب: الشركة الشريفية للتوزيع، الدار البيضاء، هاتف: ٤٠٠٢٢٣

تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز

رقم الإيداع: ٠٠٨٢ / ١٤ بتاريخ ٢٢/١/١٤١٤هـ

ردمد ٠١٤٨ - ١٢١٩



نشاطات الدارة

الندوة العلمية عن تاريخ الملك خالد بن عبدالعزيز في شوال المقبل

◀ تنظم دارة الملك عبدالعزيز في شهر شوال القادم الموافق لشهر أكتوبر ٢٠٠٩م الندوة العلمية عن تاريخ الملك خالد بن عبدالعزيز رحمه الله، وهي الندوة الثالثة ضمن سلسلة الندوات الملكية التي تعقدها الدارة عن الملوك من أبناء الملك عبدالعزيز لتوثيق سيرهم.

وبين معالي الأمين العام لدارة الملك عبدالعزيز الدكتور فهد السماري أن الندوة تهدف إلى توثيق تاريخ الملك خالد بن عبدالعزيز منذ عهد والده حتى نهاية حكمه، وتوثيق الجوانب الحضارية والسياسية للمملكة العربية السعودية في عهده، وإعداد الدراسات العلمية عن المؤلفات التي تناولت تاريخه، وتشجيع الباحثين على تقديم دراسات علمية ومنهجية عن المملكة العربية السعودية وعن تاريخ الملك خالد اعتماداً على الوثائق والمصادر التاريخية المحلية والعربية والأجنبية، ورصد ذكريات المعاصرين له ومشاهداتهم وانطباعاتهم عن عهده رحمه الله، بالإضافة إلى إعداد قاعدة معلومات موثقة عن تاريخ الملك خالد تبرز جهوده في التأسيس وخلال ولايته للعهد وأثناء مدة حكمه من مختلف الجوانب.

مكتبة الأستاذ عبدالله بلخير وأوراقه تودع في الدارة

◀ وجه صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة والرياض ورئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز شكره إلى أفراد أسرة معالي الأستاذ عبدالله بن عمر بلخير رحمه الله، على مبادرتهم الوطنية بإيداع مكتبة والدهم في دارة الملك عبدالعزيز. وثمّن سموه هذا التعاون البناء مع الدارة، لما تمثله تلك المصادر المتنوعة من قيمة وطنية وعلمية لخدمة التاريخ المحلي، وهو ما يعد امتداداً لجهود والدهم في خدمة الوطن، حيث كان مستشاراً ومترجماً مرافقاً للملك عبدالعزيز، وهو أول وزير إعلام سعودي. وقال سموه في خطاب وجهه إلى الأستاذ محمد بن سبأ بن محمد بلخير: "أشكر لكم مبادرتكم وإهداءكم هذه المكتبة، وسوف تقوم الدارة بالمحافظة عليها وخدمتها الخدمة اللائقة، وحفظها ضمن المجموعات الخاصة المحفوظة باسم والدكم".

صرح بذلك معالي الدكتور فهد السماري، وأوضح أن أهمية ما تسلمته الدارة من أوراق وأعمال أدبية خاصة بمعالي الأستاذ عبدالله بلخير ينبع من أهمية المناصب التي وليها منذ عهد الملك عبدالعزيز ومرافقته له في مناسبات سياسية مهمة، فضلاً عن مكانته الأدبية والثقافية.

والمكتبة تضم مجموعة كبيرة من أوائل المطبوعات والصحف المحلية والوثائق التاريخية، وقد شرعت الدارة في ترتيبها وتصنيفها وتهيئتها ليستفيد منها الباحثون والباحثات ولاستثمارها في مشروعات الدارة المقبلة في كتابة جوانب أخرى من تاريخنا الوطني.

أبواب المجلة

عندما اعتزمت مجلة الدارة اتخاذ خطوات جديدة في سبيل الرقي بها، اعتمدت على مجموعة من الضوابط والمعايير التي من شأنها أن تحقق النجاح الذي تطمح إليه. وبناء على هذا أعادت النظر في أعداد المجلة خلال ربع قرن، فأخذت منها ما برز على نظائره، وزادت عليها ما يسمو بها، وعلى هذا جاءت أبواب المجلة في ثوبها الجديد، وهي:

◀ ١ - **البحوث العلمية.** وتعد عماد مجلة الدارة، التي حاولت منذ أمد أن تحقق فيها أعلى درجات الدقة العلمية والجدة والموضوعية، وجاءت في حلتها الجديدة منتقاة موافقة لاتجاه المجلة محققة للغرض من إنشائها.

◀ ٢ - **البحوث المترجمة.** وهذا الباب يزود قراء العربية بترجمة للبحوث التي صدرت بلغات أجنبية كان لأصحابها اهتمام بتاريخ الجزيرة العربية عامة، أو بتاريخ المملكة العربية السعودية خاصة. ويشترط لنشر هذه البحوث ذكر اسم المؤلف الأصلي كاملا، والمصدر الذي أخذ البحث عنه، وتمييز تعليقات الباحث عن تعليقات المترجم. وإرفاق الأصل المترجَم لمطابقته وتحكيمه.

◀ ٣ - **الوثائق.** باب يهدف إلي خدمة الباحثين والمهتمين، بالتعريف والدراسة لعدد من الوثائق المحفوظة في مراكز حفظ الوثائق في دارة الملك عبدالعزيز وغيرها. ويشترط لنشر هذه الوثائق إرفاق صورة واضحة من الوثائق المدروسة، مع ذكر الجهة التي تحتفظ بها، ورقم الحفظ.

◀ ٤ - **باب ملخصات الرسائل العلمية.** وترمي المجلة من هذا الباب إلى تسليط الضوء على آخر الرسائل العلمية (الماجستير والدكتوراه) التي قدمت خلال السنوات الثلاث الأخيرة في مجال التاريخ السعودي خاصة، وتاريخ شبه الجزيرة العربية عامة.

◀ ٥ - **باب البحوث الجارية.** وفي هذا الباب ترغب الدارة في تعريف المختصين بالبحوث والرسائل العلمية التي لم يتسن نشرها أو لم تتم مناقشتها حتى تاريخ إصدار عدد المجلة، ويشترط لنشر هذه البحوث أو الرسائل أن تتضمن خلاصة وافية لها إضافة إلى النتائج التي توصلت إليها، مرفقة بالخطة بالنسبة للرسائل العلمية.

◀ ٦ - **مراجعة الكتب.** تعريف بالكتب المطبوعة في مجالات الدارة المتنوعة، ونقدها بأسلوب علمي.

وللنشر في هذا الباب ينبغي ألا تزيد المراجعة عن تسع صفحات، متضمنة موضوع الكتاب وحدوده الزمانية والمكانية والمرجعية، منهج الباحث في بحثه وأدواته ومصادره، إضافاته واستدراكاته على من سبقه، إيجابياته وسلبياته، إضافات المراجع واقتراحاته.

وللمراجع اختيار طريقة عرض الكتاب بما يلائم الكتاب وما يراه مناسبًا.

◀ ٧ - **ملخصات الكتب.** باب يضع للقارئ ملخصًا للكتب المؤلفة حديثًا، في مجالات الدارة، ويعرض الغرض من تأليفها، وأبرز موضوعاتها، وما تميزت به من مصادر أو مناهج بحث أو ما تحتويه من أشكال وخرائط وصور ووثائق.

ومجلة الدارة ترحب بالراغبين في نشر مراجعات علمية، أو ملخصات لكتبهم (وهو المستحسن) أو لكتب غيرهم، إذ تستقبلها على عنوانها البريدي، باب: مراجعة الكتب، أو باب: ملخصات الكتب.

◀ ٨ - **تعقيبات وتعليقات.** تنشر فيه المجلة ما يرد إليها من الباحثين والقراء من تعقيبات أو تعليقات على ما نشر فيها بغرض زيادة التواصل العلمي بين الباحث وقرائه.

شروط النشر

تعنى مجلة الدارة بنشر البحوث العلمية ذات العلاقة بتاريخ المملكة العربية السعودية وجغرافيتها وآدابها وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة، والجزيرة العربية والعالم العربي والإسلامي بعامة.

وينبغي أن تتوافر في هذه البحوث الشروط الآتية:

١ – أن يتسم البحث بالأصالة والمنهجية العلمية والجدة في الموضوع والعرض.

٢ – أن يكون صحيح اللغة، سليم الأسلوب، واضح الدلالة.

٣ – ألا يكون قد سبق نشره أو قدم للنشر إلى جهة أخرى، وألا يكون مستلا من رسالة علمية أو كتاب مطبوع.

٤ – أن يكون البحث مطبوعًا على الحاسب الآلي، مرفقا معه القرص المنسوخ عليه.

٥ – أن يرفق مع البحث ملخص له باللغتين العربية والإنجليزية في حدود (٢٠٠) كلمة، مع الحرص على الدقة في كتابة العنوان باللغة الإنجليزية.

٦ – أن ترفق نماذج واضحة من الأشكال التوضيحية والصور والوثائق والمخطوطات.

٧ – أن توضع الحواشي في آخر البحث، على أن يكون الترقيم متواصلا.

٨ – أن تذكر المعلومات الوراقية (الببليوجرافية) للمصادر المعتمد عليها (الكتب، والمقالات، والمخطوطات) عند أول ذكر لها في الحواشي، استغناءً عن قائمة المصادر والمراجع.

٩ – أن تكتب الأسماء الأجنبية باللغة العربية، وتكتب بلغتها بين قوسين عند أول ورود لها.

١٠ – أن يرفق الباحث سيرة ذاتية له توضح نشاطه العلمي والعملي.

منهج النشر

١ – تخضع البحوث الواردة للمجلة للتحكيم العلمي. ويلزم الباحث إجراء التعديلات المنصوص عليها في تقارير المحكمين، مع تعليل ما لم يعدل.

٢ – يعطى الباحث عشرين مستلة من بحثه، وخمس نسخ من المجلة.

٣ – تمنح المجلة الباحث مكافأة مالية، وفق اللائحة المعتمدة.

٤ – لا يعاد البحث إلى صاحبه سواء نشر أم لم ينشر.

٥ – تحتفظ المجلة بحقها في الحذف والاختزال والتعديل اليسير بما يتوافق مع أغراض الصياغة والمنهج العلمي المتبع.

٦ – لا تعبر الآراء الواردة في البحوث بالضرورة عن رأي المجلة.

٧ – لا صلة لترتيب البحوث بالمجلة بالقيمة العلمية للبحث أو الباحث، إذ الترتيب موضوعي وفني، وبما يناسب أبواب المجلة.

٨ – ترسل البحوث والدراسات والآراء والتعليقات إلى رئيس التحرير.

المحتويات

البحوث

بحوث مترجمة

مراجعات كتب

افتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد

فهاهي مجلة الدارة تدخل عامها الخامس والثلاثين، مستمرة في الحفاظ على وعدها بتقديم الجديد والمفيد من البحوث العلمية المحكمة في التاريخ والجغرافيا والآداب والآثار الفكرية والعمرانية، في المملكة العربية السعودية خاصة، وفي الدول العربية والإسلامية عامة. مع الحرص الدائم والمستمر على التجديد والتطوير في أبوابها وطريقة نشرها وسبل وصولها إلى عدد أكبر من الجمهور ذوي الاهتمام.

إن العلوم والمعارف مثل الكائنات الحية، تبدأ مختصرة ومحدودة التفاصيل ثم تنمو وتزداد وتتضخم. وصحيح أن العلم غذاء العقول، ولكن العقول أيضًا هي غذاء العلم وسبب نموه وازدهاره، عبر مشاركة علماء كل زمن واستدراكاتهم وإضافاتهم على ما أنتجه العلماء الذين سبقوهم، ويندر أن يوجد ذلك العلم الذي استوفي استيفاءً كاملاً بحيث لم يعد بحاجة إلى مزيد. وإن تاريخ العلم في الحضارة الإسلامية لخير شاهد على هذه الحقيقة، حيث تعاضدت جهود العلماء عبر الزمن للوصول بمعظم ما أنتجه الأولون - من المسلمين وغير المسلمين - إلى مستويات وآفاق جديدة، مع حسن الاستيعاب وجودة النقد والتلطف في سد ما يظهر من ثغرات.

وحين نتحدث عن المجلات العلمية الدورية، فإن قيمة التعقيب والتعليق والاستدراك والإضافة تزداد، حيث يأتي كل بحث في موضوع واضح الحدود مركز المعلومات، فيفتح المجال للنقاش العلمي حوله بكل يسر. وإن ما تتيحه طبيعة المجلات من إمكانية جمع الأقوال تحت غلاف واحد ليمكِّن المهتمين من متابعة مستجدات كل موضوع أولاً فأولاً، وهو الأمر الذي يسهم في رفع وتيرة الحراك العلمي لدى الباحثين للوصول إلى أفضل النتائج، مع ما يترتب على ذلك من فوائد لا يمكن حصرها.

لقد شهدت مجلة الدارة في بعض سنواتها ازدهارًا واضحًا في مجال التعليق والتعقيب، وقد أسهمت تلك التعليقات والتعقيبات - برصانتها العلمية ومكانة كاتبيها - في الرفع من مستوى الطرح في المجلة وجذبها لعدد أكبر من المهتمين والمتابعين. وإنها فرصة مواتية - ونحن في بداية العام الخامس والثلاثين - لتجديد الدعوة للباحثين والكتاب، لمشاركتنا بآرائهم وتعليقاتهم على ما يقرؤونه في صفحات مجلة الدارة، ليسهموا معنا في تقديم الأفضل دائمًا لقرائنا الأعزاء.

د. فهد بن عبدالله السماري
رئيس تحرير مجلة الدارة
الأمين العام لدارة الملك عبدالعزيز



الملك عبدالعزيز مع فلويد أوليجر
أثناء زيارته إلى رأس تنورة في
١٣٥٨هـ (١ مايو ١٩٣٩م)
المصدر: شركة أرامكو السعودية

موقف لويس بيلي
من النفوذ السعودي في عُمان
١٢٧٨ - ١٢٩٠هـ/ ١٨٦٢ - ١٨٧٣م

د. عبدالله بن إبراهيم التركي
قسم التاريخ - كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية - جامعة القصيم

بلغت الدولة السعودية الثانية أوج قوتها في الفترة الثانية من حكم الإمام فيصل بن تركي ١٢٥٩-١٢٨٢هـ/ ١٨٤٢-١٨٦٥م، وبدأ هذا الإمام يتطلع إلى استعادة نفوذ آبائه وأجداده كاملاً، فأعاد ضم الأحساء، ثم استعاد نفوذ دولته على منطقة جنوب شرق الجزيرة العربية[1]. ثم بدأت بريطانيا التي كانت تهيمن على الخليج العربي آنذاك باتخاذ تدابير معينة حتى لا يتغير الوضع الراهن في منطقة الخليج.

ولعل من أبرز الساسة البريطانيين الذين كان لهم دور في الحد من النفوذ السعودي في منطقة الخليج العربي هو:

(١) عثمان بن عبدالله بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق وتعليق عبدالرحمن بن عبدالله آل الشيخ، ط٤، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ٢/٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٩-٢٣٠.

لويس بيلي[٢] [Lewis Pelly] المقيم البريطاني في الخليج في الفترة ما بين عامي ١٢٧٨-١٢٩٠هـ/ ١٨٦٢-١٨٧٣م.

النفوذ السعودي في عمان قبيل تولي لويس بيلي منصبه في الخليج العربي:

كان النفوذ السعودي في عُمان بين مد وجزر، والذي يعنينا في هذا المقام هو دور المسؤولين البريطانيين في المنطقة في الحد من هذا النفوذ، فقد بدأ هذا الدور عندما استعاد الإمام فيصل بن تركي نفوذ دولته على منطقة البريمي[٣] عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م،

---

(٢) ولد لويس بيلي عام ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م، ودرس في إنجلترا، وبعد أن أتم تعليمه التحق بالقوات المسلحة لحكومة الهند البريطانية في بومباي ، وأدى الخدمة العسكرية عام ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧م وقام بعدد من المهام السياسية، ثم كلف سكرتيراً في المفوضية البريطانية في طهران، ثم عين مقيماً سياسياً في زنجبار عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م ثم نقل ليكون مقيماً سياسياً لبريطانيا في الخليج العربي عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م وكان مقر المقيمية في بوشهر، وبقي في عمله هذا حتى عام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م. وفي عام ١٣٣٠هـ/ ١٨٨٣م عرض عليه ملك بلجيكا العمل ليكون مديراً للكنغو، إلا أنه رفض هذا العرض، وانضم إلى عضوية البرلمان البريطاني، وتوفي عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م. انظر: لويس بلي، رحلة إلى الرياض، ترجمة وتحقيق عبدالرحمن الشيخ وعويضة الجهني، ط١، جامعة الملك سعود ، الرياض، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص هـ من مقدمة الترجمة؛ رجب حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٤٧٥؛ ج ج لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة ونشر ديوان الشيخ أحمد آل ثاني حاكم قطر، الدوحة، د. ت، ١/٣٨٤. وسيشار إليه مستقبلاً دون ذكر [القسم التاريخي] أما إذا استعمل القسم الجغرافي فسيذكر في حينه.

(٣) البريمي: واحة تتألف من تسع قرى، تقع على بعد تسعين ميلاً جنوب شرق أبو ظبي، تسكنها قبائل النعيم، وبنو ياس. للاستزادة انظر: شركة الزيت العربية الأمريكية، عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي، ط١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٦م، ص١٩٩ وما بعدها.

وأخذ الزكاة من السيد ثويني بن سعيد[٤] الذي كان نائباً عن أبيه في حكم عمان، حيث قام سعد بن مطلق المطيري[٥] بحملته على ساحل مسقط، فوجه المعتمد البريطاني هامرتون[٦] [Hamerton] إنذاراً إلى القائد السعودي في عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م، كما كتب رسالة احتجاج إلى الإمام فيصل بن تركي. وكان هدف السعوديين هو تحصيل الزكاة من بلدان تلك المنطقة وخاصة سلطنة مسقط، فتم الاتفاق على أن يدفع السيد ثويني خمسة آلاف ريال نمساوي إلى الإمام

---

(٤) السيد ثويني بن سعيد بن سلطان البوسعيدي، هو الابن الثالث للسلطان سعيد، عينه أبوه نائباً عنه في الشطر الآسيوي من دولته، وتولى الحكم هناك رسميًا بعد وفاة والده عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م، وقتله ابنه سالم عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م. للتفصيل انظر: عبدالله بن صالح الفارسي، البوسعيديون حكام زنجبار، ترجمة محمد أمين عبدالله، ط٣، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص١٩.

(٥) سعد بن مطلق بن محمد المطيري، يعد هو ووالده مطلق من أبرز القادة السعوديين في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية، كان لهما دور بارز في نشر النفوذ السعودي في تلك المنطقة، وقد عيّن الإمام فيصل بن تركي سعد بن مطلق نائباً عنه في البريمي عام ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م وحتى عام ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م، والمطيري نسبة إلى قبيلة مطير وهي قبيلة غطفانية عدنانية. انظر: ابن بشر، مصدر سبق ذكره، ٢/٢٤٨-٢٤٩، ٢٧٦؛ حمد بن إبراهيم الحقيل، كنز الأنساب ومجمع الآداب، ط١٢، مطابع الجاسر، الرياض، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٣٦.

(٦) هامرتون هو أول ممثل لبريطانيا في زنجبار، وعين ممثلاً لبريطانيا في مسقط قبل نقل السلطان سعيد عاصمة دولته إلى زنجبار، عمل على مقاومة النفوذ الفرنسي في شرق إفريقية للتفصيل. انظر:

F.O., 54/4, letter from Captain Hamerton to the Earl of Aberdeen, no. 82 Bombay, in 21 may 1842, p.68.

فيصل سنوياً، وكانت سفن الأسطول البريطاني تجوب سواحل السلطنة العمانية لدعم السلطان ضد السعوديين(٧).

وعندما عقدت مفاوضات بين السيد ثويني بن سعيد وسعد المطيري بشأن العلاقات بين الرياض ومسقط، نصح المقيم البريطاني في الخليج السيد ثويني بأن يصل إلى تفاهم مقبول مع السعوديين، وأن يقبل شروطهم إذا كانت لا تتعدى على كرامة والده بصفته حاكماً مستقلاً على مسقط، وإلا فإن عليه أن يُلوح بتدخل حكومة الهند البريطانية(٨)، وهذا ما عجَّل بالاتفاق بين الجانبين .

وقد استمر النفوذ السعودي قوياً في عُمان حتى عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م عندما اعتدى شيخ أبو ظبي على القوة السعودية في البريمي، وهذا ما شجع السيد ثويني بن سعيد على رفض ما تعهد به للسعوديين عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م، ودخل في حلف مع شيخ أبوظبي، وحاول الاثنان إقناع السيد حمود بن عزان(٩)

(7) Badger, George Percey (ed), History of the Immams and Seyyids of Oman by Salil Ibn Razik, Now york, N D., P. XCl.

(٨) لوريمر، مصدر سبق ذكره، ٢/٧١٢.

(٩) السيد حمود بن عزان بن قيس بن أحمد البوسعيدي، كان له نفوذ في منطقة صحار، اختاره بعض أعيان عمان وعزموا على عقد الإمامة له، إلا أن السلطان سعيد استطاع أن يقبض عليه ويسجنه حتى مات. انظر: نور الدين عبدالله بن حميد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، د. ط، طبع ونشر مكتبة الإمام نور الدين السالمي، مسقط، د. ت، ٢/٢١٦-٢٢٣؛ حميد بن محمد بن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ط٤، تحقيق عبدالمنعم عامر، وزارة التراث القومي والثقافة في عُمان، مسقط، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٤٨٢-٤٨٣.

بالدخول معهما في هذا الحلف ضد النفوذ السعودي في المنطقة، إلا أن هذا الأخير لم يوافق[١٠]. ولهذا وغيره وصل الأمير عبدالله بن فيصل[١١] إلى البريمي، وكان السلطان سعيد[١٢] قد عاد إلى الشطر الإفريقي من دولته. فأصبحت عمان تعيش حالة من الفوضى بسبب وجود السلطان سعيد بعيدًا عنها، وكان ذلك سبباً في عودة النفوذ السعودي في البريمي بعد أن قدَّمت له كثير من قبائل المنطقة فروض الطاعة والولاء، وذلك في عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٣م[١٣]، وهذا ما أدى إلى تدخل المقيم البريطاني بين الجانبين، فعقدت مفاوضات أسفرت عن اتفاقية تحالف بين السيد ثويني والأمير عبدالله بن فيصل، حيث التزمت حكومة مسقط

(١٠) عبدالفتاح حسن أبو علية، تاريخ الدولة السعودية الثانية، ط٤، دار المريخ، الرياض، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص١٧٨.

(١١) الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي بن عبدالله آل سعود، أكبر أبناء الإمام فيصل بن تركي، تولى قيادة الجيوش في عهد والده، وتولى الحكم من بعده عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م إلا أن أخاه سعودًا رفض حكمه مما أدى إلى نشوب عدد من المعارك بينهما أنهت حكم الدولة السعودية الثانية. انظر: إبراهيم بن عيسى، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، الرياض، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص١٢٥، ١٢٦، ١٢٨-١٢٩، ١٣١ وما بعدها.

(١٢) هو السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي، أقام دولة ذات شقين، الشق الأول في آسيا وعاصمته مسقط، والشق الآخر في إفريقية وعاصمته زنجبار، توفي في البحر وهو عائد من مسقط إلى زنجبار عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م. للتفصيل: حميد بن محمد بن رزيق، بدر التمام في سيرة السيد الهمام، كتاب ملحق بكتاب الفتح المبين للمؤلف نفسه، مصدر سبق ذكره، ص٤٠٥ وما بعدها.

(١٣) عبدالفتاح أبو علية، مرجع سبق ذكره، ص١٨٠.

بدفع الزكاة للرياض ومقدارها اثنا عشر ألف ريال نمساوي، إلى جانب متأخرات في حدود ستة آلاف ريال، والتزم الجانبان بمساعدة بعضهما في حالات الدفاع عن النفس، ضد أي عدوان. ثم رجع الأمير عبدالله بن فيصل وترك أحمد السديري(١٤) وكيلاً عنه في البريمي(١٥).

وفي عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م نشب نزاع بين السلطان ثويني والسيد عزان بن قيس(١٦)، الذي أبدى رغبته في تحويل ولائه إلى السعوديين، وأراد أن يدفع الزكاة لهم مباشرة، وهذا ما دفع بالسلطان ثويني إلى القيام بحملة عسكرية ضده، ولكن هذه الحملة لم تتجح بسبب تدخل السعوديين ومساندتهم لعزان، وذكر المقيم السياسي البريطاني في مسقط - في رسالة له إلى حكومة الهند البريطانية - أن السلطان ثويني طلب مده

(١٤) أحمد بن محمد بن سليمان السديري، أحد القادة السعوديين البارزين، حظي بمكانة خاصة لدى الإمام فيصل بن تركي، تولى إمارات عدد من المناطق السعودية، توفي عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م، للتفصيل انظر: أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، أحمد السديري الأول، مجلة الدرعية، س ١، عدد ١، المحرم ١٤١٩هـ/ مايو ١٩٩٨م، ص٤٧-١٢٣.

(15) Aitchison ,C.V., A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to Calcutta,1909. P. 185; India and Neighbouring Countries, Vol XI;

لوريمر، مصدر سبق ذكره، ٣/ ١٦٦٠.

(١٦) السيد عزان بن قيس بن عزان بن قيس بن أحمد البوسعيدي، كان حاكمًا للرستاق ثم بُويع إماماً للعمانيين بعد ثورة القبائل الإباضية على سالم بن ثويني، وذلك عام ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، وانتهى حكمه عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧١م بسبب عدم مساندة بريطانيا. له انظر: السالمي، مصدر سبق ذكره، ٢/ ٢٤٨.

بالذخيرة، وقال هذا المسؤول البريطاني: إن كلا الجانبين السعودي والعماني لهما علاقات حسنة مع الحكومة البريطانية. وعلى أي حال، فقد اقترح السلطان ثويني أن تسوَّى الخلافات بين الجانبين عن طريق المقيم البريطاني في الخليج العربي(١٧). هكذا كانت العلاقات السعودية العمانية عند تولي لويس بيلي مسؤولياته في الخليج العربي.

موقف بيلي من النفوذ السعودي في عمان قبيل رحلته إلى الرياض:

تولى لويس بيلي مهام عمله في بوشهر(١٨) مقيماً سياسياً لبريطانيا في الخليج العربي في الفترة ما بين عامي ١٢٧٨-١٢٩٠هـ/ ١٨٦٢-١٨٧٣م، وكانت هذه الفترة فترة توسع اقتصادي وتجاري بريطاني في منطقة الخليج، وذلك بعد تطور وسائل المواصلات البخارية والبريد والبرق، وتزايد المصالح البريطانية في المنطقة. ومنذ استلام بيلي مهام عمله عمل على تثبيت النفوذ البريطاني في المنطقة، وكتب خطاباً إلى حكومته - وذلك في رجب ١٢٧٩هـ/ يناير ١٨٦٣م - ضمنه رؤيته بهذا الشأن، ومن أهم ما طالب به نقل مقر المقيمية البريطانية من الساحل الشرقي للخليج العربي إلى الساحل الغربي منه، وذلك في منطقة ساحل عمان؛ من أجل

---

(17) I.O.R, L /P and S/20/C, the Precis of Najid Affairs, p.18.

(١٨) بوشهر: ميناء رئيس على الجهة الشرقية من الخليج العربي، سكانه خليط من الفرس والعرب والأرمن، ويتبع الآن الجمهورية الإيرانية. انظر:

I.O.R V/23/217, Memoir Descriptive of the Navigation of the Gulf Persian, p.p.584-586.

تحقيق الأهداف المطلوبة بشكل أفضل، إلا أن حكومته لم توافقه على ذلك[١٩].

وعلى أي حال، فقد ذكر أحد الباحثين أن بيلي - عند تولي مهام عمله في الخليج العربي - كتب رسالة إلى الإمام فيصل بن تركي طلب منه التعاون في ضبط الأمن في المنطقة، إلا أن رد هذا الأخير كان مناهضًا لبريطانيا ومنددًا بسياساتها في المنطقة[٢٠].

وعندما اقترح السلطان ثويني بن سعيد أن تسوى الخلافات بين مسقط والرياض عن طريق المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي - عقب فشل حملته على عزان بن قيس في شعبان ١٢٨١هـ/ديسمبر ١٨٦٤م - كلفت الحكومة البريطانية بيلي بكتابة تقرير عن الخلافات بين سلطان مسقط والسعوديين، وبأن يبذل مساعيه لتسوية تلك الخلافات. فقام بيلي بزيارة إلى مسقط في ذي الحجة ١٢٨١هـ/إبريل ١٨٦٥م، وتوصل إلى أن النزاع بين الجانبين يقوم على مسألتين:

الأولى: تحول ولاء عزان بن قيس من مسقط إلى الرياض[٢١].

---

(١٩) لوريمر، مصدر سبق ذكره، ١/٣٨٤-٣٩٢.

(٢٠) جون كيلي، بريطانيا والخليج ١٧٩٥ - ١٨٧٠م، ترجمة محمد أمين عبدالله، ط١، وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان، مسقط، د. ت، ٢/٤٤٩-٤٥٠.

(٢١) حوَّل السيد عزان بن قيس ولاءه إلى السعوديين مستغلاً خلافًا بين مسقط والرياض حول مبلغ الزكاة، وذلك بسبب عدم خضوعه =

الثانية: الخلاف على مبلغ الزكاة المدفوع من قبل سلطان مسقط إلى الإمام فيصل الذي طلب زيادته(٢٢).

وإزاء هذا الأمر عرض بيلي وساطته، فكتب إلى الإمام فيصل رسالة طلب منه أن يقبل تدخله لحل النزاع الذي بينه وبين السلطان ثويني بن سعيد، وفي الوقت نفسه كتب إلى حكومة الهند البريطانية أنه يشك في أنه سيتلقى رداً مشجعاً من الإمام فيصل؛ لأن قوته أضعاف قوة سلطان مسقط، وأنه يستطيع أن ينتصر عليه بسهولة، ويفرض الشروط التي يريدها. وقال بيلي إن فيصلاً سوف يرفض هذه الوساطة، لأنه يدرك أنها ستدعم سلطان مسقط الضعيف(٢٣).

وفي الوقت نفسه رفض السيد عزان بن قيس وساطة بيلي الذي طلب منه الحضور إلى مسقط، وأخبره أن وساطته جاءت متأخرة؛ لأنه أعطى ولاءه للسعوديين، ووصل في هذه الأثناء الوكيل السعودي إلى مسقط وطلب من السلطان ثويني بن سعيد زيادة مبلغ الزكاة، ولكن السلطان ثويني - وبناء على توصية بيلي - رد على الوكيل السعودي بأنه قد قام بأداء ما التزم

= للسلطان ثويني بن سعيد وسعيه لإعادة الإمامة الإباضية في عمان، فانتهز عزان بن قيس هذا الخلاف فوثّق علاقته مع السعوديين من أجل التقوّي بهم ضد سلطان مسقط. انظر:

I.O.R, L /P and S/20/C, 240, OP. Cit., p.18.

(22) I bid, p.20.

(23) Kumar, Ravinder ,India and The Persian Gulf Region , As-tudy in Britis Imperial Policy, Bombay, 1955, p.43.

به، أما فيما يتعلق بالزيادة المقترحة فإنه سوف ينتظر ما تسفر عنه وساطة بيلي(٢٤).

وأشار بيلي في تقريره إلى حكومته حول هذه المسألة فقال: "لو قام سلطان مسقط باستشارتي قبل أن يتصرف لنصحته بأن يتجنب الصراع مع السعوديين ،وأن يؤجل تحركاته، وأن يستخدم اسمي وسيطاً حتى أتمكن من الاتصال بالأمير السعودي". وذكر بيلي بعد ذلك أنه يتفهم الدوافع التي جعلت سلطان مسقط يسعى لوساطته في هذا الأمر، لكنه يدرك جيداً أن هذه الوساطة لن تؤثر في الإمام السعودي، بل إنها ستجعله يجزم بأننا نعمل لصالح حكومة مسقط(٢٥).

واتفقت معه حكومة الهند في رأيه، وكتبت خطاباً في ذي القعدة ١٢٨١هـ/ ٢٢ مارس ١٨٦٥م إلى السلطان ثويني بن سعيد وأوصته بأن يسعى جهده لتحسين علاقاته مع السعوديين(٢٦). وعلى الرغم من ذلك فإن السعوديين رفضوا وساطة بيلي، واعتبرت العلاقات بينهم وبين حكومة الهند البريطانية شبه مقطوعة(٢٧).

---

(24) I.O.R, L /P and S/20/C 240, OP. Cit., p.21;

لوريمر، مصدر سبق ذكره، ٣/١٦٦٢.

(25) I.O.R, L/P.and S/20/C, 240, OP. Cit ., p.19.

(26) I bid.

(٢٧) لوريمر، مصدر سبق ذكره، ١/٣٧٢.

رحلة بيلي إلى الرياض وأثرها في توجيه السياسة البريطانية في المنطقة:

قام بيلي في ربيع عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م برحلة إلى الرياض، وكان هناك عدد من الأهداف التي يعزم على تحقيقها من وراء هذه الزيارة، ويمكن إجمالها هنا فيما يلي:

١ - العمل على إيجاد تسوية ودية للنزاع بين مسقط والرياض[٢٨].

٢ - إزالة العداء بين الحكومتين السعودية والبريطانية الذي نتج عن الحملة البريطانية لمكافحة تجارة الرقيق في الخليج العربي وشرق إفريقيا[٢٩]، ومحاولة بناء علاقة صداقة وسلام بين الجانبين من أجل تنمية التجارة في منطقة الخليج العربي[٣٠].

٣ - بحث مسألة القرصنة التي كانت تمارس في الخليج العربي [على حد زعم المسؤولين البريطانيين]، وكذلك أعمال السلب والنهب التي تتعرض لها السفن البريطانية بين الفينة والأخرى.

---

(٢٨) كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/ ٤٥٠.

(٢٩) شنت بريطانيا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي حربًا على السفن العربية التي تتهمها بتجارة الرقيق الأمر الذي نتج عنه تدمير التجارة العربية المشروعة في تلك الفترة. انظر: بلي، مصدر سبق ذكره، ص١٢؛ كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/ ٣٤٩ وما بعدها.

(٣٠) بلي، مصدر سبق ذكره، ص٢-٣.

٤ - العمل للحصول على تأييد الإمام فيصل لسياسة بريطانيا تجاه تجارة الرقيق(٣١).

هذا إضافة إلى أهداف أخرى لا يتسع المجال لذكرها هنا.

وكانت رحلة بلجريف(٣٢) [Palgrave] في الجزيرة العربية خلال الفترة ما بين عامي ١٢٧٩-١٢٨٠هـ/ ١٨٦٢-١٨٦٣م قد أوقدت حماس بيلي للقيام بعمل مماثل، ولا سيما بعد أن تسربت إليه معلومات عن أهداف هذه الرحلة، والتي من أهمها أن الحكومة الفرنسية قد أوفدت بلجريف من أجل جمع معلومات عن تحركات البريطانيين في الخليج، والبحث عن مكان لإنشاء مستوطنة فرنسية في المنطقة(٣٣).

ومن هنا نجد أن بيلي قد غادر بوشهر في بداية رحلته إلى الرياض دون علم حكومته، ذلك أن خطابه المتضمن شرح الأسباب التي دفعته إلى تلك الخطوة لم يُرسل من بوشهر إلا بعد مضي شهر من بدء رحلته، كما أنه لم يلق ترحيبًا أو معارضة لزيارته من جانب الإمام فيصل بن تركي(٣٤).

---

(٣١) أبو علية، مرجع سبق ذكره، ص١٤٤-١٤٥.

(٣٢) بلجريف: رحالة إنجليزي زار نجد ومناطق أخرى في بلاد العرب لحساب الحكومة الفرنسية توفي عام ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م. انظر: مجموعة العلماء، المنجد في اللغة والإعلام، ط ٣٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢م، ٢/١٣٥؛ أبو علية، مرجع سبق ذكره، ص١٣٧-١٣٩.

(٣٣) كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/٤٤٧-٤٤٨.

(٣٤) بلي، مصدر سبق ذكره، ص٢١؛ لوريمر، مصدر سبق ذكره، ٣/١٦٦٦؛ كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/٤٥٠.

عندما وصل بيلي إلى الرياض وجد أن الإمام فيصل مستاء من تصرفات الحكومة البريطانية، والأسلوب الذي اتبعته بريطانيا في مكافحة تجارة الرقيق في منطقة الخليج العربي، وقد نتج عنه تدمير عدد كبير من السفن العربية، إلا أنه في الوقت نفسه يرغب في إقامة علاقات طيبة معها[٣٥].

ومهما يكن الأمر، فإن رحلة بيلي إلى الرياض لم تحقق نتائج سياسية ذات قيمة[٣٦]، إلا أنه أدرك أن توتر العلاقات بين مسقط والرياض قد بلغ ذروته.

وعندما عاد بيلي من رحلته إلى الرياض ووصل إلى بوشهر، بعث ببرقية إلى حكومة الهند البريطانية ذكر فيها أن العلاقات بين الإمام فيصل بن تركي والسلطان ثويني بن سعيد تتطلب اهتمامًا سريعًا، وإذا كانت هذه الحكومة لا تزال راغبة في أن يتولى هذه المهمة فإنه يقترح أن يُخوَّل بزيارة مسقط ثم بومباي. فوافقت حكومة الهند البريطانية، على هذا المقترح ومُنح بيلي الصلاحيات اللازمة[٣٧].

---

(٣٥) بلي، مصدر سبق ذكره، ص١٢، ٧٦-٧٧؛ كيلي، بريطانيا والخليج، ٤٥٥/٢.

(٣٦) لوريمر، مصدر سبق ذكره، ٣/ ١٦٦٨، ويعلل لوريمر عدم تحقيق نتائج مهمة بالمرض الذي أصاب الإمام "فيصل" بعد زيارة بيلي بثلاثة أشهر.

(٣٧) فؤاد سعيد العابد، سياسة بريطانيا في الخليج العربي ١٨٥٣-١٩١٤، ط١، دار ذات السلاسل، الكويت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ٤٥/٢.

غادر بيلي بوشهر في شهر شوال ١٢٨١هـ/مارس ١٨٦٥م، ومكث في مسقط بعضاً من الوقت، ثم واصل سفره إلى بومباي، وقدّم هناك تقريراً إلى حكومته بيَّن فيه رأيه في طبيعة العلاقات بين مسقط والرياض، وكان بيلي في تقريره ذلك متأثراً بنتائج رحلته إلى الرياض[٣٨].

ومن هذ المنطلق أوصى حكومة بلاده بأن تقدم المساعدات اللازمة للسلطان ثويني بن سعيد، وتؤيد جهوده في مواجهاته مع السعوديين، حتى ولو تعارض هذا التأييد مع مبدأ السياسة البريطانية القائمة على عدم التدخل في النزاع الذي ينشب بين حكام شبه الجزيرة العربية، ولا سيما أن عمان - على حد زعم بيلي - لها وضع خاص؛ لأن حكومة الهند البريطانية تعتبر ملتزمة التزاماً صريحاً بتأييد السلطان ضد خصومه، اعتماداً على اتفاقية عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م[٣٩]، وعلى البيان البريطاني الفرنسي المشترك عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م القاضي باحترام استقلال شطري السلطنة العمانية عن بعضهما ووحدة أراضي كل منهما. ولهذا طلب بيلي من حكومته أن تسمح للسلطان ثويني بفرض حصار بحري على سواحل الأحساء، وتقديم احتجاج مباشر إلى

---

(٣٨) لم يكن بيلي راضيًا عن مستوى الاستقبال الذي حظي به في الرياض حيث أقام في بيت معزول مخصص للأجانب، واعتبر الاستقبال الذي لقيه كان فاتراً، وأدرك سخط الإمام فيصل بن تركي على السياسة البريطانية في الخليج العربي، وهذا مالم يعجب بيلي الذي اتخذ سياسة متشددة مع السعوديين فيما بعد. انظر: بلي، مصدر سبق ذكره، ص٧٤-٨٧.

(٣٩) كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/٤٥٨.

الإمام فيصل أو عن طريق الدولة العثمانية، وأكد ضرورة مناصرة حق السلطان ثويني في حماية حدود بلاده[٤٠].

ويؤكد أحد الباحثين[٤١] أن عدم اهتمام الإمام فيصل بن تركي بزيارة بيلي إلى الرياض جعله يحمل حقداً عليه، وهذا ما حمله على أن يوصي حكومته بالوقوف إلى جانب السلطان ثويني ضد السعوديين. ولكن يمكن القول إن السياسة البريطانية الدائمة في منطقة الخليج آنذاك هي دعم الحكام الذين وقعوا اتفاقيات معها دون غيرهم، كما أن علاقة السلطان ثويني بالحكومة البريطانية لا يمكن مقارنتها بعلاقتها مع الإمام فيصل. وعلى أي حال، وافقت حكومة الهند البريطانية على تقديم الدعم العسكري اللازم للسلطان ثويني، فتم الإيعاز إلى قائد الأسطول البريطاني في بومباي بأن يرسل السفن التي يمكنه الاستغناء عنها إلى منطقة الخليج، وذلك في أسرع وقت ممكن، كما أنها أعطت بيلي الصلاحيات اللازمة لاستخدام هذا الأسطول لتحقيق تفاهم بين السلطان ثويني والإمام فيصل، على ألا يقوم بأي عمليات عسكرية في البر. وفي الوقت نفسه مُنح السلطان ثويني مدفعين يستعين بهما في محاربة السعوديين في البريمي[٤٢].

وهكذا اتجهت حكومة الهند البريطانية لدعم السلطان ثويني بن سعيد ضد السعوديين، وكانت تقارير بيلي ذات أثر

---

(٤٠) كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/٤٥٧-٤٥٨.

(٤١) العابد، مرجع سبق ذكره، ص٤٥-٤٦.

(٤٢) كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/٤٦١-٤٦٢.

بالغ في توجيه هذا الدعم. غير أن هذه الحكومة لا ترى التدخل العسكري المباشر في نزاعات هذا السلطان مع خصومه، ولا سيما في الجانب البري، وإنما يمكن للمقيم البريطاني التلويح باستخدام القوة البحرية لدعم السلطان إذا لزم الأمر. ولكن بيلي منذ عودته من رحلته إلى الرياض أخذت سياسته تتشدد إزاء السعوديين ولهذا نجد أنه يخالف آراء حكومته في بعض الأحايين.

الاعتداء البريطاني على الموانئ السعودية :

لم يكن السلطان ثويني بن سعيد يحظى بقبول كافة القبائل العمانية، ولا سيما بعد خضوع هذا السلطان لحكومة الهند البريطانية، وقبوله بالحكم الذي أصدرته بتقسيم السلطنة العمانية، وموافقته على الإجراءات التي تتخذها هذه الحكومة ضد السفن العمانية التي تتهم بتجارة الرقيق، وهذا ما أدى إلى ظهور معارضة لهذا السلطان من قبل بعض القبائل السنية والإباضية على حد سواء. ففي عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م قامت ثورة في بلدة صور(٤٣) العمانية بزعامة قبيلتي الجنبة(٤٤) وبنو

---

(٤٣) صور: ميناء عماني مهم يقع على ساحل الباطنة في الجنوب الغربي من مسقط، وهو ميناء تجاري يأتي في المرتبة الثانية بعد مسقط. انظر: مايلز، س.ب. الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبدالله، ط٤، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م، ص٢٨٤.

(٤٤) الجنبة: من أكبر القبائل العمانية وهم من القبائل السنية الغافرية، يعملون في التجارة مع شرق إفريقيا، كانوا معادين للنفوذ البريطاني في عمان. انظر: شركة الزيت العربية الأمريكية، مصدر سبق ذكره، ص١٣١-١٣٤؛ كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/٤٦٦.

بو علي[٤٥] ضد السلطان ثويني، وطلب الثائرون العون من الأمير السعودي على منطقة البريمي تركي بن أحمد السديري، فهب لنجدتهم، واشتركت قوات السعوديين معهم، فسيطروا على حصن البلدة، كما دخلوا سوقها، وتضرر بعض أصحاب الدكاكاين، ومعظمهم من رعايا حكومة الهند البريطانية من الجالية الهندية، وقُتل أحدهم، وتذكر الوثائق البريطانية أنهم جُردوا من كل شيء قبل أن يسمح لهم بمغادرة صور إلى مسقط، وقدرت هذه المصادر خسائرهم بسبعة وعشرين ألف دولار نمساوي. ولم يكن السلطان ثويني لوحده قادرًا على الدفاع عن هيبته؛ لذا بعث بيلي برسالة احتجاج باسم الحكومة البريطانية إلى الإمام فيصل وإلى الأمير السعودي على منطقة البريمي تركي السديري[٤٦].

وكان هذا الاحتجاج شديد اللهجة، حيث جاء فيه :"إذا لم يقم الأمير السعودي بتقديم ترضية كافية عن الأعمال العدوانية في خلال سبعة عشر يوماً؛ فستقوم المدرعات البريطانية بتحطيم القلاع الساحلية، ومصادرة السفن التابعة للسعوديين"[٤٧]. كما طلب من الحكومة السعودية أن تدفع خسائر الرعايا البريطانيين، وأن تتعهد بعدم القيام بعمل مماثل في المستقبل[٤٨].

(٤٥) بنوعلي: قبيلة عمانية ترجع في أصولها إلى بني تميم وهي من القبائل السنية الغافرية، وهي بادية وحاضرة قدر عددهم آنذاك بتسعة آلاف نسمة. انظر: مايلز، مصدر سبق ذكره، ص٢٥٣.

(46) I.O.R, L/P and S/20 /C 240, OP. Cit., p.21;

لوريمر، مصدر سبق ذكره، ٢/٧٣٦-٧٣٧.

(٤٧) أبو علية، مرجع سبق ذكره، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٤٨) المرجع نفسه، الصفحات ذاتها.

أما حكومة الهند البريطانية فقد صدرت تعليماتها إلى بيلي وإلى قائد الأسطول البريطاني في الخليج بأن يتخذا ما يريانه مناسباً من الإجراءات لحل هذه الأزمة بطريقة سلمية، إلا أن بيلي لم يلتزم بهذه التعليمات، فأراد أن يستعمل القوة من أجل حلِّ هذا النزاع، وحظي هذا الرأي بموافقة قائد الأسطول البريطاني في المنطقة(٤٩).

ولم يلبث بيلي أن تلقى رداً لطيفًا من الإمام فيصل على الاحتجاج الذي بعث به الأول، وقد ذكر الإمام فيصل أنه أصدر تعليماته إلى نائبه في البريمي بالإفراج عن الرهائن، وإعادة الممتلكات التي أخذت منهم، إلا أنه لم يذكر شيئًا عن التعويضات أو الديات عمن قتل.

وعندما علمت حكومة الهند بهذا الرد رأت أن المطالبة بدفع تعويضات أمر غير وارد، وأوعزت إلى بيلي أن يبين للإمام فيصل أن سلطان عمان حليف لها، وأنها سوف تنظر إلى أي عمل ضده في المستقبل بأنه عمل عدائي وخطير، وفي الوقت نفسه أوصت بضرورة الوصول إلى حل سلمي للأزمة(٥٠).

على أن بيلي لم يكن مقتنعًا بمنهج حكومته في معالجة هذه الأزمة، وأصرَّ على التدخل سياسيًا وعسكريًا، مخالفًا بذلك ما التزم به عند زيارته الرياض عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م

(٤٩) عرض حكومة المملكة العربية السعودية، ١/٢٢٥-٢٢٦، نقلاً عن أبو علية، مرجع سبق ذكره، ص٢٤٣.

(٥٠) كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/٤٦٢-٤٦٣.

من أن بلاده لا تتدخل في شؤون العرب، فعمل على إقناع حكومته بالتدخل ودعم السلطان ثويني عسكرياً ومعنويًا، إضافة إلى تدخل الأسطول البريطاني بقصف الموانئ السعودية على الخليج العربي.

كان بيلي في هذه الأثناء يزور مسقط، فشجع السلطان ثويني على الهجوم على الحامية السعودية في البريمي، ونقل إليه موافقة حكومة الهند البريطانية على إعطائه مدفعين وذخيرة، وأخبره أنه [أي بيلي] يستعد لحصار الموانئ السعودية في القطيف(٥١) والعقير(٥٢)، وأنه تلقى تأكيدات من شيوخ البحرين بالتعاون معه في هذا الأمر(٥٣). وعندما بدأ السلطان ثويني بحشد القبائل استعداداً للهجوم على الحامية السعودية في البريمي،

(٥١) القطيف، ميناء سعودي على الخليج العربي، مقابل البحرين تصفه المصادر البريطانية بأنه الميناء الرئيس للسعوديين، تقدر منازله آنذاك بخمسين منزلاً.

انظر:

I. O.R, V/23/217, Pirate Ports in The Persian Gulf, p.17-18;

حمد الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد السعودية "المختصر" ط١، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧، ٢/ ٨٤٠.

(٥٢) العقير: ميناء سعودي على الخليج العربي، يتبع منطقة الأحساء، تصفه المصادر البريطانية في تلك الفترة بأنه ميناء مهم وبه قلعة حربية. انظر:

I.O.R, V/23/217, pirate Ports in The Persian Gulf, p.18-19;

الجاسر، مرجع سبق ذكره، ٢/١٠٠٥.

(53) I.O.R, L/P and S/20/C 240, OP. Cit., p.21;

لوريمر، مصدر سبق ذكره ١/ ٣٧٣؛ كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/ ٤٦٣.

قام السعوديون بالهجوم على صحم[٥٤]، وطردوا رعايا حكومة الهند البريطانية الذين كانوا بها، وغرق أحدهم[٥٥].

وفي هذه الأثناء قام الكابتن باسلي [Pasley] قائد السفينة هاي فلاير [High Flgyer] بزيارة مسقط ثم صحار[٥٦] حيث سلّم هناك المدفعين والذخيرة للسلطان ثويني، وتلقى باسلي هناك رسالة من بيلي جاء فيها: "إن حكومة صاحبة الجلالة لن تقوم بعمل في البر لكي تساعد السلطان، ولكنها مستعدة لمساندته بحرًا، وأن الأسلوب الذي يمكن أن يقوموا به ويؤثر على السعوديين هو محاصرة موانئهم في العقير، والقطيف، والدمام[٥٧]". ولم يلبث أن اجتمع بيلي مع باسلي وقررا إرسال إنذار مكتوب إلى الحكومة السعودية، وقد تضمن هذا الإنذار ما يلي:

١ - أن تقدم الرياض اعتذاراً كاملاً عما حدث في ميناء صور.

٢ - أن تدفع الحكومة السعودية مبلغ (٢٧,٠٠٠) دولار نمساوي تعويضاً عما أصاب الرعايا البريطانيين من جراء أحداث صور.

٣ - أن يكون تنفيذ ما جاء في هذا الإنذار في حدود سبعة عشر يوماً. وإذا انتهت هذه المدة ولم يستجب السعوديون

---

(٥٤) صحم: بلدة تقع على ساحل الباطنة، تبعد عن مسقط نحو ١٨٥كم، وتحيط بها مزارع النخيل. انظر: مايلز، مصدر سبق ذكره، ص٣٦٥.

(٥٥) لوريمر، مصدر سبق ذكره، ٢/٧٣٧.

(٥٦) صحار: ميناء مهم في عمان، يقع على ساحل الباطنة، يبعد عن مسقط نحو ١٥٠ميلاً، انظر: مايلز، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٤-٣٦٥، لوريمر، مصدر سبق ذكره ،القسم الجغرافي، ٧/٢٤٠٠.

(57) I. O.R., L/P and S/20/C, 240, Op. Cit., P. 25.

لهذه المطالب، فإن السفن البريطانية ستقوم بتدمير القلاع السعودية في موانئ الدمام والقطيف والعقير، وستصادر السفن والقوارب التابعة لها(٥٨).

وبعد هذا الإنذار أرسل بيلي رسالة إلى الحاكم العام للهند ضمَّنها تفاصيل خطته فقال: "أعتزم توجيه الضربة في هدوء، وفي هذا الأسلوب أبدو - في حالة فشل الخطة - وكأنني لم أوجه أي ضربة إلى هؤلاء الوهابيين الذين لا يمكن أن يرتدعوا إذا لم نوجه إليهم ضربة قاصمة، إنهم يعتقدون أن الإنجليز وحتى ضباطهم يخافون من الوهابيين"(٥٩).

وفي خضم هذه الأزمة توفى الإمام فيصل بن تركي، وذلك في رجب ١٢٨٢هـ/ديسمبر ١٨٦٥م(٦٠). وعلى الرغم من أن بيلي علم بوفاة الإمام فيصل في ٢١ شعبان ١٢٨٢هـ/ ٨ يناير ١٨٦٦م، إلا أنه طلب من باسلي تنفيذ الخطة كما رسمت سابقاً، وحينما حلَّ يوم ١٧ صفر ١٢٨٢هـ/ ٢ فبراير ١٨٦٦م، ولم يتلق باسلي رداً من الرياض، أمر بالهجوم، فتقدم نحو ميناء القطيف، وقامت القوات البريطانية بتدمير سفينتين شراعيتين، وحصناً صغيراً في الميناء. وفي اليوم التالي حاولت هذه القوات قصف حصن الدمام، إلا أن العملية

---

(58) Ibid, p.26-28;

كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/٤٦٦؛ عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي ١٢٧٥-١٣٣٣هـ/ ١٨٥٨-١٩١٤م، ط١، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ١٢٦-١٢٧.

(٥٩) كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/٤٦٥.

(٦٠) ابن عيسى، مصدر سبق ذكره، ص١٢٨.

فشلت، وقتل أربعة جنود بريطانيين، وجرح ضابطان وثلاثة جنود. ثم قامت هذه القوات بقصف قلعة الدمام، لكن الصخور والفجوات على الشاطئ عاقت حركة السفينة، بحيث لم تصل القذائف إلى أهدافها(٦١).

ومهما يكن الأمر، فقد واجه بيلي لومًا شديداً من عدد من المسؤولين في حكومة الهند البريطانية بسبب فشل القوات البريطانية في قصف القطيف والدمام؛ وذلك لعدد من الأسباب يأتي في مقدمتها عدم مرافقة بيلي السفينة "هاي فلاير" عند توجهها للموانئ السعودية، أي أن عدم وجود مسؤول بريطاني له خبرة كافية بالأوضاع المحلية من أهم أسباب الفشل كما صرح بذلك قائد الأسطول الملكي لحكومة بومباي(٦٢).

ومن هنا نرى أن حكومة الهند البريطانية تخلت عن حيادها المزعوم(٦٣) في سبيل الدفاع عن مصالحها ومصالح حلفائها، فحرضت سلطان مسقط على الهجوم على البريمي، وأمدته بالسلاح والعتاد اللازمين.

---

(61) I.O.R, R/15/6/4, Letter from Lievtenant Colonel L. pelly Political Resident, Persian Gulf to C. Gonne, Esqire Secretary of Government, Bombay, In25 Marsh 1866, p.73;

لوريمر، مصدر سبق ذكره ٣٧٨/١؛ كيلي، بريطانيا والخليج، ٤٦٦/٢.

(٦٢) كيلي، بريطانيا والخليج، ٤٧٠/٢-٤٧١.

(٦٣) على الرغم من موافقة حكومة الهند البريطانية على الخطوات التي اتخذها بيلي ضد السعوديين، إلا أنها لاحظت على بيلي أنه لم يسمح بمرور وقت كاف لوصول رد من الرياض، كما أن الشروط التي طلبها من السعوديين كانت أكثر مما تتطلبه الظروف. انظر:

I.O.R, R/15/6/4, Letter from Lievtenant Colonel L Pelly.... Op. Cit., p.67.

سياسة بيلي تجاه النفوذ السعودي في عمان بعد وفاة الإمام فيصل:

لم تسهم وفاة الإمام فيصل بن تركي في تخفيف سياسة بيلي المناوئة للسعوديين، بل إنه مضى قدماً في مناصرة السلطان ثويني بن سعيد، فعندما علم بهذا الخبر طلب من السلطان العماني سرعة تنفيذ خطته بالهجوم على البريمي، لأن بيلي عرف - حينما كان في الرياض - أن العلاقة بين عبدالله وسعود ابني الإمام فيصل بن تركي ليست على ما يرام(٦٤)، ولهذا نصح السلطان ثويني بالمبادرة بالاستيلاء على البريمي، قبل أن يتفرغ السعوديون وينظموا شؤونهم، وتتبين مسألة من سيتولى الإمامة(٦٥) في الرياض(٦٦).

هذا الموقف الذي اتخذه بيلي شجع السلطان ثويني على التقدم لمهاجمة البريمي، منتهزاً بذلك فرصة وفاة الإمام فيصل، وحدوث انشقاق بين أبنائه، وقد وجد تأييداً كبيراً من القبائل الهناوية(٦٧)، ولا سيما في المنطقة الشرقية من عمان(٦٨)، ثم

(٦٤) بلي، مصدر سبق ذكره، ص١١٠.

(٦٥) الواقع أن مسألة الإمامة في الرياض بعد وفاة الإمام فيصل محسومة لابنه الأكبر عبدالله جرياً على العادة التي سار عليها آل سعود منذ الدولة السعودية الأولى.

(66) Kumar, Op. Cit., p.35-36.

(٦٧) تنقسم القبائل العمانية في فترة البحث من حيث المذهب إلى قبائل هناوية مذهبها إباضي، وقبائل غافرية مذهبها سني سلفي. انظر: شركة الزيت العربية الأمريكية. مصدر سبق ذكره، ص١٢٤-١٢٦.

(٦٨) جمال زكريا قاسم، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠-١٩١٤م ط٢، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٤م، ص٩٧.

انتقل إلى صحار لوضع الترتيبات النهائية للهجوم. وبينما كان السلطان نائمًا في قلعة صحار دخل عليه ابنه السيد سالم[٦٩] فقتله، وتولى السلطة في مسقط، وكان ذلك في السابع والعشرين من رمضان عام ١٢٨٢هـ/ الرابع عشر من فبراير عام ١٨٦٦م[٧٠]. وهكذا أصيب بيلي بخيبة أمل شديدة من فشل حملته على الموانئ السعودية، ومن قتل السلطان ثويني وفشل حملته على البريمي.

تلقى بيلي هذه الأنباء بغضب شديد، وأراد القيام بعملية كبيرة من أجل استعراض القوة البريطانية؛ لتعويض الفشل الذي منيت به خططه، فتوجه إلى ميناء صور وطلب من زعماء الجنبة حلفاء السعوديين دفع ٢٧ ألف دولار نمساوي، وإلا فإنه سوف يقصف بلدتهم، وأبدى هؤلاء الزعماء استعدادهم لدفع هذا المبلغ بعد عودة سفنهم من شرق إفريقيا والبحر الأحمر في فصل الربيع، إلا أن بيلي رفض هذا الطلب، وبدأت السفن البريطانية بإطلاق نيرانها على معاقل البلدة فدمرتها، ودمرت السفن الشراعية الموجودة في الميناء، وكان ذلك في رمضان ١٢٨٢هـ/فبراير ١٨٦٦م[٧١].

---

(٦٩) السيد سالم بن ثويني بن سعيد بن سلطان البوسعيدي، تولى الحكم بعد والده ولم يلق قبولاً من العمانيين؛ لأنه قتل أباه، لذا لم يستمر في الحكم أكثر من عامين ما بين عامي١٢٨٢-١٢٨٥هـ/ ١٨٦٦-١٨٦٨م حيث هرب إلى مسقط بعد ثورة القبائل عليه. انظر: السالمي، مصدر سبق ذكره، ٢/٢٣٦وما بعدها؛ شركة الزيت العربية الأمريكية، مصدر سبق ذكره، ص٣٥، ٣٧.

(٧٠) السالمي، مصدر سبق ذكره، ٢/٢٣٤.

(٧١) لوريمر، مصدر سبق ذكره،٣/١٦٧٣؛ كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/٤٦٦-٤٦٧.

وعلى أي حال، فقد تلقى بيلي أخيراً رسالة من حكومة الهند البريطانية تأمره بعدم مطالبة السعوديين بتعويضات، فعادت سفن الأسطول البريطاني إلى بومباي، وفي الوقت نفسه وصلت إلى بيلي خطابات من الإمام عبدالله بن فيصل الذي تولى الإمامة بعد أبيه، وكانت تلك الخطابات مؤرخة في ١٠ رمضان ١٢٨٢هـ/ ٢٨ يناير ١٨٦٦م، وقد وافق الإمام عبدالله في خطابه الأول على الاقتراح الذي سبق أن تقدم به بيلي للإمام فيصل بن تركي قبل عدة أشهر للتوسط في الخلافات القائمة بين مسقط والرياض. أما الخطاب الآخر فكان رداً على الإنذار البريطاني، حيث أبدى فيه الإمام عبدالله رغبته في التشاور، وأعلن أن قبيلة الجنبة هي المسؤولة عن عمليات السلب والنهب وخلافها، مما تعرض له الرعايا البريطانيون في ميناء صور، إلا أنه لا يستطيع الحصول على تعويضات من هذه القبيلة، وأبدى الإمام عبدالله استعداده لإرسال وكيل إلى بيلي ينوب عنه في تسوية الخلافات بين الجانبين(٧٢).

وفي الخامس من ذي الحجة عام ١٢٨٢هـ/الحادي والعشرين من إبريل ١٨٦٦م، التقى بيلي في بوشهر مع مبعوث الإمام عبدالله بن فيصل الذي كان قد وعد بإرساله، وهو محمد بن عبدالله بن مانع، وبعد هذا اللقاء حصل بيلي على بيان من المبعوث السعودي جاء فيه:

(٧٢) لوريمر، مصدر سبق ذكره، ٣/١٦٧٣-١٦٧٤.

"١ - خولني الإمام عبدالله بن فيصل أن أطلب إلى الصاحب المقيم في الخليج ليكون وسيط الصداقة بين الإمام عبدالله بن فيصل والحكومة البريطانية.

٢ - أؤكد للمقيم في الخليج نيابة عن الإمام عبدالله بن فيصل، أنه لن يلحق الأذى أو الضرر بالرعايا البريطانيين المقيمين في الأراضي الداخلة تحت سيطرته.

٣ - أؤكد للمقيم في الخليج نيابة عن الإمام عبدالله بن فيصل أن الإمام لن يهاجم أو يلحق الأذى بأراضي القبائل المتحالفة مع الحكومة البريطانية، ولاسيما تلك المقيمة في مملكة مسقط، باستثناء تلقي الزكاة المألوفة منذ أمد بعيد"(٧٣).

ومهما يكن الأمر، فإنه يستنتج من هذا التصريح - الذي لم يعثر على أصل عربي له - أن بيلي يعتبر حكومته طرفاً مباشرًا في الخلافات القائمة بين مسقط والرياض، وقد اعتمد على كونها حامية لمسقط(٧٤).

والواقع أن الظروف التي تسلم فيها الإمام عبدالله دفة الحكم في الرياض وخروج أخيه سعود ثائراً عليه هي التي دفعت هذا الإمام إلى مثل هذا الالتزام، هذا إضافة إلى أن الحكومة السعودية تريد استمرار دفع الزكاة ليكون ذلك علامة على التبعية، وهذا ما تم الاتفاق عليه مع بيلي.

---

(٧٣) جون كيلي، الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية، ترجمة خيري حماد، ط١، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧١م، ص١٣١-١٣٢.

(٧٤) أبو علية، مرجع سبق ذكره، ص٢٤٦.

أرسل بيلي هذا البيان إلى حكومة الهند البريطانية يُطلعها عليه ويطلب رأيها فيه، فجاء الرد بالموافقة عليه، مع تخويله صلاحية تسوية الأمور بين مسقط والرياض، على ألا يلتزم بأي تعهد بشأن ضمان استمرار دفع الزكاة، وسمحت هذه الحكومة لبيلي بأن يقوم بدور الوسيط بين الجانبين إذا ما نشب بينهما خلاف(٧٥).

وبعد هذا الالتزام من الإمام عبدالله بن فيصل هدأت حدة عداء بيلي للسعوديين بعد أن اعتدت قوات الأسطول البريطاني على القطيف والدمام، ودكت حصون ميناء صور، ونكلت بقبيلتي بنو بو علي والجنبة، وأسهمت في تأييد السلطان العماني ضد خصومه، وضمنت عدم تدخل الإمام السعودي في شؤون مسقط بموجب هذا البيان، إضافة إلى الصراع الدائر في نجد بين الإمام عبدالله وأخيه سعود. وهذا ما قلل من فرص استئناف السعوديين لنشاطهم في عمان.

ولذلك نجد أن بيلي كتب خطاباً إلى الإمام عبدالله أبدى فيه ارتياحاً للبيان السعودي، وقال: "تلقيت كتاب سموكم الودي من يد خادمكم الأمين محمد بن عبدالله بن مانع وحاشيته. لقد صرحتم بأنكم ترغبون في السلام، وسلمني مندوبكم ورقة، أبعث طيه بنسخة منها، بعد موافقة حكومة جلالتها عليها. وإذا حدث ونشأت صعوبات فيما بعد، حول ما تدفعه مسقط من الزكاة لكم، فإن الحكومة البريطانية

(٧٥) كيلي، بريطانيا والخليج، ٢/٤٧٦؛ العابد، مرجع سبق ذكره، ص٥٠.

لا تريد أن تتدخل في الأمر، أو أن تصبح كفيلاً في مسألة تهمكم أنتم والسلطان، ولكنها لا تمانع في استخدام وساطتها لوضع تفاصيل اتفاق بينكما، وقد أبلغني مندوبكم أنه في حالة ما إذا نشأ مثل هذا الأمر، فإنكم ستكتبون إليّ وتطلبون وساطتي. إني آمل أن يصلكم كتابي هذا وأنتم بخير، وإذا كانت لديكم أي صعوبة فأرسلوا إلي مندوباً أميناً، وسأكون مسروراً دوماً لمقابلة مندوبيكم مقابلة ودية، كما جرى مع محمد بن عبدالله بن مانع"(٧٦).

وعلى الرغم من هذا التقدم في العلاقة بين الجانبين السعودي والبريطاني إلا أن بيلي لم يَزَل مستمراً في تأييد سلاطين مسقط ضد السعوديين، وهذا ما دفع بهؤلاء السلاطين إلى التنصل من دفع الزكاة، ولا سيما بعد بدء الحروب بين أبناء الإمام فيصل(٧٧).

وعندما تولى السيد عزان بن قيس الحكم في عمان في الفترة ما بين عامي ١٢٨٥-١٢٨٧هـ/ ١٨٦٨-١٨٧١م، سارع بالاستيلاء على البريمي وقضى على النفوذ السعودي هناك، وكتب رسالة إلى بيلي يخبره بهذا الأمر(٧٨)، ورغم أن حكومة الهند البريطانية كانت لا تعترف حتى تاريخ هذه الرسالة

---

(٧٦) أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية، د. ط، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، د. ت، ١/١٦٤.

(٧٧) أبو علية، مرجع سبق ذكره، ص٢٤٩.

(٧٨) رسالة بالعربية من عزان بن قيس إلى بيلي مؤرخة في جمادى الأولى ١٢٨٦هـ. انظر:

I.O.R, R/15/6/3

بحكومة عزان بن قيس، إلا أن بيلي عبّر عن سروره بهذه المناسبة وأرسل تهنئته إلى عزان[٧٩]، كل ذلك نكاية بالسعوديين.

ومهما يكن الأمر، فقد شهدت السنوات الباقية من عمل بيلي في الخليج العربي - بصفته مقيمًا سياسيًا بريطانيًا - تراجعاً للوجود السعودي في منطقة الخليج العربي عامة، وعمان خاصة؛ نظراً للنزاع بين أبناء الإمام فيصل بن تركي حول الحكم، وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى سقوط الدولة السعودية الثانية. ولذلك لم يقم بيلي بجهود تذكر ضد السعوديين في السنوات الأخيرة من عمله في منطقة الخليج.

(79) I.O.R, R/15/6/3, Afew Items of Intellrgane Collected by political Agent Muscat at sohar and Berka on 21st and 22nd july 1869.

الخاتمة:

استعاد الإمام فيصل بن تركي النفوذ السعودي في عمان مع مطلع فترة حكمه الثانية، وأصبحت منطقة البريمي مركزاً لنفوذه في جنوب شرق الجزيرة العربية، وأدى السلطان ثويني بن سعيد الزكاة له، ودانت كثير من قبائل المنطقة بالتبعية للدولة السعودية الثانية.

والواقع أنه لم تكن هناك علاقة واضحة في أول الأمر بين الدولة السعودية الثانية وبريطانيا، في وقت تدعي فيه حكومة الهند البريطانية عدم التدخل في شؤون العرب الداخلية ما دامت مواصلاتها في الخليج وبحر العرب آمنة. إلا أنه منذ تولي لويس بيلي عمله مقيمًا سياسياً لحكومة الهند البريطانية في الخليج العربي في الفترة ما بين عامي ١٢٧٨-١٢٩٠هـ/ ١٨٦٢-١٨٧٣م، اتخذت السياسة البريطانية تجاه الدولة السعودية الثانية مسلكًا يتصف بالعدائية، ولا سيما بعد الزيارة التي قام بها بيلي إلى الرياض عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م، حيث عبَّر له الإمام فيصل عن عدم رضاه عن السياسة البريطانية تجاه العرب، وما نتج عنها من تدمير سفنهم، وتعطيل تجارتهم بحجة القرصنة أو غيرها.

ومنذ عودة بيلي من الرياض أخذ بتأييد السلطان ثويني بن سعيد ضد السعوديين، وخالف مبدأ الحياد الذي تدعيه حكومة الهند البريطانية. وكانت التقارير التي بعثها بيلي إلى حكومته قد أدت إلى زيادة الدعم البريطاني للسلطان العماني في نهاية المطاف.

ولم تلبث سفن الأسطول البريطاني أن اعتدت على الموانئ السعودية في الدمام والقطيف، ودكت قلاعها عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م، بإشراف ومتابعة من بيلي الذي اتهم الحكومة السعودية بأنها وراء الأحداث التي وقعت في ميناء صور في العام نفسه. ولم يكتف بيلي بذلك، بل نكل بالقبائل الموالية للسعوديين في عمان، على الرغم من عدم رضا حكومته. وحرَّض بيلي السلطان ثويني بن سعيد على الاستيلاء على البريمي من السعوديين ووعده بالدعم والمؤازرة.

وعندما تولى الإمام عبدالله بن فيصل الحكم في الرياض عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م، سارع بإرسال عدد من الرسائل إلى بيلي لبدء علاقة جديدة تقوم على الاحترام المتبادل، وهذا ما نتج عنه البيان الذي كتبه محمد بن مانع المبعوث السعودي إلى بوشهر باسم الإمام عبدالله بن فيصل، وقد أكد فيه رغبة الحكومة السعودية في السلام مع السلطان العماني، شريطة دفع الزكاة إلى الرياض، وعدم ممانعتها في وساطة حكومة الهند البريطانية تجاه أي خلاف ينشأ بين مسقط والرياض. ولم تلبث هذه الحكومة أن وافقت على هذا البيان.

ويفترض أن السياسة البريطانية تجاه السعوديين بعد هذا البيان تأخذ صفة الحياد، إلا أن بيلي لم يلبث أن سارع بتهنئة عزان بن قيس بعد أن استولى على البريمي من السعوديين، رغم أن حكومته لا تعترف بحكومة عزان.

وهكذا نجد أن سياسة بيلي العدائية وأعماله العسكرية تجاه السعوديين أسهمت في الحد من النفوذ السعودي في

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ السنة الخامسة والثلاثون
الدارة

عمان، وأدت إلى توتر العلاقة بين حكومة الهند البريطانية والدولة السعودية الثانية، على الرغم من أن هذه الأعمال من بيلي ضد السعوديين لم تجد تأييداً كافياً من حكومته، وهذا ما يؤكد النزعة العدوانية التي تميز بها بيلي ضد الدولة السعودية.

الشَّكوى والضَّراعةُ إلى الله من الألَم الجسدي والنفسي عند شعراء سعوديين (١٣٧٠ - ١٤٠٠هـ)

د. لطيفة بنت عبدالعزيز المخضوب
قسم اللغة العربية - كلية التربية (الأقسام الأدبية) - جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

الشكوى والضراعة إلى الله ممارسة طبعية لكل إنسان مؤمن بالله في كل الأوقات والأحوال، وتزداد تلك الشكوى والضراعة عند الإحساس بثقل الذنب، ووخز الإثم، وصرخات النفس اللوامة، أو عند وجع جسدي، أو ألم نفسي، أو قلق فكري، أو عند حاجة خاصة أو عامة... والشاكي دائمًا يلجأ إلى من يزيل الشكوى أو يخففها، فيلجأ إلى دروب عدة، ومسالك متنوعة، ولكن الملاذ الآمن والحصن الحصين هو اللجوء إلى الله جل وعلا، والضراعة له، فهو القادر وحده على تحقيق الحاجة والراحة. "إن أمورًا كثيرة تلجئ الشاعر إلى الله كما تلجئ غيره، فحالات المرض، والحروب، والتطاول على الحقوق، وكثرة الذنوب، وضياع الأمة، وانتهاك حقوقها، كل هذه تحمل الشاعر المسلم على اللجوء إلى الله والتطلع إلى مساندته"(١).

(١) النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر، د. حسن بن فهد الهويمل، نادي القصيم الأدبي، بريدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، ص١٧٢.

وتتنوع مضامين هذا الشعر وتتعدد، وربما كانت الشكوى وحدَّتُها هي التي تحدد نوعية هذه الضراعة وتلك الشكوى التي تتوقف على نفسية الشاعر وظروفه؛ لذا يختلف هذا الشعر من شاعر لآخر، فمنهم من يبكي ويستغفر، وآخر يطلب الرحمة، وثالث يسأل كشف الضر، ورابع يستغيث استغاثة المكروب، ومنهم من يلجأ إلى الله في الشدائد والمصائب من أمراض ومحن...

وشعر الابتهال والدعاء وبيان عظمة الله وافر في الشعر السعودي، ولا يخفى أن هذا الموضوع الشعري واسع ومتنوع، ويحتاج إلى دراسة مستفيضة، وممتدة زمنيًا، وشاملة لكل أشكال شعر الشكوى والضراعة إلى الله في الشعر السعودي، لذا فقد اقتصرت في هذه الدراسة على محور واحد هو: الشكوى من أوجاع الجسد، وآلام النفس، ومن الضيق والحزن، أي دراسة بعض النصوص الشعرية السعودية التي ترتبط فيها الشكوى بالضراعة إلى الله، واللجوء إليه، أي بث الشكوى والمعاناة من أوجاع الجسد والنفس، ثم الضراعة إلى الله والابتهال واللجوء إليه، أي ارتباط الضراعة أو الابتهال بالشكوى، وليس الدعاء فحسب أو الشكوى فحسب، بل ارتباطهما معًا، فكلاهما يستدعي الآخر وينبثق منه. وقد حددت الفترة الزمنية في هذا البحث من عام ١٣٧٠-١٤٠٠هـ؛ لأن هذه المرحلة الزمنية من عمر الشعر السعودي تمثل مرحلة الاستقرار والنهضة، وهي ثمرة التعليم، ونتاج الاستقرار، وتنوع مصادر الثقافة، من مكتبات ووسائل إعلام...، أيضًا

برز في هذه الفترة شعراء كبار أسهموا في نهضة الأدب السعودي.

إن لجوء الشاعر المسلم إلى خالقه يناجيه ويبثه شكواه، ويبوح بمعاناته، ويضرع إليه، شاكيًا، وسائلاً تحقيق حاجاته، لا يدخل تحت مظلة نزعات، أو اتجاهات أدبية، ولا يمكن أن يصنف ضمن تيار أدبي معين له تصنيفات وتنظيرات...، غير أنه شاعر مسلم مؤمن متوجه إلى قاضي الحاجات، شاكيًا وضارعًا. لذا لن أربط هذا الموضوع الشعري باتجاه أدبي محدد.

وقبل دراسة النصوص لا بد من توضيح ماهية الشكوى والضراعة إلى الله من الناحية اللغوية، ثم بيان معنى شعر الشكوى والضراعة إلى الله، ومدى علاقته بالدعاء. وبما أن هذا الشعر يتميز بلغة ذات معجم معين، وتستند بشكل كبير إلى الأخذ من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، فمن الواجب بيان مواطن الاقتباس في بعض النصوص الشعرية.

وقد اخترت دراسة هذا النوع من الأداء الشعري لما يحمل من مضامين إسلامية عميقة. ولتأكيد أن الشعر ليس عبثيًا لاهيًا؛ بل هو جزء من الفنون القادرة على ترسيخ وتجسيد العقيدة، والقيم، والمبادئ.

ماهية شعر الشكوى والضراعة إلى الله. وبيان مدى علاقته بالدعاء:

الشكوى هي بث الألم والحزن، والبوح بالأوجاع(٢)، كما في وصف عنترة بن شداد لتوجع فرسه الحزين الشاكي بعبرة حرّى، ونظرة أسيانة، وحمحمة مفصحة(٣):

فازْوَرّ مِنْ وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِهِ وشَكَا إليّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ
لو كانَ يَدْرِي ما المُحَاوَرَةُ اشْتَكَى ولَكانَ لو عَلِمَ الكَلامَ مُكَلّمِي

أما الضراعة فهي: طلب الحاجة في ذل وخضوع، وشعور بالضعف واللين(٤).

ولأن الشكوى بث الألم من وجع نفسي، أو جسدي، أو فكري، وغالبًا ما تكون الشكوى لمن يقدر أن يزيلها أو يحد منها أو على الأقل ليخفف الشاكي عما في نفسه من هذا الهم أو الوجع ؛ فيمكننا أن نرى الصلة بين الشكوى والضراعة وثيقة، فكلتاهما تعني ألمًا وحاجةً وإفصاحًا، وتزيد هذه الصلة عمقًا وقوة عندما تكون الشكوى والضراعة للقادر على رفع الشكوى، ولمن تكون له الذلة والخضوع.

ولمعرفة ماهية هذا الشعر ونوعيته، لابد من بيان معنى الدعاء اصطلاحًا: "ومعنى الدعاء: استدعاء العبد ربه - عز

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور. دار صادر، بيروت، ١٤/٤٣٩ - ٤٤١، مادة: شكا.

(٣) جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، شرح وتعليق: د. عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، ص١٥٠.

(٤) انظر: لسان العرب، مادة: ض ر ع.

وجل - العناية واستمداده إياه المعونة. وحقيقته: إظهار الافتقار إليه والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله (عز وجل) وإضافة الجود، والكرم إليه، ولذلك قال رسول الله ﷺ "الدعاء هو العبادة"(٥). وهناك تعريف آخر للدعاء: "الدعاء، والدعوى مصدران، ويقال: الطلب، والسؤال، والمسألة: عبادة، وسمة للعبودية، يستدعي به العبد من الله العناية، ويستمد المعونة ويستجلب الرحمة، ويستدفع النقمة، ويظهر به الافتقار والذلة البشرية متبرئًا من الحول والقوة إلا به"(٦).

وبناء على التعريف اللغوي للشكوى والضراعة، ولمعنى الدعاء، يمكننا تعريف شعر الشكوى والضراعة إلى الله بأنه: شعر ذو نزعة إسلامية، وموضوع إسلامي، يلجأ الشاعر فيه إلى الله، يناجيه ويبثه شكواه، ويبوح بآلامه، وآماله، ليس على سبيل الإفضاء فقط، بل رغبة في تحقق إزالة الشكوى.

(٥) شأن الدعاء، لأبي سلمان حمد بن محمد الخطابي الحافظ، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق. دار المأمون للتراث/ دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٣.

(٦) تصحيح الدعاء، بكر عبدالله أبو زيد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٩م. ص١٥.

الشكوى والضراعة إلى الله من الألم الجسدي. والنفسي عند شعراء سعوديين:

من الشعراء السعوديين الذين ابتلوا بالمرض عبدالسلام هاشم حافظ (١٣٤٧-١٤٠٩هـ) فقد أصيب "بمرض القلب وهو بعد في الثانية عشرة من عمره، واشتدت عليه أزماته، فكان كلما أصيب بأزمة خرج منها بقصيدة، حتى قدر له وأجرى العملية الجراحية لفتح صمام بالقلب في أواخر عام ١٣٧٦هـ"(٧)، وقد جسَّد الشاعر وصور معاناته مع المرض في شعره، وشكا إلى الله وجعه، ضارعًا إليه وحده في تحقيق الشفاء، وكتب ديوانًا كاملاً أسماه: "قلبي المناضل" بين عامي ١٣٦٧-١٣٧٧هـ/ ١٩٤٩-١٩٥٨م، أغلبه عن معاناته مع مرض القلب، وما يكابده منه، ولا تكاد تخلو قصيدة من الثناء على الله سبحانه وتعالى، والابتهال إليه، والشكوى إليه سبحانه من قسوة الدَّاء. وقد اتبع أساليب متنوعة في الكشف عن معاناته مع مرض القلب، وما يقاسيه من آلامه، عن طريق القصائد الغنائية، والقصصية، والحوارية ذات الحس المسرحي، وذلك بتشخيص المرض ومحاورته، وإشراك شخوص متعددة تسانده في البوح بمرضه.

ففي عام ١٣٧٤هـ شكا إلى الله علَّته، وتضرع إليه قائلاً(٨):

ربّاهُ هذي قصةُ الشَّبِّ المصابِ وثورة الألم المقيمْ
ألمٌ طغَى بالنفسِ والقلبِ الكئيب، وعذّب الجسمَ السّقيمْ

---

(٧) وحي وقلب وألحان، (قلبي المناضل) نادي أبها لأدبي، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. ص١٠٥.

(٨) المرجع نفسه، ص١٠٧.

ربّاه أدرك شـاعـرًا تشـتـد علّتـه وتبكيـه الغـيـومْ
يَحيا سجينَ العلَّةِ العظمَى، عليلاً ضلَّ في وادي الجحيمْ
أنقذْه.. أنقذْ جسميَ الواهي وأنتَ رجائي الباقي الرحيمْ

وعلى الرغم من محاصرة المرض وسيطرته على جسد عبدالسلام هاشم حافظ إلا أنه لم يسخط أو يتبرم بالمقدور، وظل صامدًا في وجه الداء، راضيًا بقضاء الله، متأملاً في محنته - كما ظهر من النص - "لقد حجزني الألم عن الناس بشخصي، وعن كل متعة بنفسي، ولكنه التصق بي في هيكل الفكر، ودار بي في ميادين المعرفة المختلفة.. فإذا بي راهب فكر، أتحدى الألم وأقاوم شتى الأعاصير التي تهب في طريقي بين الفينة والفينة، وحسبي هذا"[٩].

وتتكرر شكوى عبدالسلام هاشم حافظ من المرض واستغاثاته بالله سبحانه وتعالى راجيًا رحمته، ففي عام ١٣٧١هـ شكا وجعه، سائلاً الله اللطف به، في قصيدة سمَّاها: (ومن أجل الآخرين)[١٠]، مزج فيها بين شكوى حاله، ومرضه، وضراعته إلى الله، طالبًا الرحمة، في لغة شاكية، تشي بحدة المعاناة من الوجع:

ربّاهُ قد طالَ اغترابي واضطرابُ مناهجي
ودجَى عليَّ العمرُ في فجري وفي الصبح البليلْ
رحماك يا منْ ترتجيه الخلقُ تفريجَ الكروبْ
قلبي تداعى اليوم تحتَ معاولِ الدَّاء القديمْ

(٩) المرجع نفسه، ص١٠٦.
(١٠) المرجع نفسه، ص١٣١.

جسمي تهدَّده السَّقامُ وغاله الضّعفُ المريب

ودمُ الشباب يمورُ في عصبٍ تضعضع بالهموم

أوَّاه يا ربي ومَنْ أشكو إليه هنا سواك؟

ويستمر في الضراعة والشكوى من المرض، ومناداة الموت:

أنقذ حياتي من لظَى الأدواء والألم الدفين

قد عيَّ جسمي باحتمال الداء والهمِّ الصَّبيب

أنْصِفْ فؤادي، فالفؤادُ من الشُّجونِ دعَا المنون

لقد لجأ الشاعر إلى حروف المد والنفس الطويل: (الصَّبيب، المريب، الكروبْ، الهموم، الشُّجونِ، المنون...) مما أكسب النص مزيدًا من الأنين والشجن.

وتشتد معاناته مع المرض، فينزف: "يا رحمة الله"[١١]:

يا رحمة الله أنت اليوم مأملنا

مُنى لنفسي التي أغرى بها السقَمُ

طالت بي الشقوةُ الحمقاء واضْطربتْ

مواهبي، وطغَى في حسِّيَ الألمُ

الدَّاءُ يفتكُ في جسمي وتُرهقُه

مخالب العلَّةِ الدهياء والرَّجمُ[١٢]

---

(١١) المرجع نفسه، ص١٤١.

(١٢) "والدَّهْياءُ: الدَّاهِية من شدائدِ الدَّهْر... دواهِي الدَّهْر: ما يُصيبُ النَّاسَ من عظيم نُوَبِه..." لسان العرب، مادة: د هـ و.

قلبي يُناديك، طالت حـــيـــرتي ودجَى
حظِّي، وأنت المرجَّى فـــيـــه والحَكَمُ

مـأسـاة الشـاعـر سطَّرها في شعـره، وأودع فيـه قصته مع العلة المستحكمة، كما ذكر أن حياته "من أول سطورها تحمل الكثير من الآلام المتولَّد بعضها في أعقاب بعض... فإذا هي من المرض والقلق، ومن الحرمان والكآبة"(١٣). ومع أن المرض عاث في جسد شاعرنا، وكابد آلامه، إلا أنه تدثر بالصبر، ولجأ إلى الله في شدته، لا يرجو من غيره الرحمة واللطف، كما أنه جسَّد معاناته وصورها بلغة كاشفة عما يمور في داخله، وما يضج في نفسه من مشاعر متضاربة بين الأمل واليأس، هذا اليأس الذي يطرده باللجوء إلى الله شكوى وضراعة، فاختار من الألفاظ والعبارات والصور ما يعينه على تصوير وجعه الجسدي: "قلبي تداعى اليوم تحت معاولِ الدَّاء القديمْ، جسمي تهدَّده السَّقامُ، لظَى الأدواء والألمَ الدفين، الدَّاءُ يفتكُ، مخالب العلَّةِ الدهياء، الشقوةُ الحمقاء". وتتكرر لفظة الداء مرات عدة في القصيدة الواحدة، وهذا التكرار يكشف عن محاصرة المرض للشاعر، وسيطرته عليه، مما يوحي بمدى معاناته من قسوة المرض. وقد ألقت اللغة الشعرية بظلالها على مناخ القصائد، فالألفاظ والعبارات التي يشكو بها الشاعر ويتضرع إلى الله أيضًا تجسد هذا الوجع وتلك المعاناة، فجاءت الضراعة بوحًا بالمعاناة وبالوجع، أكثر من كونها دعاءً خالصًا.

(١٣) وحي وقلب وألحان، (قلبي المناضل)، ص١٠٥.

أما الشاعر أحمد عبدالغفور عطار (١٣٤٣-١٤١١هـ) فيضرع إلى الله أن يرحمه ويشفيه بعد أن برحت به الحمى الملتهبة، وغشَّى على عينيه الرمد القاسي، وذلك في "رحماك رباه"(١٤):

إني فريسة حمى جدُّ نافضة
تصلي فؤادي وتستشري على كبدي
واستأسد الرمدُ القاسي على بصري
وغم عيني، فيا ويلي من الرمدِ
وصار قلبي بكفِّ الهول يعصرُه
والسقمُ يفتك بي والنارُ في جسدي
وما تبقى بجسمي غيرُ أعْظُمِه
تكسى بجلد وهذا الروحُ في صَفَدِ(١٥)
شتى سهام توالى فيَّ صاردُها
غضبان لا ينثني عن جسم مضطهدِ(١٦)
من كُل ناحية يأتي مسددهُ
يُصمى ولا مثل سهم جدِّ مصطردِ

---

(١٤) الهوى والشباب، أحمد عبدالغفور عطار، مؤسسة جواد للطباعة، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٥٥.

(١٥) الصَفَد: الوثاقُ. (لسان العرب، مادة: ص ف د).

(١٦) صاردُها: "الصَّرْدُ: الطعنُ النافذُ. وصَرِد الرمحُ والسَّهم يَصْرَدُ صَرَدًا: نَفَذَ حدُّه. وصَرَدَه هو وأصرده: أنْفَذَه من الرَّميَّة..." لسان العرب، مادة: ص ر د.

فــلا مــفــر من الحُــمَّى وقــدْ سكنتْ
جــســمي وقلبي وأوهتْ باللظى جلدِي

وبعد أن يجسد وجعه ومعاناته، يسأل الله أن يرحمه، ويشفيه من علته، فهو وحده سبحانه من يلجأ إليه عند الشدائد: "

يا رب رحــمــاك بي فــالســقمُ برَّحَ بي
وأنت وحــدك يا رب الورى صــمــدي
وليس غــيــرك يشــفــيني ويرأفُ بي
فـعــافني من لظى الحمى وخُذ بيدي

جاءت مساحة الشكوى، والبوح بالألم، وتجسيد المعاناة من المرض، أوسع من الضراعة والدعاء، مما يوحي بعنف المرض وشدته، وتراخي قدرة الشاعر على التحمل أمام سطوة الداء. كما أن بوح الشاعر بمرضه الجسدي يوحي بقسوته، يدل على ذلك الصور الشعرية التي شخّص بها المرض: "استأسد الرمدُ القاسي على بصري، وصار قلبي بكفِّ الهول يعصرُه، شتى سهام توالي فيَّ صاردُها"، تصوير قوي لنهش المرض للجسد البشري الضعيف، ولغة صارخة كاشفة عن عظم البلاء.

والشاعر طاهر زمخشري (١٣٣٢ - ١٤٠٧هـ) قبل وفاته اعترته الآلام والأسقام الجسدية المبرحة، فتوجه إلى الله شاكيًا من أوجاع الجسد والنفس، ضارعًا وطالبًا رحمته وشفاءه، وعفوه، فقيرًا إلى نواله سبحانه. لكن وهو في ضراعته وشكواه يغضي خجلاً من ذنوبه ومعاصيه وتقصيره، ومع ذلك يرجو رحمة رب كريم، ويقبل على الله بروح مفعمة

بالأمل والرجاء، رافعًا يديه يرجو عطاءه، وذلك في قصيدة "رباه"(١٧):

رباَّهُ قد كنتَ لي في كلِّ ضائِقَةٍ ولا تزالُ مُجيبًا حين أبْتَهل
وألْف معصيةٍ أُغْضِي لها خَجَلا وقد تعَثَّر بي من ذُلِّها الوجَلُ
لكنَّ عفْوَكَ عنها ليس يدفَعُني إلا إلى حيثُ من رحماكَ أَنْتَهلُ
وقد بسطتُ يدي أرجوكَ نائلةً من فيضِها لحياتي يَبْسِم الأملُ

والشاعر راض بقضاء الله وقدره، وهو صابر على ما أصابه من الأوجاعٍ ولهيبها، فقد نحل جسده، وذوى من العلل، واشتعلت مآقيه من لهيب الأدواء:

وما تَبرَّمْتُ والمقدُورُ يعصفُ بي لأنَّني بالذي تَقْضِيه أَحْتفِلُ
فامنن عليَّ بما عودتني فلقد ناشَت" فؤادي" وأَذْوَتْ عودَهُ العِلَلُ
فالداءُ يُشْعِلُ في طَيَّاته لهبًا وفي مآقِيَ من جبَّاره شعَلُ

ثم يتوجه إلى الرحمن الرحيم الشافي المعافي ضارعًا طالبًا الشفاء:

ربَّاه هذي يدي تَمْتَدُّ ضارعةً وبَرْدُ لُطْفِكَ ريٌّ ماله مَثَلُ
فإنْ رحِمتَ فَفَضْلٌ أنت سابغُه عليّ بُرْدًا به ما زلتُ أَشْتَمِلُ

تفصح ألفاظ الشاعر عن عاطفة صادقة، وتصور قلبًا خاشعًا وجلاً خائفًا، راجيًا من الله الشفاء والرحمة وبرد اليقين.

---

(١٧) مجموعة النيل، ديوان: عودة الغريب، طاهر زمخشري، الناشر: تهامة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٦٨٣.

ومن الشعراء الذين سيطر عليهم التشاؤم، وقهرهم الحزن، والمرض: الشاعر حمد الحجي (١٣٥٧ - ١٤٠٩هـ)، "فإن المرض النفسي قد داهمه ولم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره فعطّل فيه كل قدرة منتجة، وأعاق تلكم العبقرية المبكرة، والطاقة الشعرية الهائلة، فحرمنا بذلك من شاعر لو سلم لكانت له شئون"(١٨). لقد عاش الحجي، مكتئبًا حزينًا، وصور في شعره نفسيته المهتزة الحائرة، ورؤيته القاتمة للحياة والأحياء، تلك الرؤية التي لا تستطيع التكيف مع واقعها وظروفها، فعاش حزينًا قلقًا غريبًا بين الناس، إلى أن أودى به هذا القلق إلى الإصابة بمرض نفسي حاد، يظهر من شعره أنه مرض الاكتئاب، الذي بدأ بالقلق وكراهية الحياة، وعدم التكيف مع الواقع، ثم تطور هذا القلق والاكتئاب إلى ازدواج في الشخصية، بلغ مداه وتحول إلى مرض عقلي في آخر حياته، ثم أصيب بالتهاب حاد في الرئة، قضى عليه عام ١٤٠٩هـ. ولقد بقي أغلب سنوات عمره خلف أسوار المصحات النفسية والعقلية، فقد تنقل بين المصحات النفسية في الكويت، ولبنان، ومستشفى الأمراض العقلية والنفسية بشهار في الطائف، والمصحة النفسية بالرياض، بحثًا عن الشفاء. حقًا إنه "من الشعراء البائسين التعساء"(١٩).

(١٨) الشاعر حمد الحجي، أ. د. محمد بن سعد بن حسين. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٣٤.

(١٩) شعراء نجد المعاصرون، عبدالله بن إدريس، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، ص٢٠١.

والدراسة هنا لما أبدعه الشاعر في بداية مرضه النفسي، عندما كان واعيًا بتصرفاته، وبآلامه وأحزانه ووساوسه التي سيطرت عليه وغلبته وأدخلته في سراديب المرض النفسي، قبل أن ينتهي به التجوال إلى ذهاب العقل والانسحاب من الواقع، فجمدت مشاعره وأحاسيسه المتأججة بالتذمر والسخط على كل شيء حتى على ذاته.

لقد كشف شعر الحجي عن هذا القلق والألم العنيف المتجذر في نفسه، "وكثيرًا ما يصور حياته في شعره، غير أنه مضطرب فكريًا لنوازع القلق التي تهدد كيانه من جراء البؤس والفاقة"[٢٠]. نشأ الحجي فاقدًا لحنان الأم، فقد توفيت والدته وهو صغير، وعاش مع أب فقير معدم، اضطر بسبب هذا الفقر إلى العيش في بيت أخته[٢١]. حياة أسرية مضطربة غير مستقرة، وعوز مادي، هذه العوامل مجتمعة تراكمت على نفسية شاعر مرهف، فشكلت شخصية معذبة بائسة حزينة. على أن الحرمان المادي، والجفاف العاطفي الذي نشأ فيه الحجي لا يولِّد دائمًا القلق النفسي المتجاوز للحدود أو المرضي، إن لم تكن هناك عوامل أخرى مساندة، لعل من أبرزها النفسية الحساسة المرهفة، التي هي نقمة في حالة هذا الشاعر. وربما كان من العوامل المحفزة على بروز حدة القلق والتوتر النفسي عند الحجي - وإن لم يكن عاملاً رئيسًا - العصر الذي عاش فيه الحجي، فعصره

---

(٢٠) المرجع نفسه.

(٢١) اتجاهات الشعر المعاصر في نجد، د. حسن بن فهد الهويمل، نادي القصيم الأدبي، بريدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، ص٢٤٠.

"عصر نقلة فجائية قفزت به من مستوى قروي محدود الثقافة والحضارة إلى حياة حضارية متمدنة يمزق فيها العلم ستر الجهل... حياة تأخذ بشتى وسائل التقدم التي وصل إليها إنسان العصر الحديث في كافة مجالات حياته المادية وغير المادية"(٢٢). إنها الصدمة الحضارية التي تصيب بعض الناس بعدم القدرة على التكيف والتلاؤم مع المتغيرات، أو الغربة النفسية. أيضًا يجب التسليم بأن المرض النفسي كالمرض الجسدي، يبتلى به بعض الناس دون أن يكون هناك بواعث ظاهرة أحيانًا لهذا المرض النفسي أو ذاك العضوي. وليس كل شيء في الحياة يخضع للتفسير والتأويل البشري القاصر.

لقد نشأ الحجي متشائمًا حزينًا، متبرمًا من حياته، هاربًا من الواقع، كثير الشكوى والسؤال. ففي قصيدته المطولة "من أعماق نفسي" يصور حياته ويكشف عن نفسيته القلقة، ويبوح فيها برؤيته القاتمة لكل ما هو جميل، ويسرد فيها ما يشعر به تجاه العالم المحيط به. وقد قسم النص إلى ستة مقاطع، وعنون كل مقطع بعنوان خاص وهي: "خلف المنظار الأسود، طموح وعذاب، الناس والحزين، أماني، لو، إنابة"، والحقيقة أن كل مقطع من هذه المطولة يعد لوحة شعرية رائعة، تجسد الشقاء النفسي كما يعيشه هذا الشاعر، وفيها يستفهم ويتساءل عن سر تعاسته وشقائه، ويكثر من التذمر والشكوى، ويصرخ متسائلاً ما باله لا يرى الأشياء إلا كالحة السواد، ولا يسمع إلا نعيق الغربان. ففي المقطع الأول "خلف المنظار

(٢٢) المرجع نفسه.

الأسـود"(٢٣) يجسـد نظرته إلى الجمـال، ويبين عن نفسية متشائمة شاكة حزينة، لا ترى إلا البؤس، والقبح، والغدر:

إنْ نَظرتُ الجمالَ غضًا طريًا   يتَجلّى في المَنْظرِ الخَلاب
لاحَ لِي أسْودُ المَصِيرِ كمُسَوَدّ اللّيالِي مُكَشّرَ الأنْيَاب
فَرَأيتُ الجَمَالَ يُطوى بأكْفَان ويَبْلى مُمَزّقَ الأسْلاب
وإذا لاحَ لِي البَهاءُ وَضِيئًا   قُلْتُ: يَا دَهْرُ لَيْسَ ذا مِنْ حِسابي
وإذَا أُعْجِبَ الأنَامُ بشيءٍ   بتُّ مِنْهُ فِي مَوقفِ المُرْتَاب
إنْ تغنت حمائِمُ ملتُ عنها..   ثم أرهفتُ مسمعي للغُراب

ووسط هذا الظلام الموحش، وهذه الدوامة الخانقة، يحاول البحث عن شاطئ يرسو به، ويلقي فيه أحزانه وأوجاعه، بعد تجواله وثورته النفسية الصارخة الحانقة على الحياة والأحياء، نجد في ثنايا تلك الثورة لجوءًا إلى الله سبحانه وتعالى، وتوجهًا بالشكوى له وحده سبحانه، من القلق والسأم والاكتئاب، مذعنًا مستسلمًا للواحد الأحد، بعد أن برحت به الأحزان، واختلطت عليه الدروب(٢٤):

لَسْتُ أدْري سِرَّ التَّعاسَة إلا   أنَّني تُهْتُ فِي دُجَى سِرْدَابي
رَبِّ تَاهَتْ سَفِينَتِي في ثنايا الـ   ـيَمِّ فَارْتَعْتُ مِنْ رُؤَى الأكْرَاب
يا إلهي أشكُو إليكَ انقِباضِي   واعتِزالِي وخُلوتِي وانْتِحَابي
تقْرَعُ الحادِثَاتُ بابِي ولَمْ أَصْبِرْ سُرورًا - يومًا - يَمُرُ ببَابي

(٢٣) الشاعر حمد الحجى، أ. د. محمد بن سعد بن حسين، ص٤٢.
(٢٤) المرجع نفسه، ص٤٦.

وينهي تلك القصيدة المطولة بالمقطع الذي عنونه بـ "إنابة"(٢٥) آيبًا إلى الله يسأله الصواب والهدى، قائلاً:

رَبِّ آمنْتُ بالحَقيقَةِ فاجْنُبْـ ... ـنِي مَتَاهات أوبَتِي للعَذابِ
رَبِّ إنِّي أدْرَكْتُ حقَّك فلتُشْـ ... ـرقْ بنفسِي نُورًا يُضيءُ جنَابِي
هَا أنا قدْ مللتُ تَجْوالَ عَقْلِي ... فِي سَحِيق الأجْوا ولُجِّ العُبابِ
أنَا يا ربِّ إن أُداري جراحِي ... مَنْ صُنُوفِ الآلامِ والألْغابِ
فاهْدِنِي للصَّوابِ إنِّي مُنيبٌ ... ذُو تسَامٍ إلى الهُدى والصَّوابِ

ومع كل هذا اليأس الكالح، والوجع النفسي الهادر الذي تصرخ به ألفاظ الشاعر وصوره، إلا أننا لا نجد من الشاعر حنقًا، أو سخطًا يتجاوز بالشاعر حدود العقيدة الإسلامية، أو سبًا للقدر، أو جنوحًا نحو الانتحار، بقدر ما نستشف نفسية هشَّة منهكة ضائعة، فاقدة للدفء العاطفي والأمن النفسي واليد الحانية الراعية الموجهة التي تداوي أوجاعه، وتطفئ ثورة نفسه الصاخبة الملتهبة.

لقد كشف شعر الحجي عن نفسيته القلقلة، "ولم يكن الحجي متصنعًا في بكائه، أو مستعيرًا قناع غيره... بل هو شاعر يغترف من بؤس حياته وتعاسة دنياه، ذلك البؤس وتلك التعاسة اللذان صبغا أيامه بجلباب حالك السواد، وأصاباه بكثير من الاضطراب النفسي، وكزازة الطبع، وضيق المزاج، واقتربا به من الشاعر العباسي علي بن جريج الرومي"(٢٦).

---

(٢٥) المرجع نفسه، ص٤٨.

(٢٦) انظر: شعراء من أرض عبقر، محمد العيد الخطراوي، منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٣٩٨هـ، ١/١٦٩.

ففي قصيدته "ثورة نفس"(٢٧) يحكي لنا حياته بأسلوب يسري فيه نبض القصة، ويصورها بزورق ضعيف يشق عباب البحر/الحياة، وأمواجه الهادرة المتلاطمة الحانقة تضربه من كل جانب، وتحمل من قاعه صرخات الذعر ممن غرق قبله في بحر الحياة، وهو يقود هذا الزورق وسط ظلام حالك السواد، يقول في هذه القصيدة:

فِي سُكُونِ اللَّيْلِ قُدْتُ الزَّوْرَقَا   قاصِدًا شَطَّ رجَائِي الشَّيِّقَا
مُبْحِرًا نَحْوَ الغَدِ المجهُولِ في   حُلْكَة لَمْ أَجْلُ فِيهَا أُفُقَا
كَمْ يثُورُ البحْرُ حولِي مُزْبِدًا   لاهِبَ العَصْفِ مَغْيظًا مُحْنَقَا
حَمَلتْ أمْواجُهُ مِنْ قاعِهِ   زَعَقَاتِ الذُّعْرِ مِمَّنْ غَرِقَا

وبعد أن أعطى الحجي لمحة لحياته المتشائمة المرتعبة، يتوجه بالشكوى إلى الله سبحانه وتعالى من عقله المرهق، الذي يجول بغير هدى في دياجي الفكر:

رَبِّ ضَلَّ العقْلُ فِي غَيْهَبِه   فَارْحَمِ اللَّهُمَّ عَقلِي المُرْهَقَا
زَوْرقِي فَوقَ مِياهٍ عصَفتْ   بَاتَ مجْنُونًا وبَاتَتْ زَئْبَقَا

ثم يستمر الشاعر في تصوير زورقه الذي يهتدي فيه بالأنجم، ولكن الفاجعة أن هذه الأنجم انطفأت، وأظلم الكون من حوله:

عِشْتُ بالأنجُمِ مِنْ سَلْسَالِهَا   أغْرفُ الضَّوءَ وأُطْفِي الحَرَقَا
ثُمَّ ماتَتْ فسَمَائِي صَخْرةٌ   يَبِستْ بَعْدَ كَرِيمِ المُسْتَقَى

(٢٧) الشاعر حمد الحجي، أ. د. محمد بن حسين، ص٢٨.

يأس متجذر، ووحشة نفسية مرعبة، فما الخلاص؟ ولمن الشكوى؟ وهنا يتوجه إلى الله شاكيًا، فالسفينة تائهة، والأمواج عاتية، والظلام حالك، والنفس منهكة، والأمل غارب:

يَـا إلـهي أظْـلَـم الـكَونُ فـلـم   تَرَ عَـينٌ فِي دُجَـاهُ ألَـقَـا
أمَلٌ يَخْـبُـو وقلْبٌ يَرتمِي   فَوقَ أشْواقِ الضَّنَى مُنسَحِقَا
ظُلُمَاتُ اليأسَ مَا فِيها سِوى   جَمْرَةٍ فِيها فُؤادِي احْتَرقَا

جسد الحجي حياة قلقة مضطربة، يخنقها ظلام اليأس، وصوّر فؤادًا محترقًا، ونفسًا تائهة مرتعبة، كارهة للحياة، تعشق الرحيل:

يَا لَعَيْنِي مِن تصَاريف النَّوى   يالرُوحِي مِن تَبَاريحَ الشَّقَا
كَفِّنِي يا شَمْسُ مِنِّي هَيْكلا   كَفِّنِيهِ هَيْكلاً مُحْتَرقَا
وادْفِنِيهِ جَانِبَ النَّهْرِ فَقَدْ   يَتَلقَّى الصُّبح غُصْنًا مُورِقَا

لقد لخّصت قصيدة "ثورة نفس" مأساة الشاعر وتشاؤمه، وكراهيته للحياة، وضياعه النفسي. كذا نجد أن لجوء الشاعر إلى الخالق العظيم أتى في صورة ومضات خافتة في وسط ظلام نفسي حالك السواد، ففي خضم هذا اليأس وهذا الزورق التائه يقول شاكيًا متضرعًا إلى الله:

رَبِّ ضَلَّ العقْلُ فِي غَيْهَبِهِ   فَارْحَم اللَّهُمَ عَقلِي المُرهقَا
يَـا إلـهِي أظْـلَـم الـكَونُ فـلـم   تَرَ عَـينٌ فِي دُجَـاهُ ألَـقَـا

في هذين البيتين نجد توجهًا إلى الله، لكنه موشًّى بروح قلقة يائسة شاكية، مما يرشح أن يكون هذا النص من آخر ما كتب الشاعر(٢٨)؛ لأن الحجي يبدو في قمة التوتر وذروة الانفعال، فقد كتبها إبان علاجه في لبنان، ونشرتها مجلة الورود اللبنانية(٢٩). كما أن هذه الشكوى، ليست شكوى المستسلم المطمئن، بل شكوى المتوجع اليائس.. فلو امتدت هذه الشكوى وهذه المناجاة لهدأت نفس الشاعر التائهة واستقرت، وثبَّتها الإيمان والهدوء والتسليم. إن نظرة الشاعر إلى الحياة يغطيها اليأس والتشاؤم، فلم يُبق منفذًا للأمل أو التفاؤل. ولكن الحجي استطاع - بمقدرة شَعرية فائقة - أن يصور نفسيته البائسة المعذبة، وأن ينقل المتلقي إلى عالمه المخيف، ويشركه في مأساته، ويجبره على الشعور بهمّه وفواجعه في الناس والحياة التي لم يستطع فكره البشري القاصر أن يجد لها تفسيرًا مقنعًا.

ومن الشعراء الشاكين من آلام النفس، ومن الحزن والضيق، محمد الفهد العيسى (١٣٤٣هـ)، فشعره ينضح بالتشاؤم والقلق والانقباض، ويصور هذا اليأس في ضراعته وشكواه إلى الله سبحانه وتعالى في قصيدة "دعاء"(٣٠):

يا إلهَ السماءْ رحمةً يا إلهْ
راعَ قلبي الشقاءْ في ربيع الحياهْ

(٢٨) اتجاهات الشعر المعاصر في نجد، د. حسن الهويمل، ص٢٥٣.

(٢٩) المرجع نفسه.

(٣٠) على مشارف الطريق، محمد الفهد العيسى، مطابع دار العلم للملايين، بيروت، ص٤٠-٤٢.

يا إله السماءْ

كـيف أحيا؟ وروحي تُذاب بكأس العـَنَـا والحــزَنْ

كـيف أحيــا؟ وقلبي جــراح تنوحُ بليــلِ الشَّــجنْ

يا إله السماءْ

رحمة يا إلهْ

وينهي شكواه وضراعته إلى الله بالحنين إلى الموت:

إننــي قــد شقيت حــياتي حــنين ودمــعٌ ودمْ

ربّ إنّ الفناءَ أحب إليّ فقد هدَّ قلبيَ الضنى والألمْ

يا إله السماءْ

رحمة يا إلــهْ

حــتى في لجـوئه إلى الله ســبـحــانه وتعــالى، تتضح ذاته بالحــزن والألم والتأوه والاضطراب النفسي، ويتكرر هذا في كثير من قصائده الذاتية، فتكثر شكواه من الأوجاع النفسية، ويضــرع إلى الله أن يرحــمــه ويخلصــه من هذا الهم والقلق والحــزن والشقاء. والمتمعن في قصائد العيسى الشاكية لا يتبين باعثًا ملموسًا لكل هذا الأسى النفسي العاصف، بقدر ما يخرج بانطباع عن نفسية قلقة مضطربة لا يقر لها قرار، تجهل ما تريد، أو على الأقل لا تريد أن تفصح عن مكنونها، نفســيــة تعشق التذمـر، وتتلذذ بتـعـذيب الذات، ولعله مـقلدٌ للشعراء المتألمين.

وأحيــانًا تكون نبـرة الشكوى من الحــزن والضيق عند بعض الشـعـراء خـافتـة، بمعنى أن تكون ســحــابة صيف عــابرة، فــلا

تشكل ظاهرة بارزة، بل حالة طارئة يمر بها الشاعر، يدل على ذلك مقطوعة قصيرة للشاعر محمد عبدالقادر فقيه (١٣٣٨هـ) الذي بلغ به الحزن والضيق مداه، فلم يعد يرى في الحياة إلا السواد والظلام، وشكا من جفاف قلبه وظمئه، فهرع إلى الله شاكيًا ضارعًا أن يجلو عن قلبه السواد، ويمده بالسكينة ويهبه النور، يقول في "ابتهال"[٣١]:

يـاربّ مـلءُ يـدي وفـي قـلـ ... ـبي وفـي دربـي الـرمـــادُ
دنيـايَ ذي احـتـرقتْ وكـفّـن ... أفـقـهـا الدّامي الســوادُ
لا اللُّجُّ يـطفـئـهـا ولا ... فـي الشّـطِ يـرتـاحُ الـفـؤادُ
أنـا نِضْـوُ أحـزانٍ تـرامـت ... ـنـي الصـحـاري والـوهـادُ
فـاشـرق عـلى قـلـبـي بنو ... رِكَ إنـك الـبَـرُّ الجـوادُ

يبدو الحسُّ الرومانسي في هذا النص ظاهرًا، من حيث سيطرة نغمة الحزن والأسى، كذلك نجد اللغة وطريقة التعبير رومانسية صرفة.

ومن الشعراء من يصيبه الألم النفسي المعتدل الذي لا يتجاوز الحدود الطبيعية للضيق النفسي، فيتألم من بعض أنماط فساد السلوك البشري، ومن الناس ونفاقهم، وغياب الصديق الصدوق، وتفشي الأخلاق السيئة، وسط عالم متطاحن، الصدارة فيه للأقوى، فالقوي فيه يأكل الضعيف، والكل يلهث وراء المادة.

---

(٣١) المجموعة الشعرية الكاملة، محمد عبدالقادر فقيه، الطبعة الثالثة، ص٦٦٧.

فالشاعر محمد إبراهيم جدع (١٣٣٠- ١٣٩٥هـ) يشكو إلى الله في "توسلات"(٣٢)، من ظلم خصومه، بادئًا شكواه بالضراعة إلى الله ممزوجة بالبوح عما يؤلمه، قائلاً:

يا رب لا أرجو سواك لحاجتي وشكايتي من فتنةِ الأشرارِ
كلا ولا أرضى بغيرِك مُنقذًا مما يقولُ مُلفقُ الأخبارِ
أنت المبرئ للبريء فنجني يا ربِّ من زور ومنْ أضْرارِ
يا ربّ لا يدري سواك بمسلكي وسمُو نفسي واجتناب العارِ
أنت العليمُ بحالتِي وبمنهجي ونقاوتِي من مسلكِ الفُجَّارِ
لكن ظُلمًا أن نزكي نفسنا وأشد ظُلمًا تُهمة الأشرارِ
وأشد ظلمًا أن يشيعَ سفيهُنا بالقول إفكًا بغية الإضرارِ

ثم يضرع إلى الله أن يبرئ ساحته لدى خصومه، ويدعو عليهم إذا أصروا على معاداته أن ينتقم الله له منهم:

يا رب أنزل في قلوبِ مُخاصِمي عبرا تُبرئ ساحتِي ووقاري
وإذا أصروا للأذى وكراهتي أرسل عليهم نقمة الأشرارِ

والنص كما يظهر ركيك الأسلوب، مثل قوله: "أنت المبرئ للبريء، بغية الإضرارِ، زور ومن أضرارِ..."، مع شحوب العاطفة، وضعف تركيب الجمل.

(٣٢) المجموعة الشعرية الكاملة، ديوان وحي الشاطئ، محمد إبراهيم جدع، النادي الأدبي الثقافي، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م. ص١٠٦.

وحسين عرب (١٣٣٨ - ١٤٢٣هـ) يستغيث بالله ويضرع إليه في "دعاء"[٣٣]، بعد أن يشتكي من الأيام والخطوب والناس، الذين أصابوه بالألم النفسي، قائلاً:

رَبِّ رُحماكَ قد تهدَّم عُمْري   كُلَّما داهمتْهُ شتَّى الشَّدائدْ
ما تعرَّفتُ غيرَ بابكَ بابا   حينما تلْتقي بقلبي المَواجدْ
زهِدتْ نفْسي الأليمةُ بالنا   سِ وإنِّي إليكَ لستُ بزاهِدْ
خالدٌ أنْتَ والحياةُ ستَفْنى   كهشيمٍ وليسَ غيركَ خالِدْ
حَبَسَتْ عَيْنَيَ الدُمُوعَ منَ الحُزْ   نِ وَثَارَتْ بِجانِبَيَّ المواقِدْ
فأغثني يا واهِبَ الفضْلِ بالفَ   ضْلِ توالَى بخيركَ المُتوارِدْ
وأعِنِي على الهدايةِ والرُّشْـ   ـدِ فإنِّي لمهتدٍ بك راشِدْ
وادْرأِ الكَيْدَ عَنْ حَيَاتِي يَا خَيْـ   ـرَ مُعِيْنٍ عَلَى ظَلُومٍ وَحَاقِدْ

ويشتكي حسن عبدالله القرشي (١٣٤٤ - ١٤٢٥هـ) في "صلاة شاعر"[٣٤] من غربته في الحياة الخانقة، وضيقه بالبشر المتربصين، الذين يشهرون حرابهم في وجهه، قائلاً:

إليك شروديَ يا خالقي   فقد ضِقتُ بالعالمِ الخانقِ
غزاني بآلامِهِ مُرغما   فحارَ بتيارِهِ خافقِي

---

(٣٣) المجموعة الكاملة، حسين عرب، شركة مكة للطباعة والنشر، مكة المكرمة، ص٦٠.

(٣٤) ديوان حسن عبدالله القرشي، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م، ٢٨٤/١.

وضِـقتُ بأبناءِ هذا الزمــان   كـواسـرَ كـالذئب والـغـاسق(٣٥)
أروم انطلاقـي نِضـــوًا إليك   إلـى نورك الـغـــامــرِ الدافق
إلـهي إنـي فــقـــيـــرٌ إليك   فــخـذ بيـدي أنت ياخــالقي

وفي "هتفة مجروح"(٣٦) يتضرع ويشتكي إلى الله الرحمن الرحيم من السأم والضيق والحيرة، ومن نفسه الظالمة، قائلاً:

ربّاه مـــــالـي أمَلٌ يُرتجى   غَـيْـرُ لِيــاذي بك يا مــوئلي
أصبح صدّري ضيّقًا مُحرجَا   واسـتـشـرفَتْ روحي إلى مَنْهلِ
جِئـتُك ربِّي حـائرًا مُـسلِمًـا   روحي إلى بارئـهــا الأكـبــر
مُـسـتغـفـرًا جـئـتك لاأحـمل   إلا إلـى ذاتـك روحي الأشِـــرْ
ومــأملي الرّحـمــة من سُـدةٍ   مـا أخـفق القـاصِدُ مـحـرابَهـا

والشاعر عبدالله بن إدريس (١٣٤٩هـ) في قصيدته "في زورقي" يشكو إلى الله من الحياة والناس، وضياع القيم، وسيادة التملق والخداع، ضارعًا إلى الله أن يتجاوز بزورقه الجميل كل هذه الصعاب، وأن يبقى صامدًا أمام كل مغريات الحياة ومفاسدها. والنص في سبعة مقاطع يحكي فيها الشاعر فورة من فورات الشباب في ذلك الوقت، وتجربة شعورية ذاتية(٣٧)، في مرحلة زمنية مر بها، ويبدو أنها مرحلة

(٣٥) الغاسِقُ: الليل؛ إذا غاب الشفق أَقبل الغَسَقُ..." لسان العرب، مادة: غ س ق.

(٣٦) ديوان حسن عبدالله القرشي، ٢/٢٤١.

(٣٧) انظر: في زورقي، عبدالله بن إدريس. عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، المقدمة.

مبكرة - كما يظهر من رومانسية النص - إبان دراسته الجامعية وكانت مليئة بالعقبات. وقد صورها بصورة زورق يشق عباب البحر ويتعرض إلى الأعاصير والرياح وإلى الظلام الحالك وسط بحر متلاطم الأمواج، ولكن في النهاية ينتهي الليل وينبلج الصبح عن نور أضاء طريق ظلمته، وهذه القصيدة يرمز بها الشاعر إلى حياته وما أحاط بها من أفكار وعثرات وتجاوزات، داعيًا الله أن يسلمه. والشكوى في هذا النص مضمَّنة يمكن استشفافها من ثنايا الضراعة، يبدأ النص بشكوى الشاعر من الحياة(٣٨):

رَبَّاه بلّغ بالسلامةِ زورقَ الحلم الجميلْ
فهنا أعاصير الشقاء تفح من خلفِ الأصيلْ
وهنا شراعي لامسَ الموجَ المجنح في ذهولْ
وتلفت القلبُ الشجي فهاله الأمس الثقيل
فإلى الأمان لشاطئ نتنسمُ الريحَ العليلْ

ويكمل الشاعر سرد معاناته، ضارعًا إلى الله في ختام كل مقطع أن يبلغه السلامة، شاكيًا من الحياة والناس، ومتوجهًا إلى الله ملك السماء والأرض أن يدفع عنه كل شر ومكروه، وأن ينير دربه:

ملك السما والأرض هل من قادر يرجو العبادْ
إلاك في دفع المكاره والظلامات الشداد
(إن البغاثَ استنسرت) بل جانبت سبلَ الرشاد

(٣٨) المرجع نفسه، ص٢٢٩.

ونعيمك المدرار (...) يعلي الحقير على الجليل
رباه بلّغ بالسـلامـةِ زورق الحلم الجـمـيل

ويستمر في البوح بمعاناته، رامزًا لحياته بالزورق الجميل البريء، وسط أمواج عاتية من العثرات، ووسط عالم بشري يكتنفه الخداع والتزوير:

أبدًا أصونُ كرامتي رغم الصعاب العاتيات
لن أنثني عن مبدئي فالحق أجدر بالثبات
ومكاره الأيام تصنعُ في الرجال.. المكرمات
فلْتجْرِ بي يا زورقي كي نعبرَ البحرَ المهيلْ
رباه بلّغ بالسَّلامةِ زورقَ الحلمِ الجميلْ

وتنتهي رحلة الشاعر في هذا الزورق بوصوله إلى بر الأمان، بعد أن بزغ النور وأضاء له الطريق، وتمكن من الوصول إلى شاطئ الأمان:

فتنفس الإصباحُ عن نورٍ أضاءَ لي السبيل
ولقَدْ سئِمْتُ وعاقني عن مطمحي اللَّيلُ الطَّويل

من الواضح أن الشاعر قد عاش أزمة عاصفة فهو يضرع إلى الله أن يسلمه منها، وهذا سر تكرار اللازمة "رباه بلغ بالسلامة زورق الحلم الجميل"(٣٩) في آخر كل مقطع، والشاعر لم يصرح مباشرة بمعاناته النفسية، ولم يكشف عنها بجلاء، بل لمح إليها تلميحًا، ويبدو أنه عاش تجربته

(٣٩) المرجع نفسه، ص٢٢٩.

بعنف، والدليل على ذلك أنه بعد كل مقطع يضرع إلى الله أن يبلغه السلامة وسط الأمواج، وأن يدله إلى الطريق المنير الصحيح. يقول الشاعر عن قصيدته: "والبيت الأخير في القصيدة ينبئ إنباءً جليًا بأن المعاناة وصلت إلى نهايتها ولو "بالتمني" والافتراض والتفاؤل، وهذا هو ما حصل - بحمد الله - في واقع الحال بعد تلك المعاناة بوقت قصير"(٤٠).

وفي مقطوعة صغيرة، لعبدالعزيز خوجة (١٣٦١هـ) بعنوان: "أتيتك يا رب"(٤١) يشكو إلى الله سبحانه وتعالى ظمأه الروحي للحب المفقود بين الناس، كما يشكو من الفؤاد التائه، سائلاً الله أن يسدد خطاه للطريق المنير:

أَتَيتُكَ يا ربِّ عطْشانَ حبًا لِتَشْفي غليلي وتُطفي حريقي

ومَنْ لي سِواكَ يدلُّ الفؤادَ ويَهْدي الشّريدَ لنورِ الطَّريق؟!

وتتكرر الشكوى إلى الله من الألم النفسي من البشر ومطامعهم، وبطشهم، وصراعهم بعضهم مع بعض، عند الشاعر غازي القصيبي (١٣٥٩هـ)، الذي يشكو إلى الله ضعفه وسط عالم بشري متوحش، وذلك في قصيدة "دعاء"(٤٢):

---

(٤٠) كلام في أحلى الكلام، عبدالله بن إدريس، طبع شركة العبيكان للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص١٤٢.

(٤١) حنانيك، عبدالعزيز محيي الدين خوجة. الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م، مكة المكرمة، ص٧٠.

(٤٢) المجموعة الشعرية الكاملة، ديوان: أنت الرياض، د. غازي القصيبي، مطبوعات تهامة، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص٥٢٩.

ربِّ إني عبدٌ ضعيفٌ ضعيفٌ حشد الناسُ حولَه ما يخيفُ
هو في مجمع الرياح وحيدٌ والعِدا، أينما أطلَّ، ألوفُ
شهروا الألسن الحداد فنالت من حناياه ماتنال السيوفُ
ذنبه أن قلبَه، وقلوب النـ ـاس في حمأة الوحُول، نظيفُ
ذنبه أن قلبَه، وقلوبُ النـ ـاسِ موبوءة الدماءِ، عفيفُ

ثم يضرع إلى الله طالبًا رضاه:

ربِّ! صُني (...) أنْ أطأطئَ رأسي لضلالٍ.. وإن طوتني الحتوفُ[٤٣]
واجعل الحقَّ بغيتي.. لا تكلني لوجودٍ أساسه التزييفُ

اعتمد الشاعر على المقابلة بين ما تضطرب به بعض قلوب البشر من أدران، وبين مثاليته، ونصاعة قلبه ونفسه - كما يقول - سائلاً الله أن يصونه من إهانة ذاته، وبيع مبادئه، من أجل مصالح دنيوية زائلة، وأن يجعل الحق هدفه وبغيته.

وفي قصيدة "خذني إليك"[٤٤] تعصف به رياح الألم، والسأم، والتساؤل، وكراهية الحياة وسوداويتها، ونشدان المثالية المفقودة بين الناس، ويشتكي من رقة شعوره، وتوقد إحساسه، ثم يسترسل في بيان رغبات الناس في هذه الحياة، هذه الرغبات التي لا تخرج عن نطاق المطالب الدنيوية الفانية، التي يسعى أصحابها للحصول عليها حتى بالطرق

(٤٣) كتبت لفظة "أطأطئ" في الديوان هكذا "أطأطأ".
(٤٤) المجموعة الشعرية الكاملة، ديوان قطرات من ظمأ، ص٢٠٦-٢١٠.

غير المشروعة، ثم يتمنى أن يكون مثلهم بلا إحساس أو شعور، فقد أنهكه الجري اللاهث خلف السراب، للبحث عن واحة من خيال:

تعبت من الجري خلف السراب

من البحث عن واحة في الخيال

ويضرع إلى الله، أن يعجل نهايته ليتخلص من هذه الحياة، التي اختلت فيها الموازين، وغابت الراحة:

إلهي.. سألتَك: "خذني إليكْ

فإن حياتيَ ضاقت عليْ

ولو طال فيها بقائي

سأصبح يا رب كالآخرينْ

سأصبح وحشًا يحب الدماءْ

ويغمدُ خنجرَه في الظهورْ

ليحظى بأمنية سافلهْ

إلهي عرفتك فوق الظنونْ

وأعظم مما يخال البشرْ

وأسمى.. وأسمى

عرفتُك ربّ فخذني إليك..."

والشكوى من الحياة والناس، تكررت عند الشاعر محمد فهد العيسى، فهو يتمنى أن يكون شيئًا بعيدًا عن عالم البشر،

ويظهر هذا في قصيدته "مُعاناة"[٤٥] التي يشتكي فيها إلى الله ألمه النفسي من الناس السادرين في الوحول، المحاربين للفضيلة، ثم يناجي الله، ويشكو إليه، ويتمنى لو لم يكن شيئًا، ويعزو ذلك إلى الحياة البشرية وما يموج فيها من آثام، مازجًا بين الشكوى والضراعة:

لَيْتني يا رَبِّ شيئًا لم يكُنْ...
هُلاميًّا.. يعيشُ في غيبِ الغَدِ ابْتداءْ..
وانتهاءْ...
أربعون عامًا يا إلهي قد مَضَتْ...
في نار شِقْوةِ الْعَناء
من أرى..؟؟
الوالِغُون في الأعراضِ.. في الدِّماءْ؟[٤٦]
المُدْلِجُون في دُروبِ الوحْل...
يَرشِقون الخيرَ بالمقُول المَسْخ بالغُثاء؟

وفي قصيدته "الضليل"[٤٧] بعد تساؤلات مرّة تنبيء عن حيرة، وألم، يقول:

(٤٥) دروب الضياع، محمد الفهد العيسى، الكتاب العربي السعودي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص ١٢٤ - ١٢٩.

(٤٦) فلانٌ يلَغُ في دماء الناس فهو والِغٌ: يغتابهم. (عن المعجم الوسيط، مادة: و ل غ) وأصل المعنى من أفعال الكلاب والسباع حين تشرب ما في الإناء بأطراف لسانها. ويقصد الشاعر الخائضين في أعراض الناس، ولشدة كراهة هذا السلوك جُعل كأنّه ولوغ الكلب.

(٤٧) على مشارف الطريق، محمد الفهد العيسى، مطابع دار العلم للملايين، بيروت، ص٦١.

أنا من يا تُرى في هذه الدنيا ؟ وماذا ..؟ أكونْ؟
أنا وهمٌ أحلام وآمالٍ تلاشتْ في سُكون..

وفي غمرة هذه الكآبة، يضرع إلى الله أن يخلصه من هذا الهم، والألم النفسي المبرح، ولا يجد طريقًا إلى الخلاص من الأوجاع، سوى الهرب، وتمني الموت:

لاهُمَّ خذ بيدي إليك فقدْ يئستُ من النجاهْ
خذني إليكَ فقدْ سئمتُ العيشَ في هذي الحياهْ

حتى وهو في شكواه وضراعته وتوجهه إلى الله تنضح حروفه بالألم، والحزن، والضيق، واليأس البغيض. إن العلاج الوحيد عندما يشتد الضيق النفسي، ويثور القلق، هو اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى - وهذا مطلوب دائمًا - لجوءًا حقيقيًا وسؤاله برد الإيمان، واحتساب الأجر، وكسب المصيبة، وليس الدعاء بطلب الموت. عن النضر بن أنَس قَال: قَال أنس رَضِيَ اللهُ عَنهُ لَولا أني سمعت النَبي ﷺ يقولَ: "لا تتمنوا الموت" لتمنيت[٤٨]. وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنيًا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي"[٤٩]، وعن

(٤٨) صحيح البخاري، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (كتاب التمني)، باب مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّمَنّي، حديث رقم: ٧٣١٩، ٩/١٠٤.

(٤٩) صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، نشر وتوزيع إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: كراهة تمني الموت لضر نزل به. حديث رقم: ٢٦٨٠، ٤/ ٢٠٦٤

قيس قال: أتيت خبابًا وقد اكتوى سبعًا في بطنه، فسمعته يقول: "لولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به"(٥٠).

أغلب الشعراء الذين تمّ اختيارهم للدراسة صنفهم النقاد ضمن مسمى الشعراء الرومانسيين(٥١) - الحجي، القصيبي، العيسى، القرشي، الزمخشري - وليس من الصواب أن يصنف الشعراء أولاً ثم تخضع النصوص لتلك التصنيفات، أو المذاهب الأدبية، وإنما النصوص هي الفيصل، وهي الحكم، وهي التي تحدد توجه الأديب ومذهبه. وقبل الحكم على هؤلاء الشعراء بأنهم من الرومانسيين، لا بد من ذكر السمات العامة للمذهب الرومانسي: "الذاتية والفردية والتأملية والروح الغيبي والصوفي وإلى الرضا بالبؤس... وعدم التعقل والكآبة ونداء الموت، بل الفزع إلى الانتحار في بعض الأحايين"(٥٢)، وفي موضع آخر: "الشكوى من الزمان واليأس من الحياة بل مناداة الموت تخلصًا من الحياة، وأكثر ما نجد هذه المظاهر في يفوعة الشعراء"(٥٣). أيضًا توقد العواطف ورقة الأحاسيس، والحزن، والألم، والفرار من الواقع، تلك أبرز ملامح المذهب الرومانسي.

وبناء على هذا فإن سمات بعض النصوص التي تم الاستشهاد بها للشعراء السابقين، والتي تعبر عن الألم الحاد،

(٥٠) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدُّعَاءِ بِالـمَوْتِ وَالْـحَيَاةِ، حديث رقم: ٦٤٢٤، ٨/٩٤.

(٥١) راجع كتاب: اتجاهات الشعر المعاصر في نجد، د. حسن بن فهد الهويمل. ففيه تفصيل لهذه القضية.

(٥٢) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، د. مصطفى السحرتي، ص٢١٤.

(٥٣) المرجع نفسه، ص٢١٧.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ السنة الخامسة والثلاثون الدارة

والشكوى المريرة، قد اصطبغت بالحسّ الرومانسي، واتشحت بردائه، ولكن لا يمكن الجزم بتبنيهم لهذا المذهب الأدبي، وأن يصنف الشاعر بشكل عام بأنه رومانسي مطلقًا، بناء على بعض النصوص التي لا تشكل ظاهرة عامة سار عليها الشاعر. فلو نظرنا إلى تأريخ هذه النصوص نجد أنها كتبت في فترات زمنية مبكرة من عمر هؤلاء الشعراء، تمثل بداية الشباب، لذا فهذه القصائد تكشف عن طبيعة المرحلة العمرية، أو أن بعضهم مرّ بمعاناة خاصة، ولّدت لديه هذا الحزن وتلك الشكوى. وخلاصة القول أن النصوص الواردة في هذه الدراسة التي تجسد الألم، والضيق الخانق، يظهر فيها الاتجاه الرومانسي، سواء قصد الشعراء تقليد الرومانسيين، أو أن طبيعة الموضوع فرضت هذا الأداء.

الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة:

عرَّف القزويني الاقتباس بقوله: "أما الاقتباس فهو أن يضمن الكلام شيئًا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه، كقول الحريري: فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب، حتى أنشد فأغرب. وقوله: أنا أنبئكم بتأويله، وأميز صحيح القول من عليله. وقول ابن نباتة الخطيب: فيا أيها الغفلة المطرقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون؟ وما لكم لا تشفقون؟ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون... وقول الآخر:

لا تعاشر معشرًا ضلوا الهدى   فسواء أقبلوا أو أدبروا
بدتِ البغضاءُ من أفواههِم   والذي يخفون منها أكبرُ

وقوله:

خُلةُ الغانياتِ خلة سوء فاتقوا الله يا أولي الألبابِ
وإذا ما سألتموهن شيئًا فاسألوهن من وراءِ حجابِ

... وكقول الحريري: وكتمان الفقر زهادة، وانتظار الفرج بالصبر عبادة. فإن قوله: "انتظار الفرج بالصبر عبادة" لفظ الحديث. وقوله: قلنا شاهت الوجوه، وقبح اللكع ومن يرجوه. فإن قوله: "شاهت الوجوه" لفظ حديث... وكقول ابن عباد:

قال لي إن رقيبي سيئ الخلق فداره
قُلتُ دعني وجهكَ الجنـ ـة حُفَّت بالمكاره

اقتبس من لفظ الحديث "حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات"..."(٥٤).

ويورد القزويني تعريفًا للتضمين بقوله: "وأما التضمين فهو أن يضمن الشعر شيئًا من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورًا عند البلغاء"(٥٥).

من هنا يتبين أن الاقتباس خاص بالأخذ من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والتضمين خاص بالأخذ من الشعر، أي أن يأخذ الشاعر من شعر غيره.

(٥٤) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني. شرح وتعليق: د. محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، ص١٢٩.

(٥٥) المرجع نفسه، ص١٣٠.

وظهر لي من دراستي لهذا الموضوع أن الاقتباس من القرآن الكريم بنصه في هذا النوع الشعري، لم يوجد في شعر الشعراء، واكتفوا باقتباس معاني الآيات القرآنية ودلالاتها، أما إدخال الآية القرآنية بنصها في النص الشعري فلم أجد ذلك في النصوص التي جمعتها في هذه الدراسة. وما سيتم بيانه سيكون نماذج دالة، قد يغني بعضها عن غيرها.

فمن الاقتباس من القرآن الكريم قول الشاعر أحمد عبدالغفور عطار(٥٦):

وليس غيرك يشفيني ويرأف بي   فعافني من لظى الحمى وخذ بيدي

اقتبس من قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]. وفي "هتفة مجروح"(٥٧) يشتكي القرشي من السأم، والضيق في الصدر، قائلاً:

أصبح صدري ضيّقًا مُحرجًا   واستشرفتْ روحي إلى مَنْهلِ

مقتبسًا من الآية الكريمة ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام: ١٢٥].

والشاعر محمد إبراهيم جدع في "توسلات"(٥٨) يقول:

لكن ظلما أن نُزكي نفسنا   وأشد ظلما تُهمة الأشرارِ

---

(٥٦) الهوى والشباب، ص٥٥.

(٥٧) ديوان حسن عبدالله القرشي، ٢/٢٤١.

(٥٨) المجموعة الشعرية الكاملة، ديوان وحي الشاطئ، ص١٠٦.

الشطر الأول مقتبس من بعض ما جاء في الآية: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[النجم: ٣٢].

وغازي القصيبي في قوله(٥٩):

ربِّ إني عبدٌ ضعيف ضعيـفٌ حشدَ الناسُ حولَه ما يخيـفُ

مقتبس من الآية الكريمة التالية: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٢٨].

والشاعر محمد إبراهيم جدع يشكو إلى الله في "توسلات"(٦٠) ويدعو قائلاً:

يارب أنزل في قلوبِ مُخاصِمي عبرًا تُبرئ ساحتِي ووقاري

وإذا أصروا للأذى وكراهتي أرسل عليهم نقمة الأشرارِ

اقتباس معنوي من الحديث النبوي الشريف. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو فَيَقُولُ: "اللَّهُمَّ مَتِّعْنِي بِسَمْعِي وَبَصَرِي وَاجْعَلْهُمَا الْوَارِثَ مِنِّي وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ يَظْلِمُنِي وَخُذْ مِنْهُ بِثَأْرِي"(٦١).

والشاعر محمد عبدالقادر فقيه، اقتبس دعاءه الآتي(٦٢):

---

(٥٩) المجموعة الشعرية الكاملة، ديوان أنت الرياض، ص٥٢٩.

(٦٠) المجموعة الشعرية الكاملة، ديوان وحي الشاطئ، ص١٠٦.

(٦١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ. حديث رقم: ٣٩٦١. قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٦٢) المجموعة الشعرية الكاملة، ص٦٦٧.

أنا نِضْــوُ أحـــزانٍ ترامــتـ ـنـي الصـــحــــاري والـوهـادُ
فـــاشـــرق على قلبـي بنو رِكَ إنـك البَـــرُّ الجـــوادُ

مقتبس من الحديث الشريف الذي رواه ابْنُ عَبَّاس ـ رضى الله عنهما ـ وقَالَ فيـه إن الرسول ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا"(٦٣).

ما سبق كان أمثلة على الأخذ من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وقد ظهر من النصوص التي تم الاستشهاد بها أن أغلب الاقتباسات تركزت في الاقتباس المعنوي، و أخذ بعضًا من ألفاظ الأدعية، واستلهام الدعاء، مبتعدين عن الاقتباس الكامل لفظًا ومعنى، حرصًا منهم – في رأيي – على عدم تضمين الشعر بنصوص من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة.

وبعد أن أعانني الله سبحانه وتعالى، وأنعم عليّ بإتمام هذه الدراسة، أجمل أهم النتائج التي توصلت إليها:

- كشفت النصوص التي تمّ الاستشهاد بها في هذا البحث بروز وتوقُد الحسّ الديني لدى الشعراء في هذه الدراسة، وصفاء العقيدة، فلا انحراف في الأفكار، ولا تجاوز للحدود العقدية في انتقاء الألفاظ، وفي الشكوى والضراعة إلى العلي القدير، لا وسطاء أو شفعاء في

(٦٣) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، ٨/١٢٧٢.

الإنابة والضراعة إلى الله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم، فقد توسلوا بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى. وهذه سمة بارزة في الشعر السعودي بشكل عام؛ وهذا بفضل الله ثم بفضل الدعوة السلفية التي ارتكزت عليها الدولة السعودية، وكان من أهم مرتكزاتها تصفية العقيدة من البدع والشركيات. إن "الدعاء مخ العبادة(٦٤)، وصرف شيء منه لغير الله قادح في العقيدة، والشاعر السعودي المعاصر بفضل الدعوة الإصلاحية التي اهتمت أول ما اهتمت بتخليص العقيدة من كل الشوائب أبعد الناس عن مثل هذه الموبقات"(٦٥).

- ظهرت الدقة بشكل عام في تصوير الوجع والمعاناة من المرض الجسدي، والألم النفسي، وظهر في قصائد بعضهم الألم الحاد، والشكوى المريرة، وقد سيطرت نغمة الحزن والشجن في ضراعتهم وشكواهم.
- شكا بعض الشعراء من الحياة وغياب الصدق والمثالية بين الناس، وتضرع بعضهم إلى العلي القدير أن يُعجِّل نهايته ليتخلص من الألم والهم وهذه الحياة. وكان نداء الموت تخلصًا من معاناة ضيقة أسيرة للذات، ونظرة سوداوية كالحة للحياة.

---

(٦٤) جاء في الحديث النبوي: عَن النعمان بن بشير، قَال: قال رسول الله ﷺ: "إن الدعاء هو العبادة". ثم قرأ: (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم). سنن ابن ماجه، ٥/٥٥٤، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء.

(٦٥) النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر، د. حسن بن فهد الهويمل، ص١١٣.

- كانت العاطفة الصادقة سمة بارزة لأغلب قصائد الشكوى والضراعة إلى الله، وربما يعود ذلك إلى صدق التجربة الشعورية، وتوجههم إلى الخالق الكريم توجهًا حقيقيًا خاليًا من كل زيف وتصنع.
- تميزت أغلب قصائد هذه الدراسة بالوحدة العضوية والموضوعية، بمعنى أن النص كان مستقلاً، ولم يكن ضمن موضوع آخر، أما الصور الفنية فقد كانت معبرة عن انكسار النفس وتحسرها.
- سيطر الشعر العمودي (شعر الشطرين أو الشطر الواحد) على أغلب نتاج الشعراء في هذه الفترة، كما أن نظام المقطوعات الشعرية واستقلال كل مقطع بقافية مستقلة وحرف روي مختلف مع توحد الوزن في النص، كان سمة لهذا الشعر، وربما يعود هذا إلى اختلاف الناحية النفسية للشاعر، وترددها بين الخوف والرجاء والأمل واليأس، فكان كل مقطع تعبيرًا عن الشعور النفسي. أما شعر التفعيلة فلم يشكل إلا نسبة قليلة من هذا الشعر. وعناوين القصائد في أغلبها كانت تفصح عن مضمونها، مع تشابهها، وأحيانًا تطابقها، مثل: ربَّاه، إلهي، دعاء، ابتهال، نجوى...
- تكرر المد في نهاية الأبيات، وأحيانًا في داخل النص في كثير من القصائد، مما أكسب هذه النصوص موسيقى داخلية، بالإضافة إلى الموسيقى الخارجية، مما جعل الموسيقى في خدمة المعنى والغرض، والمد دائمًا يوحي

بالأنين والتوجع والحسرة، كما أن الكسر في القافية أيضًا كان من سمات هذا الشعر تعبيرًا عن انكسار الذات وحزنها، كذا استخدم النداء بالأداة "يا" أو بدونها جاء في أكثر النصوص.

عشرة آلاف ميل عبر الجزيرة العربية

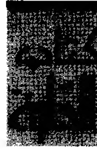
تأليف

آرنست وايز

ترجمة

د. عمر بن عبدالله باقبص

١٢٨ صفحة



عشرة آلاف ميل
عبر الجزيرة العربية



يتحدث هذا الكتاب عن رحلة قام بها الرحالة النمساوي آرنست وايز بسيارته الخاصة بصحبة الأميرة النمساوية أوديسكالشي في زيارة إلى المملكة العربية السعودية، ولقائه جلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله، وما سجله من انطباعات في مجلسه الكريم، وقد سجلت سطور كتابه بعضاً من الخطب الطموحة لجلالته طيب الله ثراه، والتي كانت تستهدف الرقي بالبلاد.

وقد تعرض الكاتب أيضاً في مسيرة رحلته للحديث عن مشاهداته لنهضة المملكة الاقتصادية والثقافية والعمرانية، إلى جانب وصف مراحل الطريق ومشاق السفر أثناء الانتقال بين المنطقة الشرقية والرياض، وبين الرياض وجدة، حيث حطت الرحلة رحالها هناك.





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٤٠١٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

معتمدو الملك عبدالعزيز ووكلاؤه في الخارج(*)

أ. محمد بن عبدالرزاق القشعمي
مكتبة الملك فهد الوطنية

المقدمة

قبل استرداد الملك عبدالعزيز آل سعود الرياض، ثم توحيده للمملكة العربية السعودية؛ كان الأمن مضطربًا وغير مستقر، إذ إن المدن وكبريات القرى يحكمها أمراء أو رؤساء قبائل وعشائر ولهم ولاءات مختلفة. وكثيرًا ما تغير القبائل القوية على مثيلاتها الضعيفة... إلا أن الأحلاف بين القبائل قد تحد أحيانًا من هذه الخلافات والاضطرابات. والحروب فيما بينها كثيرًا ما تستعر، فيبدأ المهزوم بحشد أنصاره وجمع أسلحته للأخذ بالثأر... حتى قيض الله الإمام عبدالعزيز آل سعود لاسترداد الرياض. وهكذا بدأ تجميع شتات الجزيرة العربية التي أصبحت فيما بعد المملكة العربية السعودية.

(*) أزجي جزيل الشكر والثناء إلى صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز على رعايته للتاريخ والباحثين فيه، كما أشكر دارة الملك عبدالعزيز على ترشيحي لجائزة ومنحة الأمير سلمان لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، ممثلة في أمينها العام معالي الدكتور فهد بن عبدالله السماري، والشكر موصول لكل من أسهم في أن يرى هذا البحث النور والضياء.

بدأ الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود منذ دخوله الرياض - في الخامس من شهر شوال ١٣١٩هـ/ الخامس عشر من شهر يناير ١٩٠٢م - في بناء الوطن من خلال توحيده لمدن نجد وقراها وما جاورها، وكان يدعى بسلطان نجد، بعد ضمه عسير وحائل أصبح يسمى سلطان نجد وملحقاتها.

وفي عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م دخل الملك عبدالعزيز مكة المكرمة، وفي العام التالي ضم إليها بقية مناطق الحجاز، وأصبح يلقب بملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها. وفي عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م أصبح اسم الدولة (المملكة العربية السعودية).

وقد بدأ الاهتمام بالتمثيل الدبلوماسي في المملكة العربية السعودية بعد انضمام مدينة جدة إلى سلطة الملك عبدالعزيز في السابع من شهر جمادى الثانية عام ١٣٤٤هـ الموافق ٢٤ ديسمبر ١٩٢٥م، فقد أنشئت مديرية خاصة بالشؤون الخارجية مقرها الرئيسي في مكة المكرمة باسم (مديرية الشؤون الخارجية) ولها فرع بجدة.

وبعد خمس سنوات - في السادس والعشرين من شهر رجب عام ١٣٤٩هـ - حولت المديرية إلى وزارة هي (وزارة الخارجية) وهي ثاني وزارة أنشئت - بعد وزارة المالية - في عهد الملك عبدالعزيز بصفة رسمية. وعين الأمير فيصل وزيرًا لها - إضافة إلى عمله في النيابة العامة - كما عين فؤاد حمزة وكيلاً للخارجية(١). وقد حرص جلالة الملك عبدالعزيز على اعتراف

---

(١) انظر: التمثيل الدبلوماسي القنصلي بين المملكة والعالم الخارجي، طلال محمد نور عطار، ١٤٠٩هـ، ص٢٨-٣٠.

الدول الأوربية ببلاده على أنها كيان مستقل، وكان يتّبع سياسة ترمي إلى إيجاد توازن بين تلك الدول الأوربية، وحماية مصالحه(٢).

وكان أن اعترفت به الحكومة السوفيتية ملكًا على الحجاز في شعبان ١٣٤٤هـ/ فبراير ١٩٢٦م، تبعها اعتراف بريطانيا. وهكذا توالت الاعترافات، وبدأ التمثيل الدبلوماسي بمفهومه الصحيح بافتتاح أول سفارة للمملكة في لندن في ٢٠ صفر ١٣٤٩هـ/ ٢١ يونيو ١٩٣٠م. وعين حافظ وهبة وزيرًا مفوضًا ثم رفع فيما بعد إلى درجة سفير.

كان الملك عبدالعزيز هو الذي يتولى بنفسه الاتصالات والمفاوضات مع كثير من البلدان التي لها علاقة بالبلاد التي يضمها إلى حكمه، وبعد ضم الحجاز أصبح هناك جهة مسؤولة عن الشؤون الخارجية.

كان الملك عبدالعزيز يعتمد على بعض أقاربه ومستشاريه للقيام بالاتصال بالدول ومفاوضتهم لحل المشكلات التي قد تعترض العلاقة بينهما؛ لانشغال جلالته في الأعمال الإدارية والعمليات الحربية، ومن بين هؤلاء نذكر: الأمير أحمد بن ثنيان آل سعود أول مساعد لجلالته في إدارة الشؤون الخارجية، وقد حضر التوقيع على معاهدة القطيف في ١٩ صفر ١٣٣٤هـ/ ٢٦ ديسمبر عام ١٩١٥م ورحل بمعية الأمير فيصل عام ١٣٣٨هـ/١٩١٩م إلى أوروبا والكويت والعراق في مهام سياسية. وكان يعاونه الدكتور عبدالله الدملوجي الذي

(٢) انظر: موسوعة تاريخ الملك عبدالعزيز الدبلوماسي، فهد بن عبدالله السماري وآخرون، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص٣٨.

شارك أيضًا في مفاوضات العقير عام ١٣٤١هـ/١٩٢٢م الخاصة بتحديد الحدود بين نجد والكويت. إضافة إلى السيد حمزة غوث، والشيخ حافظ وهبة، والشيخ يوسف ياسين الذي تولى مديرية الشؤون الخارجية من المحرم ١٣٤٥هـ بعد الدكتور عبدالله الدملوجي. وكان الشيخ عبدالعزيز العتيق يتولى المديرية في غياب الدملوجي ويوسف ياسين.

تولى المديرية بعدهم الشيخ فؤاد حمزة من شهر المحرم عام ١٣٤٧هـ، واستمر يديرها حتى تحولت المديرية إلى وزارة في ٢٦ رجب ١٣٤٩هـ فأصبح وكيلاً للخارجية[٣].

ويذكر محمد المانع أن قصة الوكلاء أو المعتمدين بدأت في بداية تأسيس المملكة وتوحيدها، إذ لم تكن المؤسسات السياسية قد تشكلت، واتخذت سفارات للمملكة في الخارج: إذ إنه قبل ضم الملك عبدالعزيز للحجاز "لم يكن له قناصل رسميون أو ممثلون دبلوماسيون في الدول الأجنبية، وكان التجار النجديون المستقرون في تلك الدول يعملون بصفتهم وكلاء له، وكان جلالته يختار من هؤلاء من أمضوا فترة طويلة في مكان معين واشتهروا بالأمانة والصدق والنزاهة الأخلاقية. وكان من يختاره منهم لا يستلمون أجورًا على ما يقومون به من خدمات، لكنهم كانوا يكسبون بكونهم وكلاء للملك زيادة في مكانتهم الاجتماعية ومزايا في تعاملهم التجاري. وكان من النجديين المشهورين الذين كانوا وكلاء للملك خارج بلادهم الشيخ فوزان السابق في القاهرة،

(٣) انظر: التمثيل الدبلوماسي والقنصلي، مرجع سابق، ص٣٩.

وعبداللطيف باشا المنديل في بغداد والبصرة، والشيخ عبدالله النفيسي في الكويت، والشيخ عبدالله الفوزان في بومبي، والشيخ رشيد بن ليلى في دمشق، والشيخ عبدالرحمن القصيبي في البحرين. وقد بذل هؤلاء الرجال جهدًا عظيمًا لصالح بلادهم في الخارج..."[٤].

وقد أنشئت في عهد الملك عبدالعزيز تسع سفارات وثماني مفوضيات، وخمس قنصليات وهي:

١- سفارة المملكة في لندن، وترأسها الشيخ حافظ وهبة وزيرًا مفوضًا في ٢٠ صفر ١٣٤٩هـ/٢١ يونيو ١٩٣٠م.

٢ - سفارة المملكة في واشنطن، وترأسها الشيخ عبدالله الخيال، وقد حل محل الشيخ أسعد الفقيه الذي كان وزيرًا مفوضًا في واشنطن عام ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

٣ - سفارة المملكة في القاهرة، وترأسها الشيخ عبدالله بن إبراهيم الفضل الذي عين وزيرًا مفوضًا في القاهرة عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، ثم رفع إلى درجة سفير فيما بعد، وكان يرأس هذه السفارة قبله الشيخ فوزان السابق قائمًا بالأعمال في شهر صفر ١٣٥٥هـ/ يونيو ١٩٣٦م، [وكان مقره يسمى الوكالة العربية] .

٤ - سفارة المملكة في دمشق، وترأسها الشيخ عبدالعزيز بن زيد، وكان قد عين وزيرًا مفوضًا في دمشق سنة ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م)، ورفع إلى مرتبة سفير في ذي القعدة سنة ١٣٧١هـ،

(٤) توحيد المملكة العربية السعودية، محمد المانع، ترجمة عبدالله العثيمين، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٢٤٦-٢٤٧.

وكانت هناك قنصلية قبل ذلك إذ عين آنذاك رشيد باشا الناصر - ابن ليلى - قنصلاً للمملكة العربية السعودية في دمشق في ١٦ المحرم ١٣٥٢هـ الموافق ١١ مايو ١٩٣٣م.

٥ - سفارة المملكة في باريس، ترأسها صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبدالعزيز خلفًا للدكتور رشاد فرعون الذي تولى أعمال السفارة في ١٩ المحرم ١٣٧٢هـ/١٩ أكتوبر ١٩٥٢م.

٦ - سفارة المملكة في بيروت، وترأسها الشيخ عبدالعزيز الكحيمي الذي عين وزيرًا مفوضًا في بيروت في سنة ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م ورفع إلى رتبة سفير في سنة ١٣٧٦هـ.

٧ - سفارة المملكة في مدريد، وترأسها الدكتور مدحت شيخ الأرض.

٨ - سفارة المملكة في كراتشي، وترأسها الشيخ عبدالرحمن البسام.

٩ - سفارة المملكة في طهران، وترأسها السيد حمزة غوث.

أما المفوضيات التي أنشئت في عهده فهي كما يلي:

- مفوضية في جاكرتا، وترأسها الشيخ عبدالرؤوف الصبان.
- مفوضية في عمَّان، وقام بالأعمال فيها الشيخ أحمد الكحيمي.
- مفوضية في أنقرة، وترأسها الشيخ توفيق حمزة.
- مفوضية في روما، وترأسها الشيخ موفق الألوسي.
- مفوضية في مكسيكو، وترأسها الشيخ أسعد الفقيه السفير في واشنطن.

- مفوضية في دلهي، وترأسها الشيخ يوسف الفوزان (ابن عبدالله الفوزان، معتمد الملك عبدالعزيز في بومبي، وقد سبقت الإشارة إليه).
- مفوضية في كابول، وترأسها الشيخ فؤاد الخطيب.
- مفوضية في بغداد، وترأسها الشيخ عبدالله الخيال قبل أن ينقل سفيرًا في واشنطن.

وترأس المفوضية السعودية آنذاك قائم بالأعمال هو الشيخ محمد المطلق، وقبله الشيخ إبراهيم بن معمر الذي عين في ٣٠ المحرم ١٣٥٢هـ/ ٢٥ مايو ١٩٣٣م.

أما القنصليات التي أنشئت للمملكة العربية السعودية في الخارج في عهده فهي:

- قنصلية في الإسكندرية، وترأسها الشيخ طلعت ناظر.
- قنصلية في السويس، وترأسها الشيخ عبدالفتاح العسكري.
- قنصلية في البصرة، وترأسها الشيخ محمد الحمد الشبيلي.
- قنصلية في نيويورك، وترأسها الشيخ إبراهيم بكر.
- قنصلية في القدس، وترأسها الشيخ محمد المنصوري(٥).

"وقد كان إشراف الملك عبدالعزيز شخصيًا ومباشرًا على كل مجريات السياسة الخارجية، وعلى نشاط وزارة الخارجية، ولم تكن الوزارة لتبرم أمرًا دون الرجوع إليه في كل صغيرة وكبيرة، تستهدي برأيه، ولا تنحرف عن أوامره وتوجيهاته، فالملك هو

(٥) التمثيل الدبلوماسي والقنصلي، مرجع سابق، ص٥١- ٥٥.

الرئيس المباشر والمرجع النهائي في الشؤون الخارجية، الأمر الذي أدى إلى اكتساب الدبلوماسية السعودية درجة عالية من الخبرة والحكمة والمران، إلى جانب عنصر الاستمرارية والانسجام وعدم التضارب والتناقض في إدارة العمل الدبلوماسي"(٦).

لعل ما سبق يعتبر مدخلاً للحديث عن شخصيات مهمة أدت دورًا مساندًا لما كان يقوم به الملك المؤسس، وهم وكلاؤه ومعتمدوه في الخارج، قبل أن يعرف ما يسمى بالسفارات أو القنصليات حديثًا. وهم:

١ - رُشَيّد بن ليلى، معتمد الملك عبدالعزيز في سورية.

٢ - عبدالله بن حمد النفيسي، معتمد الملك عبدالعزيز في الكويت.

٣ - عبدالله بن محمد الفوزان، معتمد الملك عبدالعزيز في الهند.

٤ - عبدالرحمن بن حسن القصيبي، معتمد الملك عبدالعزيز في البحرين.

٥ - عبداللطيف المنديل، معتمد الملك عبدالعزيز في العراق والبصرة.

٦ - فوزان السابق، معتمد الملك عبدالعزيز في مصر.

حيث تناولت كل واحد منهم بالحديث عن نسبه، ونشأته، وأعماله، ودوره وكيلاً عن الملك عبدالعزيز، وأخلاقه وصفاته، واستعرضت ما أنجب من أبناء.

ولعل أصعب ما واجهني في الكتابة عن هؤلاء الأعلام شح المعلومات عنهم، وتكرارها في أغلب المصادر، فحاولت جهدي

---

(٦) موسوعة تاريخ الملك عبدالعزيز الدبلوماسي، مرجع سابق، ص١٠٢-١٠٣.

أن أفحصها جميعًا وأمايز بينها، وأقدم السابق على اللاحق، والمنقول عنه على الناقل، وحاولت أيضًا الاستعانة بالمصادر الشفهية، فاتصلت بأبناء المترجم لهم، أو أحفادهم، أو من يمت لهم بصلة قربى، أو كان من معارفهم، فاستكتبتهم عنهم، أو أخذت منهم معلومات شفهية، استفدت منها كثيرًا .

١ - رُشَيْد بن ليلى معتمد الملك عبدالعزيز في سورية

(١٢٩٤ - ١٣٦٢هـ/ ١٨٧٧ - ١٩٤٣م)

نسبه ومولده:

هو رُشَيِّد بن ناصر بن رشيد[٧] بن ليلى، ويقال: الليلا[٨]، وأمه: شقراء بنت الشيخ عبدالله الخزام. ولد بمدينة حائل (جبل شمر) عام ١٢٩٤هـ[٩].

(٧) خطاب من حفيده - سبطه - أحمد بن فهد العلي العريفي بتاريخ ١٤٢٨/٤/١٥هـ. وورد عند عبدالرحمن بن علي الزهراني أنه: محمد. انظر المرجع التالي.

(٨) الرشيد الليلا في لبدة فرع من أسرة الليلا التي كانت قديمًا تسكن مغيضة في حائل. وهم أبناء محمد بن ليلا الذي كان من وزراء الأمير محمد بن عبدالمحسن بن علي أمير جبل شمر قديمًا، وممن قُتل معه سنة ١٢٣٤هـ. (متعب بن حمود السبهان). وانظر عنهم: كتاب "الشيخ صالح السالم"، ص١٨. وكان ناصر الرشيد - والد المترجم - ذا احتفاء بالعلم والعلماء، زاهدًا ورعًا، وتولى الأذان في أحد مساجد لبدة مدة تزيد على أربعين سنة، وتوفي - رحمه الله - بحائل سنة ١٣٣٥هـ. انظر: "نساء شهيرات من نجد"، ص ٨٩.

(٩) عبدالرحمن بن علي الزهراني، من رجال الشورى في المملكة العربية السعودية (منذ عام ١٣٤٦-١٤٠١هـ)، ص٥٣.

(١٠) محمد بن عبدالرزاق القشعمي، رشيد بن ليلى: ممثل الملك عبدالعزيز في دمشق، المجلة العربية، ع٣٠٤، (جمادى الأولى ١٤٢٣هـ)، ص٤٧.

أصله من الأفلاج، وتحديداً من بلدة (ليلى) مركز الأفلاج، جنوب نجد، وسط الجزيرة العربية[١٠].

أما كتاب "موسوعة تاريخ الملك عبدالعزيز الدبلوماسي" فسماه (رشيد الناصر)[١١]، وورد في مصدر آخر: (ارشيد الناصر)[١٢].

وقال الشيخ علي الهندي: "رُشَيد (بضم أوله وفتح ثانيه) بن ناصر بن ليلا، لا أدري متى ولد"[١٣].

وذكره شكيب أرسلان باسم رشيد باشا النجدي الذي كان معتمداً لابن رشيد في الآستانة العلية أيام السلطنة العثمانية، وقد ذكر أنه حدثه عن جبلي طيِّئ: أجأ وسلمى[١٤].

تعليمه:

تلقى تعليمه في الكتاتيب بحائل، وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة في شهر واحد[١٥]، كما كان يحفظ ثلاثمئة حديث من صحيح البخاري، وقرأ على عدد من علماء حائل، منهم أخوه لأمه الشيخ صالح السالم[١٦].

---

(١١) موسوعة تاريخ الملك عبدالعزيز الدبلوماسي، مرجع سابق، ص٥٣٥.

(١٢) نجدة فتحي صفوة، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، ١٧٢/٦.

(١٣) علي بن محمد الهندي، زهر الخمائل في تراجم علماء حائل، ص٢٠، الترجمة رقم (٥٥).

(١٤) شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، ١٣٩٧هـ، ص٣٢٢.

(١٥) زهر الخمائل، مرجع سابق، ص٢٠.

(١٦) من رجال الشورى، مرجع سابق، ص٥٣.

صفاته:

عرف ابن ليلى منذ طفولته بالفطنة والذكاء الحاد، ولما كبر جُلَّ واحْتُرِمَ، ثم اعتُمِد عليه في المهمات وحل الإشكالات، حتى طار صيته وملأ الآفاق(١٧).

ومن صفاته الغضب في الحق، وصلابة الإيمان، ولنستمع إلى قصة غضبه حين نيل من الشيخ المصلح محمد بن عبدالوهاب، كما ينقلها فهد المارك: "قل أن نجد مواطنًا من رجال عبدالعزيز حاربه مع خصومه: لم يكن العداء الذي بين آل السعود وآل رشيد عداءً ناشئًا عن خلاف في العقيدة والمذهب، فالجميع سنيون، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وهم متحدون بإيمانهم بالعقيدة السلفية التي نشرها الشيخ محمد بن عبدالوهاب القائمة على كتاب الله وسنة نبيه. بل أعتقد أن اتحادهم في العقيدة من أهم العوامل التي أعانت عبدالعزيز على قوة الصلة بهم - فيما بعد -. واتفاق الطرفين في كل ذلك أمر لا خلاف فيه. وأوضح دليل على هذا هو أننا نجد رشيد بن ليلى، وكيل ابن رشيد عند السلطان عبدالحميد التركي، نجده حينما نال شخص من علماء الأتراك من الشيخ محمد بن عبدالوهاب ثار عليه ابن ليلى وغضب غضبًا شديدًا، وأكد له أن الخلاف بين ابن سعود وبين ابن رشيد خلاف سياسي. وأما العقيدة والمذهب فلا يوجد بين الجانبين أي خلاف فيهما. وما دام العداء بين الرياض وحائل، لم يكن من نوع العداء الذي قال عنه الشاعر:

كل العداوات قد ترجى مودتها   إلا عداوة من عاداك في الدين

(١٧) عبدالله زايد الطويان، رجال في الذاكرة، ١٤١٩هـ، ١١٢/٢.

أجل ما دام الأمر كذلك، فإن من المسَلّم به أنه حال ما يزول ذلك الخلاف ويتم الوئام، فإن العداء بطبيعته سيزول، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكن ثمة عيب على المواطن الذي يحارب بالأمس بجانب أحد هذين الحاكمين أن يعود فيحارب الحاكم الثاني الذي كان قد حاربه من قبل. فالوطن واحد، والعقيدة واحدة، والمذهب واحد، واللغة واحدة، والجنس واحد، والعادات والتقاليد واحدة، وحتى اللباس موحد بينهما"(١٨).

ومن صفاته الوفاء والإخلاص؛ ففي إحدى المناسبات التي أقام فيها الشيخ عبدالله الفضل حفل عشاء للملك عبدالعزيز، وحضر الحفل وجهاء البلاد، وكان بينهم ابن ليلى بدأ عبدالعزيز يتحدث كعادته التي يحاول أن يجعل مجلسه مجلسًا شعبيًا بعيدًا عن البروتوكولات.... وفي حديثه هذا قال مشيرًا إلى إصابة بيده: "هذه الإصابة بيدي هي من قنبلة المدفع الذي بعثه هذا الرجل"، مشيرًا إلى ابن ليلى؛ فرد ابن ليلى ظانًا أن عبدالعزيز يلومه أو يؤنبه، وقال: ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ** ﴾(١٩)، فرد عليه الملك عبدالعزيز وقال: "على قود وجهك مع ربعك"!! أي إن عملك هذا من أعمال الأوفياء مع بني قومهم...(٢٠).

(١٨) من شيم الملك عبدالعزيز، مرجع سابق، ١٣٩٨هـ، ج١.

(١٩) سورة البقرة، الآية ١٣٤.

(٢٠) من شيم الملك عبدالعزيز، مرجع سابق، ١/ ١٦٤-١٦٥.

أعماله ووظائفه:

تنقسم حياة رشيد بن ليلى العملية إلى فترتين ظاهرتين:

أ - الفترة الأولى: عمله مع عبدالعزيز بن رشيد، أمير حائل.

ب - الفترة الثانية: عمله مع الملك عبدالعزيز آل سعود.

أ - عمله مع ابن رشيد:

١- تمثيله لابن رشيد في إستانبول:

حين اشتد عوده، وصار يعتمد عليه في المهمات وحل الإشكالات، وطار صيته وملأ الآفاق، سمع عنه الأمير عبدالعزيز بن متعب الرشيد، أمير حائل فطلبه وقربه إليه، ثم بعثه إلى مجلس المبعوثان[٢١]، في إستانبول ليكون ممثله لدى السلطان العثماني، فمكث هناك ما يقارب عشر سنوات[٢٢]. وقد منح خلال إقامته في إستانبول لقب باشا[٢٣].

٢ - توريد السلاح إلى ابن رشيد:

كان من أعماله في أثناء تمثيله لابن رشيد هناك توريده للسلاح الجديد من نوعه آنذاك، وهو البندقية الألمانية الشهيرة، التي عرفت بـ "وارد ابن ليلى" أو كما يسميها

(٢١) مجلس المبعوثان: مجلس البرلمان العثماني. سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٩٩.

(٢٢) رجال في الذاكرة، مرجع سابق، ٢/ ١١٢.

(٢٣) المرجع السابق، ص١١٣.

البعض "سلاح ابن ليلى"، وهو أول سلاح حديث جاء إلى جزيرة العرب، وكان مكتوبًا على كل بندقية منها "سعود بن رشيد"، ويقصد به سعود بن عبدالعزيز الرشيد، وكان هذا السلاح يرد من ألمانيا عن طريق تركيا، التي كانت حليفة لها في الحرب العالمية الأولى، وكان عددها (١٠,٠٠٠) بندقية طويلة وقصيرة[٢٤].

لقد كان ابن ليلى وكيلاً لابن رشيد اسمًا وعملاً، أما من حيث الفعل فهو يقوم مقام النائب لعبدالعزيز بن رشيد، الذي منحه ثقة مطلقة لا حدود لها. وهل ثمة ثقة أكبر من أن يوقع عبدالعزيز بن رشيد ختمه على بياض في عدّة دفاتر، ويسلمها لرشيد بن ليلى ليفاوض السلطان التركي نيابة عنه؟

ولم يكن من الصواب عند ابن ليلى أن يأتي عبدالعزيز بن رشيد بالعسكر الأتراك ليحاربوا ابن سعود، بل كان رأيه أن يطلب من السلطان عبدالحميد سلاحًا ومالاً يضاهي تكاليف الدولة، وأكد ابن ليلى لابن رشيد أنه إذا طلب جنودًا من السلطان فإنه أثبت ضعفه أمام الدولة التي لا تحترم الضعيف من ناحية، ومن ناحية ثانية سوف يسخط عليه أهل نجد بجلبه لبلادهم جنودًا من الأتراك، هذا رأي ابن ليلى الذي أصر على تطبيقه. ورفض تنفيذ أمر أميره ابن رشيد، وهذا من شواهد صلابته فيما يؤمن به، ولكن ابن رشيد نفذ أمره عن طريق شخص ببغداد ختم له على بياض، أي سلمه دفترًا فيه أختام الأمير، يقال له الزيبق. وقد ندم ابن رشيد على

---

(٢٤) خطاب من ابن حفيده - سبطه - أحمد بن فهد العلي العريفي بتاريخ ١٥/٤/١٤٢٨هـ.

عدم أخذه برأي ابن ليلى، فختم له بعد ذلك على بياض[٢٥].

وتذكر الوثائق البريطانية أن الأسلحة التي جلبها ابن ليلى إلى ابن الرشيد هي مدافع ومعدات، يرافقها (٢٥) ضابطاً ألمانيًا وتركيًا، و (٣٠٠) جندي[٢٦].

٣ - تركه حائل وقت حصارها:

وعندما حاصر الملك عبدالعزيز إمارة حائل، اضطر أميرها ابن رشيد إلى مغادرتها والالتحاق بالحامية التركية في الحجر قرب مدائن صالح على سكة حديد الحجاز، أما ابن ليلى فقد ذهب إلى دمشق لمشاورة القيادة التركية العليا حول شؤون ابن رشيد[٢٧].

لقد كانت هذه هي رحلته الأخيرة - ممثلاً لابن رشيد - فقد ضم الملك عبدالعزيز حائل، وانتهت بذلك وكالة ابن ليلى لابن رشيد. لتبدأ معها المرحلة التالية من حياته، التي تأخرت سبع سنين، قضاها غريبًا في تركيا.

ب - مع الملك عبدالعزيز:

١- لقاؤه مع الملك عبدالعزيز:

بعد سقوط إمارة حائل بقي رشيد بن ليلى في تركيا - في إستانبول - سبع سنوات، ثم أراد أن يعود إلى بلاده، ولكن كيف يعود وبلاده قد أصبحت تحت حكم الملك عبدالعزيز؟

---

(٢٥) من شيم الملك عبدالعزيز، مرجع سابق، ١/ ١٦٢.

(٢٦) الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز)، مرجع سابق، ٧٧٨/٢.

(٢٧) المرجع السابق، ١/ ٧٤٢.

وهو لا يعرف عن نفسه إلا أنه لم يدخر وسعًا من جهده في سبيل نصرة أميره ابن رشيد ضد الملك عبدالعزيز.

وأخيرًا هداه رأيه بأن يكتب رسالة إلى الملك عبدالعزيز يطلب أن يسمح له بزيارة أهله في حائل التي غاب عنها أكثر من سبع سنوات، وكان الرد من الملك عبدالعزيز بالسماح له سريعًا، فجاء عن طريق البحر، وما أن وضع قدمه في أرض الحجاز، حتى ذهب ليسلم على ملك البلاد الذي وجد منه استقبالاً واحترامًا فوق ما كان يحلم به. ليس ذلك فحسب، بل لقد عينه عضوًا في مجلس الشورى؛ فذهب رشيد ونقل عائلته من تركيا إلى السعودية[٢٨].

٢ - **في مجلس الشورى:**

كانت الإرادة الملكية قد صدرت بحل مجلس الشورى في دورته الثانية اعتبارًا من ١٣٤٩/٢/٢٨هـ، على أن يستمر الأعضاء حتى يتم تشكيل مجلس جديد. وفي يوم ١٣٤٩/٣/٢هـ، صدرت تعيينات أعضاء المجلس الجديد، وتعد السنة الأولى للدورة الثالثة.

وقد تشكل المجلس من (١٤) عضوًا، وفق ما يأتي: الأمير فيصل بن عبدالعزيز، رئيسًا للمجلس. وعضوية كل من: عبدالله الفضل النائب الأول، وصالح شطا، النائب الثاني، وإبراهيم الفضل، وحمزة غوث، ورشيد الناصر بن ليلى، وهو المترجم له هنا: رشيد بن ليلى، وسعود دشيشة، وعبدالله الجفالي، وعبدالله الشيبي، وعبدالوهاب عطار، وعبدالوهاب،

---

(٢٨) من شيم الملك عبدالعزيز، مرجع سابق، ١/ ١٦٤.

نائب الحرم، وقاسم إسماعيل، ومحمد علي قابل، ومحمد المغيربي، ومصطفى الخطيب.

وكان رشيد بن ليلى أحد ستة أعضاء جدد دخلوا في عضوية المجلس الجديد، واستمر كذلك في عضوية مجلس الشورى لعام ١٣٥٠هـ لسنته الثانية، ولدورته الثالثة، بعدد أعضائه أنفسهم، ونظامه السابق نفسه[٢٩].

٣- قنصل للمملكة في العراق:

بعد عضويته في مجلس الشورى، عين رشيد بن ليلى قائمًا بالأعمال، وقنصلاً عامًا للمملكة لدى العراق في عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، ولكنه لم يباشر عمله هناك[٣٠].

٤ - قنصل للمملكة في دمشق:

عين رشيد بن ليلى قنصلاً للمملكة في دمشق في ١٦ المحرم ١٣٥٢هـ/ ١١ مايو ١٩٣٣م، وبقي في منصبه ذلك إلى أن توفي - رحمه الله - بدمشق عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م[٣١].

كان رشيد بن ليلى خلال السنوات العشر التي قضاها معتمدًا للملك في دمشق مضرب المثل في بلاده، واستطاع تقوية أواصر الصداقة والعلاقات القوية بين البلاد السعودية والسورية، وشعبيهما، حتى تنامت التجارة بين الدولتين، وحتى إن العقيلات - التجار النجديين - يعدون فترة

(٢٩) عبدالرحمن الزهراني. مسيرة الشورى في المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ، ص٨٨-٩٣.

(٣٠) موسوعة تاريخ الملك عبدالعزيز الدبلوماسي، مرجع سابق، ص٥٣٥.

(٣١) المرجع السابق.

الخمسينيات الهجرية/ الثلاثينيات الميلادية هي العصر الذهبي لتجارتهم، وخاصة في الإبل والخيول، ولا يزال من بقي منهم يلهجون بالدعاء لرشيد بن ليلى بالشام، كما يذكرون فوزان السابق بمصر، لمساعدتهم وتسهيل تنقلاتهم ورعاية مصالحهم جميعًا[٣٢].

وأورد أحمد الفهد العريفي ملخصًا مما أورده الشيخ علي الطنطاوي في ذكرياته (ج٣، ص١٢٦) فقال: وورد في "ذكريات الشيخ علي الطنطاوي" - رحمه الله - ما ملخصه[٣٣]: ياسين الروّاف، أول ممثل لجلالة الملك عبدالعزيز في دمشق، ولم تكن للمملكة سفارة ولا مفوضيّة بل كانت تسمى المعتمدية، ثم عين في الوظيفة أخوه الشيخ عيد، ثم رشيد باشا، وأظن أنه كان في الأصل من جماعة ابن رشيد أمير حائل، ولكن الملك عبدالعزيز على طريقته في تألف أعدائه يوليهم الثقة فيعطونه الإخلاص، وكذلك خلفه الشيخ عبدالعزيز بن زيد كان أيضًا من جماعة ابن رشيد، وكلاهما تشرفت بصداقته. أزوره دائمًا مع شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار، ووثّق الصداقة أني لم أكن أريد من أحدهما شيئًا، ولا أطلب منه طلبًا، ولقد كف بصر رشيد باشا في أواخر أيامه، ولم يعد يرى، ذهب بصره ولكن قويت بصيرته، وكنت أدخل عليه أحيانًا مع الشيخ بهجة فلا أسلم ولا أتكلم فيوجه إليَّ الخطاب باسمي حيث أكون جالسًا.

---

(٣٢) رجال في الذاكرة، مرجع سابق، ٢/ ١١٣-١١٤.

(٣٣) أحمد العريفي، علماء لبدة، ١٤٢٥هـ، ص٣٨.

إن تعيين الملك عبدالعزيز رشيدَ بن ليلى قنصلاً إدراك منه بثاقب فكره أن ابن ليلى يفضل أي عمل خارجي يسند إليه، وهو الذي قضى أكثر من نصف عمره خارج البلاد.

كما أن جلالته كان يدرك أن ابن ليلى رجل سياسة؛ ولذا فإنه يفيد الدولة خارجها أكثر.

مصادر ذكرته:

عرف به الأرشيف الإنجليزي قبل انتصار الملك عبدالعزيز على إمارة ابن رشيد، وضم حائل. فجاء في وثائقه ما يلي: رشيد بن ليلى: أول ما سمع به في نحو المحرم ١٣٣٥هـ (نوفمبر ١٩١٦م) حين زار عجيمي السعدون بصفته وكيل ابن رشيد، يحرسه نحو (٣٠) جنديًا تركيًا. وفي صفر ١٣٣٥هـ (ديسمبر ١٩١٦م) اشترى بعض التجهيزات في النجف، لكن لم يستطع ترتيب مرور آمن لها لنقلها إلى حائل بين العشائر النازلة في طريقه. منحه الأتراك لقب باشا لضمان اهتمامه بدعايتهم. وكان عظيم النفوذ في حائل حاضرًا في المعركة بين قوات ابن رشيد وقوات الشريف قرب الحناكية، ولو أنه من غير المؤكد إذ كان الأمير نفسه حاضرًا. وقدم إلى مدائن صالح مع الأمير في شوال ١٣٣٥هـ (أغسطس ١٩١٧م)، ثم مضى بعد مدة قصيرة إلى الآستانة وعاد إلى دمشق في غرة جمادى الأولى ١٣٣٦هـ (١٢ فبراير ١٩١٨م)[٣٤].

---

(٣٤) الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مرجع سابق، ٣/ ٤٩٤ (الهامش ١).

وفاته:

توفي - رحمه الله - في دمشق في ١٣٦٢/٣/٢٧هـ - ١٩٤٣/٤/٢م، ودفن في مقبرة الباب الصغير(٣٥).

أولاده وأحفاده:

له من الذكور أربعة أولاد:

١ - عبدالله الذي تخرج من جامعة لوزان بسويسرا، ختم حياته العملية بأن عمل مساعدًا لمندوب المملكة الدائم في الأمم المتحدة بنيويورك، وله ابنان هما: د. رشيد الذي عمل أستاذًا في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، وهو مقيم حاليًا في أمريكا، وأخوه صالح، وبنتان. وقد توفي عبدالله سنة ١٣٩٢هـ.

٢ - محمد(٣٦) الذي تخرج أيضًا من الجامعة نفسها التي تخرج منها أخوه عبدالله، وعمل سفيرًا للمملكة في

---

(٣٥) من رجال الشورى في المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ص٥٤.

(٣٦) نشرت جريدة صوت الحجاز في عددها (٥٢٨) الصادر يوم الأحد ٢ ذي القعدة ١٣٥٩هـ الموافق ٢ ديسمبر ١٩٤٠م الخبر الآتي: "نجاح طالب سعودي: نشرت جريدة الأهرام الغراء في عددها الصادر بتاريخ ٢٨ رمضان سنة ٥٩ [١٣هـ] لمراسلها الخاص في جنيف هذه الكلمة: "اجتاز السيد محمد الرشيد نجل رشيد باشا قنصل المملكة العربية السعودية العام في دمشق امتحان الدكتوراه في العلوم السياسية والاجتماعية بنجاح باهر في جامعة لوزان. وقد درس السيد محمد في لوزان على نفقة جلالة الملك بن السعود، وهو أول سعودي حصل على دكتوراه العلوم السياسية. أما رسالته التي تقدم بها فهي (تاريخ العرب الدبلوماسي)".

إحدى الدول الإفريقية، وله ولدان: عبدالعزيز ورشيد، وبنت واحدة.

٣ - إبراهيم، عمل بالتجارة بين الشام والمملكة العربية السعودية، وله عشرة أبناء هم: الدكتور المهندس ناصر المستشار بالديوان الملكي سابقًا والأستاذ السابق بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن، والدكتور رشيد أستاذ بجامعة الملك فهد أيضًا، وأحمد وعبدالعزيز وصالح وخالد وعمر وأنور وعبدالله وعبدالكريم وسبع بنات. وقد توفي إبراهيم سنة ١٤٠٣هـ.

٤ - عثمان، عمل بالتجارة أيضًا، وله من الأبناء د. يوسف الذي عمل أستاذًا بجامعة الملك فهد ثم في أرامكو، والمهندس عبدالرحمن، وفائز، وعبدالكريم، وأربع بنات، وقد توفي عثمان سنة ١٤١٤هـ.

٥ - أحمد، توفي شابًا بدمشق.

أما بنات الشيخ رشيد فهن ست بنات، الأولى هياء، والثانية شماء، والثالثة سلمى، والرابعة فاطمة(٣٧)، والخامسة عائشة، والسادسة ممدوحة، والأخيرتان ولدتا في إسطنبول بتركيا عندما كان الشيخ رشيد معتمدًا لآل رشيد لدى الحكومة العثمانية(٣٨).

---

(٣٧) فاطمة هي والدة الأستاذ فهد العلي العريفي - رحمه الله -؛ الذي شغل منصب مدير عام مؤسسة اليمامة الصحفية سابقًا، والكاتب المعروف، وهو من روى هذه الرواية لي قبل وفاته، ثم أضاف إليها ولده الأستاذ أحمد بن فهد العلي العريفي بعض المعلومات في خطاب أرسله لي بتاريخ ١٥/٤/١٤٢٨هـ.

(٣٨) رشيد بن ليلى: ممثل الملك عبدالعزيز في دمشق، مرجع سابق، ص٤٦؛ رجال في الذاكرة، مرجع سابق، ٢/ ١١٤-١١٥.

٢ - عبدالله بن حمد النفيسي: معتمد الملك عبدالعزيز في الكويت (١٢٧٨ - ١٣٦١هـ /١٨٦١ - ١٩٤٢م)

مولده ونسبه:

هو عبدالله بن حمد بن عبدالرحمن النفيسي، ولد بالرياض سنة ١٢٧٨هـ تقريبًا، وتعلم القراءة والكتابة في كتاتيبها، وعاش بها شطرًا من شبابه(٣٩).

أسرته وأقاربه:

كانت أسرته تقطن قرية أبالكباش قرب الدرعية، وكانوا حلفاء آل سعود أمراء الدرعية آنذاك، وكان عملهم في تجارة الأغنام، فكانوا يبيعونها لأشراف مكة كل عام في مواسم الحج أيام النحر، ثم استوطنوا الدرعية بعد ذلك، ثم تحولوا إلى الرياض بعد خراب الدرعية(٤٠).

وهم مع ذلك كانوا أبطال حروب، مشهورين بالشجاعة والبطولة، وذُكِرَ منهم عدة أبطال:

١ - حمد النفيسي الذي يروى أنه تولى قتل إبراهيم بن حمزة في ظلمة الليل بالقصر في الرياض بعد أن أوشك على قتل عبدالله بن علي بن رشيد.

٢ - إبراهيم بن عبدالرحمن النفيسي الذي كان أحد رجال الملك عبدالعزيز في استرداد الرياض، وهو عم المترجَم له.

---

(٣٩) المرجع السابق، ٤/١٤٦.

(٤٠) محمد سليمان النفيسي، تعقيب على مقالة عبدالله النفيسي، لمحمد القشعمي، المجلة العربية، ٣ المحرم ١٤٢٣هـ، ع ٣٠٠، ص٢-٣.

٣ - محمد بن عبدالرحمن النفيسي أخو إبراهيم السابق ذكره، قال فيه الملك خالد بن عبدالعزيز لحمد بن محمد النفيسي: "أشجع الشجعان"، وقد قتل محمد هذا في وقعة أم العصافير قرب المجمعة سنة ١٣٠١هـ، حيث كان مع الإمام عبدالله بن فيصل (عم الملك عبدالعزيز) في تلك الوقعة.

٤ - سليمان بن محمد بن عبدالرحمن النفيسي: خرج من الكويت مع مَنْ خَرَجَ مَع الشيخ مبارك الصباح والإمام عبدالرحمن الفيصل لقتال ابن رشيد في موقعة الصريف سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠١م، وقتل فيها(٤١).

٥ - عبدالله النفيسي: وهو جد المترجم له، كان من خاصة رجال الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله، ومن رجاله الميامين، وكان معه في أثناء اعتقاله سنة ١٢٥٤هـ، من قبل القوات التركية - المصرية، ونفي معه إلى القاهرة، ومكث فيها أكثر من خمس سنوات، ولما أطلق سراح الإمام فيصل سنة ١٢٥٩هـ، ومنّ الله عليه واستعاد ملكه في السنة نفسها، عيَّن عبدالله النفيسي أمينًا على بيت ماله(٤٢).

سفره إلى الكويت وعمله فيها:

غادر عبدالله النفيسي وأبوه وأسرته نجدًا متجهين إلى الكويت واستقروا بها عام ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م، واستوطنوا (فريج العوازم في البداية، وما لبثوا أن تحولوا إلى الحي القبلي، في محلتهم المشهورة باسمهم (سكة النفيسي) حيث بيوتهم وديوانهم،

(٤١) المرجع السابق، ص٣-٤.

(٤٢) المرجع السابق، ص٢.

وبعد نحو عشر سنوات نزلت الأسرة السعودية ضيفة كريمة على الشيخ مبارك الصباح، وعلى آل النفيسي، وسكنوا في محلتهم، في منتهى سكة النفيسي، خلف مسجد ابن بحر، وكان آنذاك يعرف ببيت الإمام عبدالرحمن الفيصل[٤٣].

عمل عبدالله مع أبيه وأخيه محمد في تجارة الخيل ونقلها إلى الهند، وفي المقابل كانوا يشترون البضائع الهندية لبيعها في الكويت، مثل عقل الشطفة والمقصبة (الزري) وغيرها، كما مارس النفيسي بعد ذلك تجارة اللؤلؤ (الطواشة) وغير ذلك.

ثم اتخذ عبدالله متجرًا صغيرًا في الكويت، وكان المتجر ابتداءً لأبيه، وكان يبيع فيه مؤونة أهل البادية ومستلزماتهم، مثل: العيش والشاي والسكر والإقط والدهن والتمر، والعصي والغتر. وكان الشيخ حمد - والد عبدالله - يقضي لوازم آل سعود من خلال هذا المتجر الذي كان في السوق الداخلي[٤٤].

لقاؤه الملك عبدالعزيز:

حين أقام آل سعود في الكويت، توطدت العلاقة بين عبدالله النفيسي والفتى الشاب عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود (الملك)، الطامح لاستعادة مجد آبائه وأجداده وملكهم[٤٥]. فما كان من عبدالله النفيسي إلا أن أصبح من رجاله.

وكيل الملك عبدالعزيز في الكويت:

لم ينس الملك عبدالعزيز جهد عبدالله النفيسي وعلاقته بعد أن تم له النصر، فمنحه مهمة تمثيله في الكويت سياسيًا

---

(٤٣) المرجع السابق، ص١١.
(٤٤) المرجع السابق.
(٤٥) رجال في الذاكرة، مرجع سابق، ص١٤٦.

وتجاريًا، دون قيد أو شرط، وظل كذلك حتى توفي – رحمه الله –، واستمرت الوكالة في ابنه عبدالعزيز بن عبدالله النفيسي، وظل يشغلها أيضًا حتى وفاته[٤٦]، ثم تولاها بعده ابنه فهد بن عبدالعزيز النفيسي، إلى أن تنازل عن المنصب باختياره وإرادته.

وأصبح بيت النفيسي هو دار الضيافة لكل ضيوف عبدالعزيز المارين بالكويت، بل وللكثير من أهالي نجد، وما زال النفيسي إلى اليوم – وما أكثرهم – يقيمون في الكويت، ويعدون أنفسهم من أبناء البلدين الشقيقين معًا... يعيشون في الكويت وكأنهم بالرياض موطنهم الأول. وما زال بيت جدهم الأول حمد النفيسي موجودًا بالرياض ويسمى إلى اليوم بيت النفيسي[٤٧].

أعماله في الكويت:

لقد قام النفيسي من خلال منصبه وكيلاً للملك عبدالعزيز بأداء مهمات السفارة في الكويت، ولكن هناك بعض الأعمال التي تذكر له في المصادر المختلفة:

(٤٦) ذكرت بعض المصادر، مثل موسوعة تاريخ الملك عبدالعزيز الدبلوماسي (ص٥٧١) أن عبدالله النفيسي عمل ممثلاً للحكومة السعودية منذ ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م (سنة دخول الملك عبدالعزيز الرياض) حتى وفاته. فيما ذكرت بعض المصادر أنه أول وكيل تجاري سعودي في الكويت ابتداءً من عام ١٣٤١هـ/١٩٢١م. ومن التوفيق بين المصادر يظهر أن عبدالله النفيسي كان ممثلاً ومعتمدًا للملك عبدالعزيز منذ استرداد الرياض عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م. ولكن التوكيل والاعتماد صار رسميًا سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢١م. انظر: أحمد بن عبدالله النفيسة، الإعلام بما لآل نفيسة من تاريخ وأعلام، ١٤٢٥هـ، ص١٩١.

(٤٧) المرجع السابق، ص١٤٣.

١- مساهمته في حصار حائل:

عندما حاصر الملك عبدالعزيز حائل سنة ١٣٣٧هـ ستة أشهر احتاج الجيش السعودي إلى بعض المؤن المختلفة، فقام عبدالله النفيسي بتأمين اللوازم بناء على أمر الملك. وقد ذكر ذلك حسين خزعل بقوله: "خشي الأمير عبدالعزيز السعود أن تطول مدة الحصار لحائل لمناعتها وتنقص عنده المؤونة والطعام فأرسل بتاريخ ٥ رجب ١٣٣٩هـ الموافق ١٦ مارس ١٩٢١م قافلة من أهالي الزلفي، وكتب معها كتابًا إلى عبدالله النفيسي والرباعي يطلب منهما تزويده بالطعام، ويقول لهما إذا ما احتاجا إلى المال فليراجعا الشيخ أحمد، كما كتب إلى أحمد الجابر يطلب منه مساعدة النفيسي إذا ما احتاج إلى المال وأنه سيحول له المبلغ عن طريق البحرين..."، ثم أورد المؤلف كتابًا من الشيخ أحمد الجابر إلى الشيخ خزعل: "... الجماميل الذين عمدهم حضرة المدعي إليه وصلوا إلى بلدتكم الكويت ودفعنا المبلغ المرقوم مع العيش بيد عبدالله النفيسي وبعد التاريخ بيومين عزم الجماميل يمدون تاريخ ٢٥ رجب ١٣٣٩هـ"(٤٨).

٢- تمثيله الخاص للفئات القبلية:

رغم أن السلطان عبدالعزيز كان يعتمد عليه في كثير من الأمور المهمة والمعقدة، فهذا سانت جون فلبي يقول: عندما بدأت الخلافات بين سلطان نجد والحكومة البريطانية بسبب تنقلات ومناوشات واعتداءات القبائل على الكويت والعراق؛ حاولت بريطانيا ممثلة بالعقيد هاملتون وضع الترتيبات

(٤٨) المرجع السابق، ص١٩٢.

الكفيلة بإزالة هذه الأسباب والقضاء على دابر الخلاف بإيقاف الاعتداءات، وكان فلبي هو المعني بإنهاء هذه المشكلة من قبل السلطان عبدالعزيز إلى جانب هاملتون ممثل المعتمد البريطاني بالخليج، فيقول: "... وكان واضحًا لي، على أية حال أن خطأ ما قد حدث. وخوفًا من حدوث اضطرابات في التأخير شعرت أنه لم يعد أمامي إلا أن أعطي نيابة عن السلطات في الكويت، ضمانات معينة بالنسبة للمستقبل. وبناء على ذلك رتبت مع ابن سعود أن كل القوافل النجدية يجب أن تصحب بمبعوثين خاصين منه، وأنه يجب أن يعين وكيله في الكويت عبدالله النفيسي، ممثلاً خاصًا بالنسبة للفئات القبلية التي ليست في وضع يمكنها من القدوم لتدبر وفودها الخاصة، مثل قبائل شرق الجزيرة العربية كمطير وسبيع، وأن جميع قوافل المدن العادية يجب أن تحمل تصريحات مرور موقعًا عليها من الأمراء المحليين، وقد أرسلت هذه الترتيبات فورًا إلى الوكيل السياسي في الكويت، مؤكدًا لابن سعود في الوقت نفسه، أن القوافل التي ردت من قبل يمكنها الآن أن تعود لتحضر إمدادتها، التي لن تمنع منها، بشرط أن تراعي تمامًا الترتيبات الخاصة بتصريحات المرور والمندوبين..."(٤٩).

٣ - الاعتماد عليه في أمور خارج الكويت:

كان الملك عبدالعزيز يكلف عبدالله النفيسي بمأموريات خارج نطاق عمله معتمدًا في الكويت، فقد جاء في ترجمة

(٤٩) محمد القشعمي، عبدالله النفيسي، معتمد ووكيل الملك عبدالعزيز بالكويت، المجلة العربية، ع٣٠٠، (المحرم ١٤٢٣هـ)، ص٦١. وانظر: جون فيلبي، بعثة إلى نجد، ١٤١٨هـ، ص١٤١-١٤٤.

خطاب موجه من الملك عبدالعزيز إلى المعتمد السياسي في البحرين مؤرخ في ٢٦ شعبان ١٣٣٨هـ/ مايو ١٩٢٠م.

"بالنسبة إلى صديقنا عبدالله بن حمد النفيسي وكيلنا في الكويت، لقد زارني أخيرًا وفقًا لأوامري، وبحثت معه مسألة فتح ميناء في جبيل، وقد غادر إلى طرفكم، وسيتفقد موانئنا الساحلية بقصد اختيار ميناء مناسب، كما سيزور البحرين والكويت. أرجو التكرم بمنحه رسائل تقديم وما يلزم من مساع حميدة، ومساعدته في رحلاته ذهابًا وإيابًا، ومنحه سكنًا مًناسبًا على متن السفينة..."(٥٠).

النفيسي يغادر الكويت:

في عام ١٣٣٩هـ نشب خلاف بين نجد والكويت، جعل النفيسي يغادر الكويت، وقد أورد حسين خزعل تلك القصة: "عبدالله النفيسي هو من النجديين القاطنين الكويت. وكان الأمير عبدالعزيز السعود قد جعله معتمدًا له في الكويت في جميع قضاياه وقضايا أهالي نجد وغيرها التابعين له. ولما نشب الخلاف بين نجد والكويت، توجس عبدالله النفيسي شرًا، وخشي عاقبة المصير فأراد أن يترك الكويت. فاستأذن الشيخ سالم بذلك، فلم يأذن له بل طمأنه ووعده بأنه سيشمله برعاية خاصة، ولكن عبدالله أصر على ترك الكويت مدعيًا أن الأمير عبدالعزيز قد أمره بذلك، فأذعن الشيخ سالم لطلبه، بعد أن اشترط عليه أن يكتب له وثيقة تتضمن

---

(٥٠) الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، (نجد والحجاز)، مرجع سابق، ٥/٢٢٧.

إقراره بأن مغادرته الكويت كانت من تلقاء نفسه، وأنه لم يجبر عليها. فكتب الوثيقة الآتية: "بسم الله الرحمن الرحيم، نعم أنا عبدالله بن أحمد [حمد] النفيسي سافرة [سافرت] من الكويت من أمر الشيخ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل إلى بندر البحرين ومنه أتوجه إلى الجبيل ومدة إقامتي ووقت سفري ما شاهدة [شاهدت] شيء [ـًا] أكره وللبيان أعطيت هذه الورقة الشيخ سالم المبارك الصباح، جرا في ٢٠ ذي الحجة ١٣٣٨هـ. عبدالله بن أحمد النفيسي"(٥١).

وفي السنة نفسها دعاه الملك عبدالعزيز وعرض عليه إمارة الجبيل فاعتذر من قبول ذلك مؤثرًا العمل الحر، فطلب منه الملك أن يسافر إلى الجبيل وينصب عليها أميرًا من قبله فرحل إليها وفعل ما أمر الملك، وبعد سنة من إقامته في الجبيل سافر إلى الرياض ليستأذن من الملك في فتح عمل تجاري له في الجبيل وعند وصوله الرياض صادف قدوم الشيخ أحمد الجابر الصباح حاكم الكويت الحالي [آنذاك] مندوبًا من قبل حاكم الكويت إذ ذاك، المرحوم الشيخ سالم المبارك، لإتمام الصلح بين نجد والكويت، وفي أثناء المفاوضات وصل نعي الشيخ سالم رحمه الله إلى الرياض، وبعد أن تكللت المفاوضات بالنجاح طلب صاحب السمو المعظم من جلالة الملك أن يسمح باصطحاب النفيسي معه إلى الكويت، فرجع إلى الكويت وكان اختيار الشيخ أحمد

(٥١) حسين خلف الشيخ خزعل، تاريخ الكويت السياسي، ١٣٨٢هـ، ٣/٢٣٩-٢٤٠.

الجابر له دليلاً لحب الكويتيين لهذه الشخصية المخلصة، فقد كان - رحمه الله - يتمتع بثقة الكويتيين لما يعرفون عنه من طهر سريرة وصلاح ونبل وشرف، وما يكنه لوطنه الكويت من إخلاص، وخلفه أبناء نجباء أولاهم جلالة الملك عبدالعزيز ثقته من بعد والدهم - رحمه الله - تقديرًا منه لهذه الأسرة الطيبة(٥٢).

وبعودته تلك مع الشيخ أحمد الجابر الصباح أصبح عبدالله النفيسي رسميًا الوكيل المعتمد التجاري والسياسي للملك عبدالعزيز في الكويت واستمر في منصبه حتى وفاته.

وفاته:

توفي عبدالله النفيسي عام ١٣٦١هـ، وقد تأثر الملك عبدالعزيز لوفاته، وحزن عليه حزنًا شديدًا، وبعث ببرقية عزاء إلى أهله وذويه جاء فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، نعزيكم بوفاة المرحوم الشيخ عبدالله النفيسي، وأنتم يا آل نفيسي في مكان والدكم". وبعد مدة أرسل ابنيه الأميرين/ سعودًا وخالدًا [الملكين فيما بعد] إلى الكويت لتقديم التعازي بوفاته(٥٣).

أولاده:

للشيخ عبدالله تسعة من الأبناء الذكور وعدد من الأحفاد(٥٤).

---

(٥٢) خالد سعود الزيد، سير وتراجم خليجية في المجلات الكويتية، ١٩٨٣م، ص١٠٢.

(٥٣) الإعلام بما لآل نفيسة من الأعلام، مرجع سابق، ص١٩٣.

(٥٤) المرجع السابق، ص١٩٣-١٩٦.

٣ - عبدالله بن محمد الفوزان: وكيل الملك عبدالعزيز في الهند (١٢٧٨ - ١٣٧٩هـ / ١٨٦١ - ١٩٦٠م)

نسبه:

هو عبدالله بن محمد الفوزان، ولد في عنيزة بالقصيم، وبها نشأ، ثم غادر إلى الهند وهو في السابعة عشرة بصحبة والده محمد بعد أن تزوج من ابنة عمه، حيث كان يتاجر بين نجد والعراق والهند. استقر في الهند ليتيح لوالده الاستقرار ومتابعة أعماله في نجد، ليزوده بمتطلباته التجارية مجنبًا إياه مشقة السفر وعناءه. توفي عام ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م، في بومبي بالهند، ودفن هناك، بعد أن ناهز المئة عام(٥٥).

الفوزان وكيلا للملك عبدالعزيز:

كان الفوزان يرتبط بالملك عبدالعزيز بعلاقة قوامها المحبة والإخلاص، والوفاء منقطع النظير، حتى عرف عنه - رحمه الله -، أنه إذا أراد أن يتقرب منه أحد لحاجة يمتدح الملك عبدالعزيز - رحمه الله -، كما أنه كان يغضب للملك عبدالعزيز. لقد نذر - رحمه الله - نفسه وماله لخدمة الملك عبدالعزيز، ولم يكن يمثله بصفة رسمية، ولكن بالتأكيد كان يمثله في كل ما يتعلق بالملك عبدالعزيز أو الدولة السعودية سواء شخصيًا أو رسميًا. كما تعرض لمخاطر شخصية في سبيل ذلك بسبب البدع والخزعبلات في الهند(٥٦).

---

(٥٥) خطاب مرسل إلي بالناسوخ (الفاكس) من حفيده طارق بن علي الفوزان، بالكويت بتاريخ ١٨/٤/٢٠٠١م.

(٥٦) المرجع السابق.

كما أنه - رحمه الله - قد التقى الملك عبدالعزيز في الحجاز، كما التقى بالملك سعود، وكذلك بالملك فيصل في الهند حين كان وزيرًا للخارجية في عهد والده[٥٧].

التواصل مع زعماء الهند وأهلها:

كان عبدالله الفوزان دائم التواصل مع زعماء الطوائف الدينية في الهند، وذلك لشرح أهداف الملك عبدالعزيز وأعماله التصحيحية، ولتقريب وجهات النظر، ولا سيما أن الدولة السعودية كان يهمها أمر المسلمين بالهند حيث يشكلون كتلة لا يستهان بها. ناهيك عن الاعتماد والاعتداد بالمورد المادي الكبير من حجاجهم لدولة ناشئة.

كما كان - رحمه الله - عبر المراسلات والبرقيات على اتصال دائم بالملك عبدالعزيز يحيطه علمًا بأحوالهم وأمورهم، ويعرفه بمحبيه ويحذره ممن لهم توجهات وأفكار مخالفة.

أما ما قدمه - رحمه الله - للهند فكان دومًا يتلمس حاجات المسلمين ويسعى في تحقيقها بعرضها على الملك عبدالعزيز - يرحمه الله -، بل تجاوز ذلك إلى خدمة حجاج الصين الذين وصلوا إلى الهند على غير هداية آملين الحج وقصدوا عبدالله الفوزان - ممثل الملك عبدالعزيز - ليسعى لهم باستخلاص إذن بالدخول إلى الأراضي السعودية، وتم لهم ذلك.

---

(٥٧) المرجع السابق.

وآخر ما قدمه لهم - وهذا سر الشعبية التي يحظى بها في الهند - هو تشريف الملك له بتعيين ابنه يوسف(٥٨) سفيرًا للمملكة بالهند، حيث وجدوا فيه ابنًا للهند ومتفهمًا لحاجاتها وخير من يعرض قضايا المسلمين فيها، بل وأكثر من السفير الهندي نفسه في المملكة، كما شهد بذلك زعيم الهند ورئيس وزرائها جواهر لال نهرو أثناء اجتماعه بالملك فيصل - رحمه الله -(٥٩).

مساعدة السعوديين المسافرين إلى الهند:

تحدث حمد الجاسر في معرض حديثه عن البعثات الأولى للدراسة في مصر، ذاكرًا الشيخ عبدالله الفوزان، فقال:

---

(٥٨) يوسف بن عبدالله الفوزان: جاء في (موسوعة تاريخ الملك عبدالعزيز الدبلوماسي): يوسف عبدالله الفوزان: سفير المملكة في إيران، وكانت بدايته قنصلاً عامًا عند تأسيس القنصلية فيها، حيث صدر أمر ملكي بتعيينه في ١٦ صفر ١٣٥٠هـ، ثم هو أول قنصل للمملكة في بومباي (الهند) (الموسوعة، الرياض، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، القسم الثالث: الأعلام، ص٦٤٩). كما ورد خبر تعيينه وإنشاء القنصلية في فلسطين في جريدة صوت الحجاز، فجاء فيها: "تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم بإصداره إرادته الملكية المكرمة بإنشاء قنصلية عامة للمملكة العربية السعودية بفلسطين وتعيين حضرة الشيخ يوسف فوزان قنصلاً عامًا لها..." صوت الحجاز، س١٠ (١ ربيع الأول ١٣٦٠/٦ أبريل ١٩٤١م) ص١.

(٥٩) فاكس من حفيده طارق الفوزان. ويذكر أن رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو عند زيارته للمملكة قبل (٤٠) عامًا قال للأمير [الملك] فيصل رئيس مجلس الوزراء وقتها: "خذوا أبو الكلام آزاد [وزير التعليم والثقافة الهندي] لأنه من مواليد مكة المكرمة، وأعطونا يوسف بن عبدالله الفوزان لأنه من مواليد الهند، وابن عمدة تجار بومبي". وكان يوسف وقتها سفيرًا للمملكة بالهند.

"وممن كان لهم أثر في ابتعاث بعض أولئك الشبان الشيخ عبدالله الفوزان الذي كان من أشهر تجار العرب في الهند، وهو أبو الشيخ يوسف الذي كان سفيرًا حتى توفي، وكانت صلة الشيخ عبدالله بالملك عبدالعزيز قوية، فقد بعث محمد السليمان الحمدان للعمل في الديوان، وكان محمد وأخوه عبدالله يعملان في مكتب ابن فوزان في الهند قبل ذلك، ولما توفي محمد بعث ابن فوزان عبدالله (الشيخ عبدالله السليمان) بطلب من الملك عبدالعزيز - رحمهم الله - فعمل في الديوان فترة قصيرة ثم انتقل للعمل في إدارة المالية - وزارة المالية فيما بعد - في مكة"(٦٠).

كذلك يذكر عبدالله بن سليمان الحمدان - وزير المالية الأسبق - في مقال له في صحيفة البلاد السعودية أنه غادر عنيزة إلى البصرة حيث أخوه محمد، ثم أرسله أخوه إلى بومبي بالهند "عند الشيخ عبدالله الفوزان، التاجر الكبير بها، هو من بلدتنا [عنيزة] وهو رجل كريم الأصل طيب العنصر، ما قصر معي، بل أحلني من نفسه محل أولاده، وكان ينبهني ويهديني إلى الصواب دائمًا، فكان عمله هذا حافزًا لي على الجد والنشاط"(٦١). ويذكر كذلك أن الشيخ عبدالله الفوزان قد رتب له مرتبًا شهريًا.

---

(٦٠) حمد الجاسر، البعثات الأولى للدراسة بمصر، مجلة العرب، س١٧، ع٣+٤ (رمضان - شوال ١٤٠٢هـ / يونيو - يوليو ١٩٨٢م) ص٢٠٥.

(٦١) حياة معالي وزير المالية بقلمه، صحيفة البلاد السعودية، ع٩٧١ (الأربعاء ١٨ صفر ١٣٧٠هـ/٢٩ نوفمبر ١٩٥٠م) ص٣.

ويشير د. علي إبراهيم الخليف الأستاذ بجامعة الملك سعود، والكاتب بجريدة الرياض عن والده إبراهيم أنه سافر إلى بومبي في الهند ووصل إلى أحد التجار وكان يعرفه فسلم عليه وعلى من كان بمجلسه فوجد واحدًا يلبس جبة ويضع فوق رأسه عمامة فاعتقد أنه من أبناء الهند وفوجيء به يسأله: الأخ من وين؟ فرد عليه: من المملكة. قال: أعرف! ولكن من أي منطقة بالمملكة؟ فأجابه: من نجد. فرد عليه: من أي بلد من نجد؟ قال: من عنيزة. فرد عليه: أعرف أنك من عنيزة! من أي حارة؟ فقال: من (الخريزة) فقال: أنت ولد فلان - وذكر معيارته - أنتم اللي لبيتكم بابين باب على الحيالة (المزرعة)، والآخر على السوق وجيرانكم الفلان. قال: نعم. فرد عليه مؤكدًا: وترى مطقة الباب حافرة بالخشب بشكل قوي. فتعجب من ذاكرته رغم مضي سنوات طويلة لم ير فيها عنيزة. فيقول إبراهيم الخليف: فبمجرد عودتي لعنيزة ذهبت إلى (مطقة) الباب وإذا هي كما وصفها الفوزان. فهذا يدل على ذاكرة قوية عجيبة.

ويذكر د. عبدالملك بن دهيش أن والده عند ذهابه للهند لطلب العلم وجد لدى الفوزان مضافة يسكن بها جميع من يأتي من المملكة وغيرهم.

نشاطه التجاري:

كان نشاطه التجاري الاستيراد والتصدير، حيث يستورد من العراق التمور، ويصدر إلى نجد جميع أنواع المؤن وما يطلبه التجار المتعاملون معه. ومن أبرز التجار الذين تعامل

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ السنة الخامسة والثلاثون
الدارة

معهم في الهند أو الجزيرة العربية: آل الفضل، والقاضي، والبسام، وآل السليمان، والغانم، وآل زينل، كما تعامل مع علي حمود الشايع، وحسين بن عيسى وكلاء آل الصباح من الكويت، وجاسم الزياني من البحرين، وعبدالمنعم الزواوي من عمان[٦٢].

حبه لبلده عنيزة:

مر معنا ما ذكره علي الخليف عن والده إبراهيم وتذكره لبيوت عنيزة بتفاصيلها الدقيقة بعد سنوات طويلة، كما يقول الأستاذ إبراهيم العبدالله التركي نقلاً عن الراوية الشهير إبراهيم الواصل: كان يحب نجد حبًا جمًا ولا يرضى أن ينالها أحد بسوء حتى ولو من باب المزاح، وعنيزة على وجه الخصوص. كما يقال عنه أنه سافر من بومبي إلى كراتشي وحل ضيفًا على التاجر المرزوق من أبناء الكويت، وكان من عادة التجار هناك أن يخصصوا مكانًا أو جزءًا من منزلهم أو منزلاً خاصًا باسم الضيافة يسكنه من يستضيفونه ممن لا يقيمون في البلد سواء من أقاربهم أو من أبناء بلدتهم. وكان يتناول مع ضيفه ومجموعة أخرى طعام الغداء، وكان ضمن المائدة لحم فوجد أن طعمه لذيذ فأشاد به. فقال له محمد المرزوق - زوج ابنته رقية -: هذا لحم كراتشي أفضل من لحم بمبي وكأنه لحم نجد، قالها بشيء لمس منه أنه يتهكم، ثم أكمل قائلاً: إن الجوع يجعل أي طعم للأكل لذيذًا. فأحس أنه يلمز نجد، فرمى بلقمته بالصحن وقام يهم بالانصراف،

---

(٦٢) خطاب مرسل لي بالناسوخ (الفاكس) من حفيده طارق بن علي الفوزان، بتاريخ ١٨ /٤/ ٢٠٠١م.

لولا أن قام الجميع يترجونه ألا يتركهم؛ لأنها تعد إهانة أن يسكن في مكان آخر، فلامهم واختتم كلامه: إن الواحد إذا ترك بلده ووجد ما ينسيه، ما كان عليه أن يتنكر لماضيه وينسى ما يعيشه أمثاله هناك.

كما أن الوزير عبدالله بن سليمان الحمدان حاول أن يرد شيئًا من الجميل لمعزبه (معلمه) عبدالله الفوزان، فاستضافه بالحجاز وأكرمه بعد أن أدى فريضة الحج. وبلغ من شدة حبه لعنيزة أنه غادر الحجاز لزيارتها، وعند وصوله إلى الوادي - أحد أطراف عنيزة - عاد أدراجه قبل الوصول إليها. ولم يعرف سبب هذا التصرف، فمنهم من يقول إنه لم يحمل معه هدايا لمعارفه وأصدقائه الكثر ولهذا خجل من نفسه وعاد، ومنهم من يقول إن لوعة الفراق يقابلها لوعة اللقاء وشوقه، وأن قلبه المرهف لم يتحمل هذا المشهد المنتظر ولهذا عاد بحسرة!!

دموع وأشجان:

ذكرنا سابقًا أن الشيخ عبدالله الفوزان قد توفي - رحمه الله - سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م في بومبي بالهند ودفن هناك، وقد كتب الصحفي حسين بن محمد[٦٣] مقالاً من نيودلهي

(٦٣) حسين بن محمد: كنت قد ذكرت في هامش مقال لي نشر في المجلة العربية بعنوان: (عبدالله بن محمد الفوزان: معتمد الملك عبدالعزيز في الهند) ع٢٩٢، رجب ١٤٢٢هـ، ص١٠٢ - أنه من الأفلاج؛ وفي العدد ٢٩٩، (مارس ٢٠٠٢م) من المجلة العربية أيضًا، عقب صلاح بن إبراهيم الزامل بمقال قال فيه: حسين محمد آل سليمان من مواليد مدينة الحريق، ولد فيها ونشأ وتعلم مبادئ القراءة =

في جريدة القصيم(٦٤) بعنوان "دموع وأشجان"، يرثي فيه الشيخ عبدالله الفوزان يقول فيه: المواطن العربي الذي احتشد في جنازته ألوف المشيعون [هكذا!] من جميع الملل والنحل. توفي في أواخر ذي القعدة الماضي الشيخ العربي

= والكتابة، وفي بداية شبابه أصبح كاتبًا عند أحد قضاة الحريق وهو الشيخ حسن بن إبراهيم آل الشيخ، وانتقل إلى مكة المكرمة بعد ذلك ودرس في المعهد العلمي السعودي وتخرج فيه، وبعد مدة من الزمن عيّن في السفارة السعودية بالهند في الملحق الثقافي [الملحقية الثقافية] واستمر في هذا العمل إلى أن اعتدت عليه اليد الأثيمة في منزله. وقد رثاه الشيخ حمد الجاسر بمقال في مجلة العرب؛ لأنه من زملائه بالمعهد العلمي السعودي بمكة وأثنى عليه خيرًا. والأستاذ حسين بن محمد [آل سليمان] من بيت علم في الحريق، فالشيخ العلامة زيد بن محمد آل سليمان المتوفى سنة ١٣٠٧هـ من أسرته، والشيخ حفيد الشيخ زيد بن عبدالله بن عبدالعزيز آل سليمان قاضي البريمي أكثر من ثلاثين سنة وهو خال الأستاذ حسين، والأستاذ حسين - رحمه الله - هو عم الشيخ محمد بن زيد آل سليمان رئيس المحاكم الشرعية في المنطقة الشرقية وعضو هيئة كبار العلماء، والشيخ محمد بن سليمان آل سليمان قاض بالمحكمة الكبرى بالدمام ورئيس جمعية تحفيظ القرآن الكريم فيها، وأسرة آل سليمان تنتسب إلى قبيلة عائذ وهي من أقدم الأسر سكنًا في الحريق. وكتب حمد الجاسر في السوانح (ط١، ١/ ٣٠٦-٣٨٠) يقول: حسين بن محمد آل سليمان، من الحريق. ثم كتب في الهامش: تخرج حسين من المعهد (العلمي السعودي)، وعين قارئًا للقرآن عند الملك فترة قصيرة في عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) قبل عبدالرحمن القويز. قتل حسين موظفًا في السفارة في الهند سنة ١٣٨٩هـ. (العرب، س٤، ص٨٩). ويبدو أن حسين بن محمد كان مراسلاً للصحف السعودية في الهند، فقد ورد في جريدة الجزيرة بعنوان: (من الواقع) وكتب تحته: من مراسلنا: حسين بن محمد (الجزيرة، س٤، ع٣، (صفر ١٣٨٣هـ/يونيو ١٩٦٣م)، ص٢٧، ٢٩).

(٦٤) جريدة القصيم، ع٣٤ (الثلاثاء ٩ صفر ١٣٨٠هـ/ ٢ أغسطس ١٩٦٠م)، ص٣.

الوقور محمد [عبدالله بن محمد][٦٥] بن عبدالله الفوزان، في مدينة بومباي، توفي عن عمر تجاوز المئة عام. ولسنا هنا نحاول الإسهاب في بيان مناقبه وسيرته المثالية الحميدة، في الدين والمروءة والخلق الكريم.

ويحدثنا التاريخ، كما في كتب المناقب "كصفوة الصفوة" لابن الجوزي - رحمه الله -: إن أحد الأئمة توفي فمشى في جنازته ألوف مؤلفة" من غير المسلمين، وهذا ما جرى بعينه للفقيد عبدالله الفوزان - رحمه الله وغفر له - إذ مشى في جنازته عدا المسلمين عدد لا يحصى من مختلف الديانات المنتشرة بالهند وليس هذا في المدينة نفسها بل قدم معزون من أهل الكتاب وغيرهم، من نواح أخرى، وقد عقد المجلس البلدي لمدينة بومباي جلسة خاصةً لتأبين الفقيد تبارى فيها الخطباء، من الأعضاء، قائلين بالإجماع أنهم يفخرون بإقامة هذا الزعيم، ووفاته في ديارهم، ونقول الزعيم، لأنه كان زعيمًا حقًا، وإن لم يشكل حزبًا.

أصدرت أكبر جرائد الهند التي تصدر باللغة الإنجليزية في بومباي في أحد أعدادها مقالاً ضافيًا عن الفقيد، عددت فيه مواقفه في القضايا العربية، وفي الأيام الحوالك أيام تألب المناوئين للبيت السعودي الكريم، ومقاومتهم لنشر العقيدة السلفية، كان الشيخ عبدالله الفوزان، وبعض إخوانه المخلصين يعدون حصنًا منيعًا، وجبلاً راسخًا لا تزعزعه الرياح حتى أحق الله الحق وأبطل الباطل.

---

(٦٥) ورد الاسم في الجريدة: محمد بن عبدالله، وصوابه: [عبدالله بن محمد].

وتحت عنوان "الأدب يسهم في التعزية بالفقيد"، كتب حسين بن محمد: الأستاذ السيد عمر أبو ريشة[٦٦] في غنى عن البيان أو التقدمة، وقد قال في رسالة خاصة: إنه لما بلغني النبأ، سمعتني أقول لنفسي: ما مات.. عبدالله في الخلد، فتناولت القلم وجمعت الحروف فإذا مجموعها - ١٣٧٩ - هذا شيء معجز لا أعرف له تأويلاً، تبارك الحق. وسجل ذلك بثلاث أبيات هي هذه:

دنياك كانت سورة الحمد ... يا راقدًا في غيهب اللحد
الهند ضمتك إلى صدرها ... ففازت الهند على نجد
ومكة قالت لمن أرخوا ... ما مات، عبدالله في الخلد

وقطعة ثانية أيضًا للسيد عمر سجل بها ذلك الحادث بين رثاء وتاريخ، قال:

هنا انتهت زورته العابرة ... راضية مرضية شاكرة
وما انطوى منه سوى هيكل ... ذكراه تبقى بعده عاطرة
قال له تاريخه ملهماً ... فوزان في الدنيا وفي الآخرة

تغمد الله الفقيد برحمته وأسكنه فسيح جناته"[٦٧].

أولاده:

عقب الشيخ عبدالله الفوزان ستة من الأبناء، وأربعًا من البنات.

---

(٦٦) عمر أبو ريشة: شاعر سوري معروف، من حلب، كان سفيرًا لبلاده في الهند وقتها، توفي في الرياض عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م. [محمد خير رمضان يوسف. معجم المؤلفين المعاصرين، ١/ ٤٧٣].

(٦٧) المرجع السابق.

ذاكرة الطلل وكسر النمط:

قراءة في قصيدة (حديث الأَماكن القديمة) للسماعيل ومعارضة الصالح لها

د. فاطمة بنت عبدالله الوهيبي

قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

"كانوا قديمًا أصحاب خيام ينتقلون من موضع إلى آخر، فلذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار فتلك ديارهم وليست كأبنية الحاضرة، فلا معنى لذكر الحضري الديار إلا مجازًا، لأن الحاضرة لا تنسفها الرياح ولا يمحوها المطر إلا أن يكون ذلك بعد زمان طويل لا يمكن أن يعيشه أحد من أهل الجيل"(١).

للطلل في الشعر العربي موضع صدارة في كثير من القصائد التي نظمها أصحابها تحت وطأة الذكرى أو اتباعًا لسنة شعرية. والذكرى تأتي بداعي المرور والاجتياز بالأماكن التي هُجرت ودرست، أو تأتي مجازًا باجتياز تلك الذكرى في وجدان الشاعر وذاكرته. ونص ابن رشيق أعلاه يربط الطلل أولاً بفكرة الترحل والانتقال الجبرية التي فرضتها طبيعة

(١) ابن رشيق، العمدة، تحقيق مفيد محمد قميحة (بيروت، دار الكتب العلمية ط. الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣) ج١/ ١٥٨.

حياة الصحراء والتنقل طلبًا للماء والكلأ، ويربط ثانيًا بينها وبين ذكرها مجازًا لا اجتيازًا، كما يشير ضمنيًا إلى فكرة التقليد والاجتياز الفني بتقليد شعري.

إن فكرة الاجتياز هذه فكرة مهمة قلما توقف عندها الدارسون قديمًا وحديثًا، ومعظم من تناولوا الطلل تحدثوا عن الوقوف، على حين أن أصل التفجع في هذا الشعر قائم على فكرة الاجتياز بتلك الديار التي تماهت بأهلها فصار المكان ملتبسًا بأهله، وبالحبيبة خاصة.

وإشارة ابن رشيق (ت ٤٥٦) السابقة من الإشارات النادرة التي ربما استوحاها من ملاحظة بارعة للآمدي (ت٣٧٠) في "الموازنة" - في باب الابتداءات بذكر الوقوف على الديار - حول معنى الوقوف والاجتياز، فقد أورد بيت أبي تمام:

أتنزل اليوم بالأطلال أم تقف

لا، بل قف العيس حتى يمضي السلف

وعلق عليه بقوله: "إنما قال ذلك لأن الوقوف على الديار إنما هو وقوف المطي، ولا يكادون يذكرون نزولاً"(٢). ثم مضى يشرح ذلك: "العرب لا تقصد الديار للوقوف عليها، وإنما تجتاز بها، فإن كانت واقعة على سنن الطريق قال الذي له أربٌ في الوقوف لصاحبه أو أصحابه: قف، وقفا، وقفوا، وإن

---

(٢) الآمدي، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت، المكتبة العلمية [١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م]) .

لم تكن على سنن الطريق قال: عوجا، وعرّجا، وعوجوا وعرّجوا كما قال امرؤ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا

نبكي الديار كما بكى ابن حذام"[٣]

هذا التقليد البكائي في الشعر العربي خلده الشاعر العربي، ومن خلاله برزت تيمة[٤] الأطلال، وسارع النقاد قديمًا يبحثون عن أول من وقف واستوقف، واجتهدوا، وتضاربت الأقوال[٥]. ولكن ما تواتر عن

---

(٣) الآمدي، الموازنة ص٣٨٨.

(٤) أفضل كلمة (تيمة) بدلاً من كلمة (موضوعة) ولقد سبق أن بيّنت وجهة نظري في هذا الاستخدام للمصطلح في كتابي: المكان والجسد والقصيدة (بيروت، المركز الثقافي العربي، ط.الأولى سنة ٢٠٠٥م) ص ٧ هامش ٢ حيث قلت ما نصه: يترجم عدد من الدارسين المصطلح theme بـ (ثيمة) وبعضهم يترجمها (تيمة) ، وبعضهم يضع كلمة (موضوع) أو (موضوعة) أو (غرض) كمقابل عربي. ولست أرتاح لهذه المقابلات لعدم دقتها وعدم وفائها بالمعنى المصطلحي للكلمة، لذا أفضل كلمة تيمة للدلالة عليها. ينظر مثلاً كتاب مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب (بيروت، مكتبة لبنان طبعة ١٩٨٤م مادة theme، وينظر كتاب سمير حجازي، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر (القاهرة، الآفاق العربية ط. الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م) مادة (theme) ص١٣٨، وينظر كتاب أمين يعقوب وبسام بركة ومي شيخاني، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية (بيروت، دار العلم للملايين ١٩٨٧م) مادة (theme) وينظر أيضًا حميد لحمداني، سحر الموضوع (منشورات دراسات. سال سنة ١٩٩٠م) هامش ص٢٢.

(٥) ينظر ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر (القاهرة، مطبعة المدني [١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤]) .

القدماء[٦] وما أكده الشراح والدارسون المحدثون[٧] أن الطلل مكان غادره الأحباب، مكان هُجر، وتقادم العهد به فدرس، ولذلك ارتبط الطلل بالأحبة وبالمرأة المعشوقة خاصة، وبالمشاعر المتهيجة الناجمة عن اللوعة والفقد والحنين.

وأرى أنهم أسرفوا في الفكرة المكانية في الطلل؛ فطلل الشاعر فيه، إنه الذاكرة الموشومة التي تتحرك معه. الشاعر فضاؤه فيه، وطلله مسرح لقصيدته التي يخط فيها لوحة الطللين: الطلل الخارجي الماثل والطلل الداخلي القار في وجدانه. ولعل الشاعر القديم الذي شبه آثار الطلل بآثار الوشم في ظاهر اليد لم يكن بعيدًا عن فكرة الطلل كأثر

---

(٦) ينظر مقدمة ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة، دار المعارف. ط. الثانية ١٩٦١)، وينظر مثلاً لأبي هلال العسكري كتاب الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة (بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) ص٥١٣، وينظر ابن رشيق العمدة ج/١ ص١٥٨، وينظر ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون (بيروت، دار الهلال ط. الرابعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص٥٧١.

(٧) ينظر مثلاً حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠م) ، وينظر حسن البنا عز الدين، الكلمات والأشياء: التحليل البنيوي لقصيدة الأطلال في الشعر الجاهلي (بيروت، دار المنهال ط. الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) ، وينظر شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام (بيروت، دار العلم للملايين ط. الخامسة) ، وينظر أحمد الحوفي، الغزل في العصر الجاهلي (القاهرة، دار نهضة مصر. ط. الثالثة) وينظر سعد حسن كموني، الطلل في النص العربي: دراسة في الظاهرة الطللية مظهرًا للرؤية العربية (بيروت دار المنتخب العربي ط. الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) . وينظر مصطفى عبد الواحد، الوقوف على الأطلال بين شعراء الجاهلية والإسلام حتى القرن الخامس الهجري (مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي ط. الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م)

أو ندبة في الذاكرة والروح. فالطلل هو النص والأثر الإبداعي، وهو ما تشخصه الروح على تضاريس القول واللغة.

وهذه الدراسة موضوعها نص قصيدة الدكتور عبدالرحمن السماعيل المعنونة (حديث الأماكن القديمة) ونص القصيدة التي عارضه بها أحمد الصالح (مسافر) المعنونة (أجمل الحب) . والقصد هنا هو الوقوف عند طبيعة الحوار بين النصين، وطبيعة حضور الطلل وصوره، وكيفية بناء النصين، وذلك بهدف الكشف عن المسافة بين النصين والطللين.

الطلل والزمن:

إننا ونحن نتأمل الطلل بوصفه رمزًا مكانيًا مغرقًا في ماديته نراه وهو يتحول في الشعر إلى رمز زمني، ولعل مسحة القِدَمْ وارتباطه بالعمر الذي مضى تحوله تدريجيًا في اللاوعي إلى ما يشبه المزار الداخلي، المزار الإجباري الذي هو الذكرى.

والملاحظ أنه حينما ترد تيمة الطلل أو الأماكن القديمة فإنها تأتي بصحبة الذكرى والتذكر، أو بعبارة أدق، تأتي بمعية دفع تهمة النسيان لتأكيد بقاء الديار في الوجدان. وذلك يشير إلى عمق تأثير المكان، وإلى محاولة الشاعر تقديم أدلة هذا التأثير العميق، وأدلة وفائه لهذه الأماكن وللذكريات التي عاشها فيها.

إذًا نحن في مواجهة ثنائيتين: الأولى البناء المتماسك يقابله الطلل المتهدم. والثانية: البناء المتماسك الذي هو

الوفاء والتذكر مقابل الطلل المعنوي المتهدم وهو النسيان أو الذاكرة التي تنسى وتخور وتضعف.

من هنا، من هاتين الثنائيتين: البناء/ الطلل، والذاكرة/ النسيان، فإننا حينما نتأمل الطلل المتهدم، وما يصاحبه من اضمحلال وتغير، نلمح ارتباطه بفكرة التحول التي تمثل الوجه الآخر للذاكرة التي تخون فتصبح نسيانًا. النسيان اضمحلال وتحول وتغير نحو النقيض، نقيض التذكر. إن الذاكرة مستودعنا أو الخزانة الداخلية التي نحتفظ فيها بكل ما يعنينا ويهمنا، وبكل ما هو عزيز وثمين. فما يعتري الذاكرة من نسيان وتغير خيانة، وهي خيانة من قبلنا بالضرورة، وهي تمثل وجهًا من وجوه الذات. ولذلك إذا كنا نتأمل الطلل بهذه النغمة الحدادية فذلك يعني أننا ندافع عن الانحلال والنسيان.

إن الشاعر في حديثه وتمسحه بالطلل يدافع عن ذاته التي تتهدم، ويتحاور معها، ويتأملها، ولكنه في الغالب تأمل حزن وألم، وليس حديث محبة وتسامح. إن الصلابة التي نتعامل بها مع فكرة الذي يجب ألا يتغير (البناء المتماسك) فكرة تقليدية حتى في التعامل مع الذات، ولذلك يمسي الطلل والنسيان وما يجري بينهما من تصادٍ مجرد حديث يغطي الأزمة الحقيقية، وهي مواجهة الذاتٍ لذاتها في مسألة الزمن أو العمر الذي ينحل وينصرم!! وكلما كانت فكرة العمر الذي ينقضي مع التغير الضروري فكرة متصالحًا معها كان التعامل مع الطلل أكثر تعاطفًا وتقبلاً وليونة! وكلما كانت

فكرة العمر الذي ينقضي فكرة مخيفة أو مرفوضة يظهر الإنكار والرفض في التعامل مع الطلل، وتظهر الإشاحة عن رؤية ما اعتراه من تغير. إن الإشاحة عن رؤية الطلل إشاحة عن رؤية الذات في المرآة القاتمة القصية التي تبادر بسرعة لصفِّ التماثلات والتوازيات. فالمواجهة الصادمة تستلزم الإنكار السريع والقسوة.

الطلل/ البناء النصي وأزمة الصور:

ولعل أبرز ما يمكن أن نلاحظه في قصائد الطلل أنها لا تتحدث عن الطلل، ولكن تتحدث عن الأثر الذي له، أي أنها لا تتحدث عن الصور والذكريات والأحداث التي انطبعت في الذاكرة، وإنما عما بقي منها، أي عن أثر الانطباع الباقي!! فالحديث عن الطلل محاولة لاستعادة صور وأحداث، وليست استعادة فعلية.

وأود في هذا السياق أن أشير إلى أن عددًا من دارسي علم النفس حاولوا استكشاف العمليات العقلية التي تتم في الدماغ وقنوات الإدراك للكشف عن طريقة عمل الذاكرة واعتلالاتها. وقد حاولوا استخدام النتائج والفرضيات التي خرجوا بها لدراسة مشكلات فقدان القدرة على الكلام، حتى إنه يمكن النظر إلى أن فقدان الذاكرة كمرض يمكن أن يوازي عصبيًا ومرضيًا فقدان القدرة على الكلام، على اعتبار "أن الاضطرابات الناجمة عن العجز عن التعرف إلى الأشياء والرموز - فقد الصور - هي من المستوى ذاته على اعتبار أنهم يتصورون أن فقدان القدرة المحركة على

الكلام وحالات فقدان القدرة على الكلام الخاصة بمركز الحواس في الدماغ هي من النوع نفسه. واقترحوا، من جهة أخرى، فكرة مفادها أن الذاكرة، كالعادات الحركية، تشق لنفسها في الأعصاب طريقًا، وتحدث تغييرًا في العوامل العضوية"(٨).

فإذا كانت الذاكرة في حالة استرجاع أحداث الأماكن القديمة تعتمد على تذكر صور ومواقف فإن العامل الحاسم هنا في الذكرى هو استرجاع الصور. والشاعر في عمل القصيدة (القدرة على الكلام) يعتمد على المخيلة وخزانة الصور، وهو محاصر بالماضي، أي بتاريخ الصور. إن بصْمَته تكمن في أن يجد له خيطًا أو سلسلة صور جديدة غضة وغير مهترئة. ومن هنا يمكن أن نلمح التشابك بين البناء الطللي والبناء النصي للقصيدة التي تبذل جهدها لتتجاوز أزمة الصور والتصوير، أزمة الأثر والانطباع أو الخلق من جديد مع مادة التشكيل، التي هي زمنيًا قديمة ومتهالكة!!

موضوع الذكرى وأثر باعثها على نوعية الصور:

حسب مقولة هوسرل Husserl يتم التساؤل في الذكرى عن موضوع الذاكرة وليس باعثها الذاتي(٩). وكون الإنسان يملك ذاكرة فذلك يعني - حسب ريكور Ricoeur - أنه يملك

---

(٨) جان كلود فيو، الذاكرة. ترجمة جورج يونس (دار المنشورات العربية، المطبعة البولسية ١٩٧٧م) ص ١٢١.

(٩) مسارات فلسفية، ترجمة محمد ميلاد (سوريا، دار الحوار ط. الأولى ٢٠٠٤م) ص ١٨٥.

هوية تتغير مع الزمن يسميها الهوية السردية، أي هوية قائمة في التغيير[١٠].

ولو اعتمدت - مدخلاً للحديث هنا عن ذكريات النصين: نص قصيدة السماعيل ونص قصيدة الصالح - على رأي هوسرل حول الذكرى - الذي يقول فيه: إن المهم فيها هو التساؤل عن موضوعها وليس باعثها الذاتي، وهو ما سيمثل فارقًا في طبيعة الاستيهام والصورة[١١] - فإننا سنلحظ في نص السماعيل أن لا أثر لعدوان التاريخ، فقد بقي الطلل متماسكًا وماثلاً، وعودل برموز خصوبية: الأم، والبئر المليئة بالماء. أما عند الصالح فالذكرى والطلل رمز لجرح متسع منفتح، فالذي كان رمز فرح تحول، مع طول العهد ومرارة الفقد، إلى رمز لجرح منفتح، يحيل الآن إلى آلام يتوارى الشاعر عنها؛ لأنها تذكره بالحاضر المتهدم المنهار. السماعيل ظل قادرًا على أن يبقي الذكريات بجمالها، وهي لا تؤلمه، بل تطبب ما انجرح من العمر، فتلك الأماكن القديمة صارت أشبه بواحة للسماعيل لا ينافسها الحاضر ولا تزحزحه عن

(١٠) بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة جورج زيناتي (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ط. الأولى ٢٠٠٥م) ينظر الدراسة الخامسة بعنوان: الهوية الشخصية والهوية السردية ص ٢٤٩، والدراسة السادسة بعنوان: الذات والهوية السردية ص ٢٩٣، وعن علاقة الهوية السردية بديالكتيك المتغير ينظر ص ٣٠٥-٣٠٦ من الكتاب نفسه، وينظر بول ريكور الهوية السردية ضمن كتاب: الوجود والزمان والسرد. ترجمة سعيد الغانمي (بيروت، المركز الثقافي العربي ط. الأولى ١٩٩٩م) ص٢٥١-٢٦٥. وينظر كذلك مسارات فلسفية ص١٨٦.

(١١) مسارات فلسفية ص ١٨٥.

مكانه. أما الصالح فالمسألة عنده مسألة عدوان، الحاضر اعتدى على الماضي وانتهى، ولم يعد بالإمكان أن يتصاحبا أو يتجاورا، فذاك بأزهاره وعنفوانه وهذا بتهدمه وحطامه. إن تقابل الاثنين ومواجهتهما تؤلم المخيلة، ولا يحتملها الإحساس؛ لذلك يطالب الصالح صاحبه بالكف والسكوت.

قد نسأل عن السبب في هذا الفارق، وقد نجده في الفروقات الفردية للشخصيتين. ولكن أيضًا من المحتمل أيضًا أن بواعث الذكرى، لا مضامينها، هي التي أدت إلى هذا الفارق بين شاعر يستوقف صاحبته، ويسعد بالذكرى والطلل، وشاعر يتوجع، وينهر صاحبه، ويطالبه بالكف، ويشيح بوجهه عن الذكرى والطلل، ويستحثه على الإسراع والمضي عدوًا إلى ملاذ لا حلم فيه. أقول لعل الباعث هو السبب؛ فقصيدة السماعيل وقفة متعمدة قاصدة إلى مكان قديم حميم، والقصد يمنح الإحساس فرصة الترفق والهدوء، وربما الاستمتاع والتلذذ بالذكرى والبحث عما بقي وعما ضاع. أما الصالح فقد فاجأه صاحبه بالقصيدة، وأدخله عنوة ودونما استئذان إلى حالة تذكر جبرية. فالإحساس يُصدم فجأة بما يهوله من كم مقارنات بين ما كان وما آلت إليه الأحوال. إن كم التفجع في نص الصالح يكشف عن تعرّفٍ درامي لذكرى حية، ولكن كانت هاجعة تحت قشرة خفيفة من السهو المتعمد، فجاء صاحبه (السماعيل) وأيقظ (ألف شاردة) .

إذًا موضوع الذكرى وباعثها معًا شكّلا فارقًا آخر في طبيعة الصورة، فرأينا المجازات المتحلقة حول طلل السماعيل

مجازات ذات سمات خصوبية إحيائية مشرقة. ولكن المجازات المتحلقة حول طلل الصالح - الذي هو طلل السماعيل نفسه، وهذه مفارقة، فهما يتحدثان عن مكان واحد يخصهما معًا (المسهرية) حارة الطفولة والصبا المشترك - تتحلق حوله صور متراخية منهارة، ومع أنه تحيط بها، من بعيد، إلماحات إلى الحياة السعيدة السالفة إلا أن عين الوعي الحاضر تكللها بالدمع والحزن والتهدم والكآبة.

وهذا أمر متوقع؛ فالذي حدث أن السماعيل جاءت إليه الذكرى وهو يمر بالأماكن القديمة، وراحت تحدثه الذكرى/ الطللِ (لاحظ أن عنوان القصيدة هو حديث الأماكن القديمة) حديثًا غمره بحالة من الرضا والسعادة والارتماء في حضن حميم (البئر/ الأم) . أما الصالح فقد فُرض عليه التذكر فرضًا؛ حيث جره السماعيل إلى المكان/ الذاكرة، وهذا ما يذكر بقول بروست Proust: "الذكريات الأكثر إسعادًا ونبلاً بالنسبة إلينا هي تلك التي تأتينا دون أن نريد ذلك"[١٢]. أو كما يذهب برغسون Bergson حول ما يسميه الوعي الحالم، إذ يجب الخروج من الانشغال بالفعل، ويجب أن تتوقف رغبة التأثير في الأشياء لكي يتاح للذكرى المجيء في الوعي الحالم[١٣].

(١٢) مسارات فلسفية ص١٨٧.

(١٣) مسارات فلسفية ص١٨٧.

الهوية السردية والبنائية:

١ - الهوية السردية في مرآة الطلل/ الذاكرة:

المفارقة الطللية تقوم على فضح التغير الذي يلحق الأشياء والكائنات، فالماثل منها والحاضر منها يحيل إلى غياب فادح، فحاضرها المنكمش في صورة طلل يقاوم آثار الزمن، ويكشف عن مماهاة بالذات الحاضرة للشاعرين التي تتماسك كل منهما إزاء رؤية الذات في مرآة الغياب. الطلل هوية لا تتعلق بالمادي المتعين فحسب، وإنما هي هوية داخلية أيضًا. وتشبه هذه الهوية ما سماه ريكور الهوية السردية[١٤]، فكون الإنسان يملك ذاكرة فذلك يعني أن ثمة هوية تتغير مع الزمن. وهذا التغير هو الذي تقوم المفارقة الطللية بقصه من خلال الاستعادة والربط بين الماضي والحاضر. الوقفة الطللية وقفة حدّية، أو توهم بأنها كذلك. على حين أن الذات والنص يكشفان عن تداخل الزمن المعقد في الذكرى؛ فاللحظة الحاضرة، أو ألمها تحديدًا، هو ما يدفع الذات للغوص واستدناء الماضي الغض بذكرياته السعيدة. الطلل النصي شكلاً يقول شيئًا يتناقض مع معناه الأعمق. أو بعبارة أخرى صوت الشاعر يحاول أن يصرخ في خواء التمثال وفراغه؛ علّه يبعث فيه نعمة الحياة التي هدمته!! وهنا حينما يتردد الصدى في خراب الطلل/ العمر الذي تقيم القصيدة حدادها عليه تتطابق اللحظة الحدية الواهمة؛ فيمسي العمر هو الطلل، هو النص؛ و تعود الذكرى إلى رشدها لتتعرف أنها

---

(١٤) مسارات فلسفية ص١٨٦.

تتأمل تمثالا قصيًا هدمته يد الأيام عند الصالح، واحتضنته يد الأم وبركتها في نص السماعيل. وفي كلا الحالين يحمل الطلل الحقيقي والشخصي الماثل معنى التهدم، أما الطلل المجازي القار في الذكرى فليس طللاً، إنه التمثال الذي لا يتهدم، والذي تعيد القصيدتان استرجاعه من خلال تمثالهما النصي الماثل في البناء الشكلي للقصيدتين. والمفارقة الطريفة أن نص السماعيل - وهو الأصغر سنًا - يبدو من حيث مضمون الذكرى أكثر شبابًا، ونصه كذلك أقصر، على الرغم من أنه كان متوقعًا أن صورة الأم المتوفاة تستدعي إلى الذهن صورًا كئيبة وهرمة. أما الصالح الأكبر سنًا، والمحتشد بذكرى متهدمة حزينة، فنصه أطول، على الرغم من أنه استدعى صور المحبوبة الشابة.

الهوية:

وكان بدهيًا أن الهوية السردية للنص - نص الصالح - ستكون أطول، وفي الوقت نفسه احتاجت أن تستعير من هوية نص السماعيل ما يتعلق بالبناء والقوافي، فاستعار اثنتي عشرة قافية من قوافي السماعيل. على حين أن نوعية الصور التي استندت إلى نوعية الذكرى انعطف بها الصالح في وجهة مفارقة لوجهة السماعيل، حيث انعطف بها - كما أسلفت - نحو تكريس معاني الضعف والتغير والتهدم. وهذا ألقى بظله على صور الصالح التي بدت متهاوية هي الأخرى، في مقابل صور السماعيل وبناء نصه الأكثر قوة وشبابًا !!

السماعيل بدأ في قصيدته باستيقاف صاحبته، ولكنها بقيت على مسافة من الطلل؛ فالطلل ليس ممتزجًا بها بوصفها صاحبة أو حبيبة، لأنه ممتزج بالمرأة الأم. أما عند الصالح فالطلل ممتزج بصورة المرأة الحبيبة؛ وهذا ما جعله يحرف مسار الطلل، ويغير عنوان قصيدة السماعيل لتصبح "أجمل الحب". ومع أن الأم، التي هي أساس الخصب والسكينة، وصورتها الأقرب إلى الزوال بحكم التقدم في السن والأسبقية إلى الموت، والمتوقع أنها صورة ستفضي إلى معاني الحزن والفقد في النص، إلا أن حضورها في نص السماعيل مختلف، فقد نفذ بها إلى المعاني الوجودية الأعمق؛ حيث الأم الكونية أصل الحياة وعلامة استمرارها. أما الصالح الذي ضمّن صورة المرأة/ الحبيبة - وهو المعنى المناقض لصورة الأم والشيخوخة والأقرب إلى معنى الحياة الفرحة - فلم ينجح في الخلاص من صورة الاضمحلال والعدم، فنصه يرزح تحت وطأة التحسر والحزن، فيما تحس بالوداعة والرهافة في نص السماعيل، إذ يرتمي في حضن الأم/ الذكرى حتى وإن كانت غائبة وفي ذمة الله. وذلك ما يعمق المعنى الثابت لموقع الأم وصورتها التي لا يمكن أن يلحقها التغير، على حين قد تتعرض صورة المرأة الحبيبة لعوامل التبدل والتحول وقد تبهت بمرور الأيام. ولعل هذا الفارق يفسر لماذا بدا طلل السماعيل قويًا خصبًا متماسكًا وطلل الصالح متهدمًا مرت عليه يد الدهر الحاكمة!!

ولعل تلازم معنى القدم والعراقة مع صورة الأم هو الذي جعل المرور بالأماكن القديمة يستدعي صورة الأم تحديدًا،

ويستدعي أن يكون حديث القصيدة يأخذ - على قصره - سمة العمق والسكينة والدفء والوقار، التي هي سمات أمومية قد أثرت شكليًا على بنية نص السماعيل من حيث الطول ومن حيث الدلالات المريحة المشعة من داخل الأبيات المتدفقة.

أما في نص الصالح، فلأن الصورة التي لابست صورة الأماكن القديمة كانت صورة الحبيبة فقد أدى ذلك إلى انعطاف العنوان أولاً ليصبح "أجمل الحب"، ثم امتد التأثير إلى طول النص فصار أطول بكثير من النص المعارض(١٥)، ثم راحت القصيدة تتبدد في متابعة صور الذكريات مبعثرة هنا وهناك، لتجمع الأهل والجيران والأطفال الصغار إلى جوار صورة امرأة مبهمة كانت هناك.

٢- الهوية البنائية: كسر السماعيل للنمط وارتداد الصالح إليه:

أ - ملامح كسر تقاليد الوقوف على الطلل في قصيدة السماعيل:

نلاحظ في قصيدة السماعيل سمات ومظاهر لكسر نمطية بنية الوقوف على الطلل فقد:

١ - استوقف الصاحبة وليس الصاحب.

٢ - الطلول هنا طلول العمر الذي انجرح والحلم الذي انسفح، على الرغم من أنهما (العمر والحلم) ماثلان واقفان بين الطلول.

(١٥) عدد أبيات قصيدة السماعيل أربعة عشر بيتًا وطول قصيدة الصالح اثنان وعشرون بيتًا.

٣ - ثمة طلول داخلية، رمزها الماثل المادي الخارجي المتهاوي المغبرّ المتهدم يقابله وجه آخر: الطلل الداخلي الحي النابض الساري في الأوردة، تلك الأماكن التي تخفي بئرًا لم يجف ماؤها!!

٤ - هذا المعنى أعلاه (رقم ثلاثة) هو كسر متعمد لصورة الطلل السائدة في القصيدة القديمة، فالري والمطر ري وارتواء داخلي، وليس استمطارًا من السماء. سماء الشاعر الداخلية مورقة خصبة حفظت طلله مورقًا جميلاً غضًا فتيًا، بل طفلاً يغرد في كونه الذي تفتح للتو في النص، وهذا ما يربط البئر بالأم، ويجعل الشاعر يستدعيها. فالعودة (في الطلل) إلى الأم عودة إلى الرحم و إلى سلام الجنين ودفء الماء الأول. وفي استحضار الأم مع الطلل كسر متعمد آخر للنمطية السائدة التي ربطت الطلل بالحبيبة. ولذلك حينما يفلت الشاعر يد صاحبته عدوًا إلى الأم سنلحظ تحولاً آخر ينتقل فيه من الأم إلى القصيدة: الأم الكبرى التي يحتاج يده ليكتبها، وهذا ما جعله يسمي قصيدته (حديث الأماكن القديمة) . ونسبة الحديث إلى الأماكن القديمة كسر آخر لنمطية الطلل الأعجم، فالأماكن القديمة/ الأطلال تتحدث، تقول قصيدتها، إنها ليست عجماء بكماء ميتة. يد الشعر ترسل دلاءها إلى البئر الداخلية، إلى الذاكرة الموشومة بالطلل الغض في الزمن البعيد العتيق، زمن الشعر والبكارة، لتصعد بها على بكرة القول، وتصب ماءها ودلالاتها وحمولاتها الترميزية.

ب - ملامح النكوص أو المعارضة في قصيدة الصالح:

إن الصالح، وهو يعارض قصيدة صديقه، يتعمد أن يعيده إلى جو الطلل التقليدي، فيبدأ بتوجيه خطابه إليه بوصفه صاحبًا، وهو المنادى في التقاليد الطللية، ثم يستدعي الذكرى، ولكن على هيئة خطاب إلى طلل مكاني مادي ماثل، وخطاب إلى زمن مضى وانقضى، ولم يعد له وجود (لمثل هذا الزمان الخصب) . نعم هو مازال حيًا بالقلب، ولكن وقائع الحياة الحالية تجعله يتحول، ويصبح مجرد منزل كان وزمان جميل مرت عليه يد التجديد التي جعلته يميد وينهد منطرحًا، وبات الشاعر يخشى على الذكريات البيض من يده، يد الشاعر التي تكتب قصيدته الرثائية للطلل الذي تحوله يد الشاعر إلى جرح يستحق أن يُغطى لا أن ينكأ !!

الطلل هنا يعود منهدًا وجريحًا وكابيًا. يترسخ في مكانيته، و يُهيل الشاعر عليه التراب والغبار، فتمسي قصيدته رجعًا في الطلل. وإذا كانت القصيدة الطللية - إجمالاً - صوتًا يتردد أو صدى يرجع إلى الشاعر مرة أخرى، فالقصيدة هنا رجع صدى لصدى، ولذلك من الطبيعي أن يبهت الطلل فيها وينهار إلى الحد الذي لم يعد بإمكان الشاعر تداركه أو احتماله، حتى يصل الحال بالشاعر إلى الاستغاثة بصاحبه:

يا شاعري استيقظت بي ألف شاردة

لا تنكأ الجرح ما عاد المساء ضحى

ألف شاردة تستيقظ وتنكأ الجرح، لكنها لا تتماسك أمام طلل مرت عليه يد التجديد الجائرة، تلك اليد التي تستبد،

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ السنة الخامسة والثلاثون
الدارة

وتعلو فوق يد الشاعر. وقد جاء تتالي اليدين في بيتين متلاحقين بارعًا:

مرت عليه يد التجديد جائرة
فماد من جزع وانهد منطرحًا
يخشى على الذكريات البيض من يده
وهو الذي في الوفا ما خان أو جنحا(١٦)

إن اليد التي يُخشى على الذكريات البيض منها ليست سوى يده التي ترتعش أمام يد التجديد في بناء القصيدة الذي كان متماسكًا، وراح ينهد منطرحًا. أليست الخاتمة التي أنهى بها السماعيل قصيدته وهو يفلت يد صاحبته ليعدو في فضاء القصيدة شبيهة إلى حد كبير بهذه اليد، التي بدلاً من أن يبسطها الشاعر الصالح إلى النص، يكفها عنه عزوفًا عن بناء يخشى أن يمس ذكرياته البيض؟ ترى هل يقاوم هنا الصالح هواجس التجديد الشعري وقد التبست بذكريات الصبا الغض غضاضة القصيدة التي يجب ألا تمسي طللاً أبدًا؟

إنها الشعلة التي تتناقل منذ القديم وعليها ألا تخبو، وعلى بنيتها ألا تتهدم أبدًا؛ ولذا يتورع (الصالح) من أن يمس هواجس تتعلق بعراقتها ونقائها الأبيض!!

---

(١٦) ينظر قصيدة الشاعر مسافر في الملحق آخر البحث.

الملاحق

١ - حديث الأماكن القديمة

د. عبدالرحمن السماعيل

قفي أحدثك عن عمري الذي انجرحا
بين الطلول، وعن حلمي الذي انسفحا
هـذي الطـلـول لهـــا نـبض بأوردتـي
عطـر الطفـولة من أفـيـائهـا نفـحـا
في كل زاويـة عــــمــــر وذاكـــرة
وألف سـر على الجدران ما افتـضحا
تـعـال أسـمـعك خطواتي، فـمـا برحت
هنا مـغــــردةً، والقـلب مـا برحـــا
أتســمـعين؟ هنا نبـضــات ســاريةٍ
تحت الركـام، وبئـر بعـد مـا نـزحـا
ألا تـرين؟ فــــذاك الطفل كـــان أنا
و فـرحـة العـمـر في عـينيـه إذ نجـحـا
هـذي الأزقـــة كـــانت كل خــــارطتي
وكـانت الكـون في عـيـني منفـتـحـا
قــفي فـديتك، هذا البـيت يعـرفني
وذلك البـاب بعـدي قط مـا انفـتـحـا
أكـــاد ألمح أمي فـــيــــه جـــالســـةً
تجلو بشـاشتـها شـمس الشـتـاء ضحى

دعي يدي، فهذي ريحها عبقت
بين الطلول، وهذا صوتها صدحا
أحسها في دمي شلال عاطفةٍ
يكاد يحملني شوقي لها فرحا
طال المدى بيننا والشوق يحرقني
إلى لقاها، دعيني، علّه سنحا
ضاقت بكل هموم العمر دائرتي
وصدر أمي مداه الكون منفسحا
فقدته، ففقدت العمر مبتسمًا
أفدي ثراها بعمر بعدها كلحا(١٧)

٢ - أجمل الحب

أحمد صالح الصالح

لأجمل الحب هذا القلب ما برحا
يهزه الشوق للعشق الذي انجرحا
هناك تسكن ذكرى كم ترشفها
في المهد.. وهو بها ما زال مصطبحا
عمر تضوع به الذكرى تعهدها
في "المسهرية" طفل شب فانتزحا
مرت يداه على جدرانها زمنًا
كأنما ينقش الحب الذي اجترحا

---

(١٧) المجلة العربية، عدد صفر ١٤٢١هـ، العدد رقم ٢٧٧.

وكم تنـاءت خطاه وهـي مــشــفــقــة
أن يهـجـر الأرض والأحبـاب والقـدحـا
ومنـزلاً عــاش فـي أحـضـانه عـمـرًا
ونـخلة هـزهـا فــاسـاقطت بلحــا
وأن يفـــارق حــيًّــا كـــان يسكنه
وجـيـرة وصلهم مـا شح أو قـبـحـا
لمثل هذا الزمـان الخـصب كم ذرفت
دمـوعـه لوعـة فـانهل منسـفـحـا
يا شـاعـري رجع ذكـراك التي خطرت
أحـيت بقلبي زمـانًا بعـد مـا برحـا
أحــيت ثوانيـــه دقـــات ينوء بهـــا
قلب أحب وفـيهـا القـرب مـا سـمحـا
ألقت إليـه عـيـون الشـوق صـبـوتهـا
فـأشـرق الحب في وجـدانه فـرحـا
وعــاش عـهـد الصـبـا حـينًا تدلله
تلك الأمـاني، وحـينًا وجـهـهـا كلحـا
طوى على أعـــذب الذكـــرى تجلده
ومـــا تزال على طول النوى ملحــا
ومـــا تزال حـــديثًـــا في دفـــاتره
قـصـائدا كم على مـوالهـا صـدحـا
رفـقًــا حنانيك قـد أيقظت ذاكـرة
مـرت على حلم في العـمـر قـد سنحـا

تنازعـــتنا "أبا شـــادي" مـــواجـــعنا
الجـرح لا زال في الأعـمـاق منفـتـحـا
والقلب لا زالت الفـيـــحـــا تتـيـــمـــه
ألم تكن لجـمـيع الحب مـفـتـتـحـا
لا زال يـذكــر طفـــلاً في أزقـــتــهـــا
يرى الحــيـاة نعـيـمًـا مـا رأت تـرحـا
في كل شـــبـــر له ذكــرى يهـيم بهـا
ومنزل كـــان بالإيمان مـــتـــشـــحـــا
مـــرت عليـــه يد التـــجـــديد جـــائرة
فـــمـــاد من جـــزع وانهـــد منطـرحـا
يخشى على الذكريات البـيض من يده
وهو الذي في الوفا مـا خـان أو جنحـا
يا شـاعري استيقظت بي ألف شـاردة
لا تنكأ الجرح ما عاد المساء ضحى(١٨)

(١٨) المجلة العربية، عدد ربيع الأول ١٤٢١هـ، العدد ٢٧٨.

الرحالة الفنلنديون إلى الشرق العربي

كاي أورنبري(*)

ترجمة: يسري يوسف

فتح عصر الاكتشافات العظمى للأوروبيين العالم، وكشف لهم تنوع الأجناس البشرية، هكذا تعلمنا ولكن هل هذه هي الحقيقة؟ في الواقع، إن أوروبا قد انغلقت على نفسها واكتفت ذاتيا في عصر النهضة بالحضارة اليونانية الرومانية، مع تحقيق نتائج جيدة، ولم تهتم بالحضارات العالمية الأخرى. هذا وقد اهتم التجار والمغامرون والكنيسة بالمناطق الجديدة لأسباب مختلفة ولكن حضارة هذه المناطق لم تمثل أهمية كبيرة بالنسبة لهم. وعلى الرغم من أن أدب الرحلة أصبح من أهم مجالات الأدب بعد القرن الخامس عشر، إلا أن الجزء الأعظم من الرحلات حتى بداية القرن التاسع عشر لم يتعد شرق البحر الأدرياتي.

وقد احتاج الناس إلى ما يُسمى بعصر النهضة الشرقية التي بدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لاكتشاف الأجزاء الأخرى من العالم، ونتيجة لذلك تعرّف الأوروبيون على الكتابة السنسكريتية وأدبها، وبعد ذلك على

(*) أستاذ الدراسات العربية والإسلامية في معهد الدراسات العربية والإسلامية في جامعة هلسنكي، فنلندا.

اللغات والحضارات الأخرى التي لم يكن لها علاقة بالكتاب المقدس ولا بالآثار القديمة. وقد قدم العصر الرومانسي في بداية نموه في أوروبا فرصة عظيمة لعلم اللغات للبحث والتعرف على اللغات الأخرى، وقد نتج عن ذلك الاهتمام بتاريخ البلاد الأخرى.

تعتمد النهضة الشرقية إلى حد كبير على موضوع نشأة الحضارات، وقد تساءل روسّو في عام ١٧٤٩م (١١٦٢هـ): هل جلب التقدم العلمي والأدبي للإنسان السعادة والفضيلة؟ وأجاب بنفسه عن هذا السؤال فقال: إن التقدم الحضاري الذي حدث أفقد الإنسان براءة العادات القديمة وكذلك السعادة الناتجة عن العيش بالفطرة. وقال كذلك: إن التقدم الاقتصادي كان في الماضي وليس في المستقبل[١]. وتعد الهند دليلاً جيداً على ذلك فقد كانت بلد العراة الحكماء. ولذلك تعد تسمية الهنود الحمر بهذا الاسم مناسبة، على الرغم من أنه نتج عن سوء تفاهم فقد عمل اليسوعيون على ترسيخ فكرة أن يصبح الهنود الحمر رمزاً للأشخاص غير المتحضرين.

وتعد اللغة العربية من أغنى اللغات في العالم، ولكنها في الوقت نفسه من أصعب اللغات. وكان بعض الباحثين لوقت طويل يرى أن بدو شبه الجزيرة العربية هم أفضل حافظي اللغة العربية؛ ولهذا فليس من الغريب أن نعرف أن الشعراء وعلماء النحو قد درسوا ونقلوا اللغة عن البدو

---

(1) Jean-Jacques Rousseau, Discours Sur les Sciences et les arts, 1750.

في القرون الأولى للإسلام، وللسبب نفسه أيضا أرسل الخلفاء الأمويون والعباسيون أولادهم وأتباعهم إلى الصحراء. وقد منع الخليفة عبدالملك ٦٨٥-٧٠٥م (٦٥-٨٦هـ) ابنه وخليفته في الحكم الوليد الأول من تعيينه في المدينتين المقدستين مكة والمدينة واليًا بسبب ضعف مستواه في اللغة العربية.

من جهة أخرى، قدم العديد من الباحثين الشبان من بلاد الشمال البعيدة - التي كان يعدها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى إلى حد كبير مناطق خالية من السكان - في القرن الثامن عشر إلى صحراء الجزيرة العربية لتحسين لغتهم العربية عند البدو. ولدراسة هذه اللغة بدأ الرحالة الفنلنديون رحلاتهم إلى الجزيرة العربية.

الرحالة جورج أوغست والن:

حصل جورج أوغست والن على درجة الماجستير في الآداب من جامعة هلسنكي في عام ١٨٣٦م (١٢٥٢هـ)، وكان موضوع دراسته اللغات الشرقية والكلاسيكية. ولسنا نعرف السبب الذي جعل والن يتعمق في دراسة اللغات الشرقية. فقد كان خلال دراسته طالبًا عاديًا لم يلفت نظر مدرسيه ولا زملائه الطلاب في دراسته، ومع مرور الوقت درس والن أشياء كثيرة متشعبة، ولكنه لم يتخصص في أي موضوع. وفيما يبدو أن الأستاذ جبريل غيتلين الذي عُيّن أستاذًا للأدب الشرقي في عام ١٨٣٥م (١٢٥١هـ)، هو الذي أثّر تأثيرًا واضحًا فيه، فقد تخصص والن بعد ذلك في دراسة اللغتين العربية والفارسية،

وفي عام ١٨٣٩م (١٢٥٤هـ) تناول والن في رسالته للدكتوراه الفرق بين العربية الفصحى واللهجة العامية، وفي العام نفسه عُيّن محاضرًا للأدب الشرقي[٢].

كانت سانت بطرسبورغ من مراكز أوروبا الرائدة في الدراسات الشرقية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، وقد انتهز العديد من المستشرقين الفنلنديين هذه الفرصة التي قدمتها لهم هذه المدينة للحصول على تعليم أفضل. كان والن واحدًا من هؤلاء فقد سافر إلى سانت بطرسبورغ في خريف عام ١٨٤٠م (١٢٥٥هـ) وكانت نيته أن يتابع الدراسة في الجامعة وفي معهد اللغات الشرقية. ومن الغريب أنه كان قد زار المدينة في بداية الربيع من ذلك العام للتعرف على إمكانية التحاقه بالخدمة في السلك الدبلوماسي الروسي. لماذا؟ لا نعرف السبب. المهم أنه اتخذ قرارًا بالعودة إلى سانت بطرسبورغ للدراسة في ذلك الوقت.

واهتم والن باللهجة العامية خلال دراسته ولم يكن شغوفًا بالدراسات النظرية ولا البحث في المخطوطات القديمة. وليس هذا أمرًا غريبًا فقد أخبرتنا مصادر عديدة عن موهبة والن في تعلم اللغات الأجنبية والتحدث بها بسهولة.

وفي سانت بطرسبورغ تابع والن بصفة مستمرة محاضرات المستشرقين اللامعين في الجامعة والمعروفين في

---

(2) H. Holma, "Georg August Wallin (1811-1852)", Studia Orientalia, Vol.17: 1 (1952), pp. 4-6.

مجال الأدب، وهم سنكوفسكي، وباروني برامبوس، وبرنهارد دورن، وأنطون موهلينسيكي. ومنذ ذلك الحين أصبح المعهد الشرقي التابع لوزارة الخارجية هو عش الدراسة لوالن، وكان مدرسا المعهد محمد عياد الطنطاوي ١٨١٠-١٨٦١م (١٢٢٤-١٢٧٧هـ) مدرس اللغة العربية، وميرزا إسماعيل مدرس اللغة الفارسية، هما المشرفان على دراسة والن في المعهد وكذلك خارج المعهد. وكان للطنطاوي دور كبير في تشكيل حياة والن، فقد تطورت علاقتهما من علاقة طالب بأستاذه إلى علاقة صداقة دائمة، على غرار ما حدث في هلسنكي بين والن وأستاذه غيتلين(٣).

كان الطنطاوي الذي درس في الجامع الأزهر، قد دُعي إلى سانت بطرسبورغ للعمل بالمعهد الشرقي أستاذاً للغة العربية. وقد جذبت حكايات الطنطاوي في الجلسات المسائية انتباه والن، وشجعته على الذهاب بنفسه إلى البلاد العربية للتعرف على العرب والحضارة الإسلامية؛ ولذلك تقدم والن بطلب للحصول على منحة دراسية من جامعة هلسنكي عندما فتحت الجامعة الباب لذلك في خريف ١٨٤١م (١٢٥٦هـ)، وقد أوضح والن، في الملحق الخاص بخطة رحلته إلى البلاد العربية، القصور في دراسة لهجات العرب، ولتصحيح هذا الموقف فقد عزم والن على السفر إلى مصر وشبه الجزيرة العربية حسب الخطة الآتية: "... إلى

(3) Kaj Öhrnberg, "Wallin-aavikon Vaeltaja", in kerkko Hakulinen and Olavi Heikkinen, Suomalaist Aasian Kavigat (Helsinki: Kirjay Htyma, 1980), pp. 37-38.

مـصـر التي ترحب بالأوروبيين أكثـر من الدول الإسـلامـيـة الأخـرى، وفـيـها تتم دراسـة الأدب العـربي وعلم اللغـة بـجـدية إلى حـد مـا. عـلاوة على ذلك فـأنا أتحـدث اللهـجـة المصـرية أفضل من أي لهجة أخـرى. وسـوف أسـافر إلى القـاهـرة، بعـد بقائي بـالإسكندرية... ومنطقة الدلتا قرابة شـهر، لأتعلم فقه اللغـة العـربيـة على يد العلمـاء، وكـذلك لأتعـود على طـريقـة الدراسـة الشـرقيـة التي تخـتلف عن طريقـتنا. ومن القـاهـرة سـأتجـول في مـصـر عبـر النيل، وسـوف أتوغل في المناطق الداخليـة على ضـفـاف النـيل. وذلك للبـحث في هـذه المناطق عن لهجـات مـختلفـة أو آثار قـديمة تثيـر اهـتمـامي. بعـد ذلك سـوف أتـوجـه من أسـوان، التي أتمنى أن أصـل إليـهـا خـلال شـهـرين، إلى أقـرب مـيناء على البـحـر الأحـمـر ومن هناك سـأبـحـر إلى اليـمن. وسـوف أقـضـي فيـهـا نحـو سـتة أشـهـر، وهدفي من ذلك هو أن أكمل - حسب مقدرتي - المعلومات التي نقلها فرسنل عن اللغة الحميرية.

بعـد ذلك سـأسـلك طريق القـوافل إلـى مكة مع الانعطاف تجاه الشرق لكي أتابع مـراحل انصـهار اللغـة الحـميـرية في اللغـة العـربيـة. وأتمنى أن أكون في مكة وفي المناطق المحيطة خلال شهر. وأعتقـد أنني بعد هذه الجولة الطويلة سأكون قد تعلمت اللغـة العـربيـة والعـادات الإسـلامـيـة بقـدر كـافٍ مما سـيـجـعلني أتجـرأ على الذهـاب إلى صـحـراء شـبـه الجـزيرة العـربيـة دون خـوف بانكشـاف أنني أجنبي. حـينئـذ سـأقـوم بجمع معلومات عن لغة وتاريخ وجغرافية هذا البلد المجهول للأوروبيين حتى يومنا هذا.

من مكة سأذهب مع إحدى القوافل إلى الدرعية التي سوف أبقى فيها نحو شهر، وهناك سأزور اليمامة والعارض وبصفة عامة سأحاول التعايش مع سكانها؛ لكي أتعرف عليهم وعلى تعاليمهم الدينية. وسوف أذهب من الدرعية إلى القطيف أو إلى ميناء آخر على الخليج العربي ثم بعد ذلك إلى البصرة بحرًا أو برًا. وبعد بقائي هناك قليلاً من الوقت سأعود إلى الصحراء مع إحدى القوافل وسأتجه نحو المدينة، وعلى أي حال سوف أقضي بعض الوقت في العدوة.

بعد بقائي في المدينة نحو الشهر سأسلك طريق القوافل إلى فلسطين وبعد بقائي في القدس وفي هذه البلاد المعروفة سوف أذهب إلى أقرب ميناء على البحر الأبيض المتوسط لكي أبحر إلى إسطنبول. ولصعوبة تحديد أوقات رحلات الرحالة فلن أستطيع تحديد المدة التي ستستغرقها رحلتي في الصحراء..."(٤).

وضع والن لخطته ختامًا جميلاً، إذ أخذ على نفسه عهدًا أنه إذا تبقى مال من المنحة فسوف يسافر إلى قبائل التتار قبل عودته إلى بلاده، وهناك سوف يقوم بجمع معلومات لكشف درجة الصلة بين اللغة الفنلندية ولغة التتار. هذا وكان والن قد قدم مع طلب المنحة شهادات تزكية من مدرسيه، موهلينسكي أستاذ اللغة التركية بالجامعة، والطنطاوي المدرس بالمعهد الشرقي، فيها تقديرات ممتازة عن تقدمه في

(4) Kaj Öhrnberg, G. A. Wallin-Aavikon Vaeltaja, (Helsinki: Otava, 2007), pp. 51-52.

دراسته. وقال الطنطاوي: إن والن "قد وصل إلى مستوى مميز يجعله يقرأ ويكتب ويتكلم العربية بسهولة ويسر"(٥).

كانت خطة رحلة والن إلى الصحراء العربية، هي الخطة الأكثر جرأة من نوعها التي فكر "فيها فنلندي على الإطلاق"، وقد يكون هذا الكلام صحيحًا فعلاً. ومن الواضح أن والن أعد هذه الخطة بنية سليمة ودون تفكير دقيق، إذ كشفت هذه الخطة عن معلومات والن المتواضعة عن تاريخ شبه الجزيرة العربية وجغرافيتها ولغتها. لم يتمكن والن وهو في طريقه في رحلته أثناء توقفه في باريس من الحصول على كتب وصف رحلات بوركهارت "رحلات في شبه الجزيرة العربية" و"ملاحظات حول البدو والوهابيين"، وسافر إلى الصحراء دون أي كتب ترشده فيها.

كان بوركهارت قد سافر إلى الشرق قبل والن ببضع عقود، وذهب إلى مصر وسيناء وشبه الجزيرة العربية. وقد نجح والن على الأقل في الحصول على الكتاب الأول في القاهرة قبل سفره إلى شبه الجزيرة العربية بوقت كاف، إذ يمثل بوركهارت المثل الأعلى لوالن كرحالة وواصف لرحلاته. وقد قابل والن في القاهرة الألماني أدولف فون وريده الذي زار المناطق الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، وكذلك الفرنسي فولغينس فرسنل الذي كان يعمل قنصلاً في جدة، ولكن والن لم يستفد من هذه المقابلات في رحلاته.

(5) Ibid., p 53.

ما قبل والن:

مع أن والن هو أول مستشرق فنلندي يذهب إلى الشرق الأوسط، إلا أنه لسبب لا نعرفه لم يذكر شيئًا عن سابقيه. ففي عقد الستينيات من القرن الثامن عشر ذهب كل من بيتر فورسكال ١٧٣٢-١٧٦٣م (١١٤٤-١١٧٦هـ)، الذي عُرِفَ بكونه فيلسوفًا وعالمًا في الطبيعة، وفيلهيلم روس إلى الشرق الأوسط ولم يعودا من هناك. ونحن لا نعرف هل كان لهذين الاثنين أي تأثير في خطط والن في الذهاب إلى الشرق الأوسط. ففي نهاية القرن التاسع عشر ذكر آرثر هيلت أن روس كان سابقًا لوالن(٦)، وكذلك ذكر فيلهيلم لاغوس، الذي كان من تلاميذ والن في عام ١٨٣٥م (١٢٥١هـ) أن فورسكال كان المثل الأعلى لوالن(٧).

ولد بيتر فورسكال في هلسنكي ودرس في السويد وألمانيا وكان من تلاميذ لينّيه، وقد شارك فورسكال في الرحلة التي مولها ملك الدنمارك فريدريك الخامس إلى اليمن. كانت هذه الرحلة قد أبحرت في أول يناير ١٧٦١م (١١٧٤هـ) من كوبنهاغن إلى مصر عن طريق إسطنبول ووصلت مصر في شهر سبتمبر وقضت البعثة هناك عامًا، خلال هذا العام ركز فورسكال اهتمامه على اللغة العربية، التي كان قد درسها في غوتنغين (Gottingen). ووصلت معرفة فورسكال باللغة العربية إلى الدرجة التي جعلت كارستين نيبور (Carsten Niebuhr)،

(6) A. L. M. Hjelt, "Wilhelm Ross: Suomalainen Orientalist ja Matkustaja Viimvuosisodalla", Lansi-Suomi, IV, 1890, S.1-44.

(7) W. Lagus, Petter Forskals Lefverne (Helsingfors, 1877).

العضو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من بين كل أعضاء البعثة يذكر أن فورسكال كان الأكثر دراية بلهجات اللغة العربية من بينهم. بعد ذلك توجهت البعثة إلى اليمن في أكتوبر ١٧٦٢م (ربيع الأول ١١٧٦هـ)، وكان من المفروض أن تقضي البعثة هناك نحو سنتين أو ثلاثًا، ولكن فورسكال توفي بتأثير الملاريا بعد قرابة نصف سنة فقط في قرية تسمى يريم، وكان ذلك في الحادي عشر من شهر يوليو عام ١٧٦٣م (٢٢ ذي الحجة ١١٧٦هـ)، وبلا شك فإن رحلة فورسكال التي شملت: إسطنبول، الإسكندرية، القاهرة، اليمن تشبه إلى حد كبير المراحل الأولى من خطة رحلة والن إلى الشرق(٨).

جذبت رحلة فورسكال، التي دُرست دراسة واسعة، انتباه فيلهيلم روس أستاذ اللغات الشرقية في مدينة توركو، لدرجة أنه قرر أن يذهب إلى فلسطين، وبالفعل بدأ روس رحلته من توركو في إبريل ١٧٦٣م (شوال ١١٧٦هـ) قبل أشهر قليلة من موت فورسكال، ومن الجدير بالذكر أن معلوماتنا عن خط سير الرحلة وتوقيتاتها ناقصة إلى حد كبير. وفيما يبدو أن روس تنقل من مكان إلى آخر ببطء كي يستمتع بما يراه؛ فقد أبحر روس إلى إسبانيا وفرنسا ثم إلى إيطاليا التي وصل إليها بعد عام ونصف من بداية رحلته، وفي أواخر عام ١٧٦٤م (جمادى الآخرة ١١٧٨هـ) وأوائل عام ١٧٦٥م (رجب ١١٧٨هـ) أبحر روس صوب الإسكندرية، ولكن "برغم سعادته الكبيرة لم يستطع روس الاستمتاع بالعالم الجديد الذي انفتح أمامه فقد افتقد عنصرًا من أهم عناصر متطلبات الرحالة، ألا وهو المال".

(8) Ibid., S. 37F.

على أي حال استطاع روس الوصول إلى إسطنبول دون مال، ثم استمر في طريقه إلى سميرنا، ولما ضاق الخناق على روس أرسل رسالة يشرح فيها ظروفه المالية إلى القس في توركو. بناء على ذلك كلف القس الأستاذ بيركالم بجمع الأموال لروس الرحالة الأستاذ وعضو الكنيسة في توركو. ولكن هذا لم يكن بالأمر السهل فقد امتنع الأهل والأقارب عن المساعدة؛ لأنهم كانوا مقتنعين أن روس لم يكن ينوي العودة من رحلته هذه، واقترح أهل روس أن يتم إعادته إلى الوطن رغمًا عنه على متن سفينة سويدية. أما بالنسبة لأعضاء الكنيسة فقد كانوا أرحم من ذلك، وجمعوا لروس مبلغًا قليلاً من المال. وبهذا المبلغ القليل توجه روس إلى القدس، وركب سفينة من سميرنا إلى حيفا، ومن هناك كان ينوي الذهاب إلى القدس سيرًا على الأقدام عبر الصحراء الحارقة وتربُّص اللصوص، ولكنه على أي حال لم يكن معه أشياء كثيرة يخاف عليها من السرقة.

لم يكمل روس المسيرة فقد أرجعه الرهبان الفرنسيسكان إلى حيفا ووضعوه في سفينة أخذته إلى عكا في شمال فلسطين. أما عن سبب إرجاعه فالقصة كالآتي: كانت فلسطين في ذلك الوقت تابعة للعثمانيين الذين كانوا قد فرضوا دفع مبلغ من المال على كل أوروبي يأتي للحج في هذه البلاد، وكان الرهبان الفرنسيسكان يجمعون هذه الأموال ويرسلونها إلى الحكومة العثمانية، ولكنهم - وقد كانوا يعلمون بفقر الحجاج اللوثريين - كانوا يقومون بإرجاعهم لعدم الدخول في مشكلات الدفع معهم.

من حلب بدأ روس محاولته الثالثة والأخيرة في الذهاب إلى القدس، ثم توفي في مكان ما بين حلب ودمشق ودُفن في رمال الصحراء، ومن المرجح أن وفاته حدثت في شهر يوليو ١٧٦٦م (المحرم ١١٨٠هـ)، ولم يصل خبر وفاته إلى فنلندا إلا بعد سنتين.

كان نيبور يعتقد أن مذكرات روس ستثري العلم إذا تم الحصول عليها في أوروبا. ومن الجدير بالذكر أن روس كان يحاول في رحلته تجنب الأوروبيين والتقرب من المسلمين والمسيحيين الشرقيين واليهود. كذلك يخبرنا هيلت أن روس كان مشغوفاً باللهجة العامية، وكان يحب التعامل مع السكان البسطاء؛ ولذلك فهو يعد مثالاً لوالن[٩].

أما فيما يتعلق بأوراق روس ومذكراته عن هذه الرحلة فلم ولن نعرف عنها شيئًا أبدًا؛ لأن الروايات تخبرنا أن المذكرات أرسلت إلى دير الرهبان الفرنسيسكان في دمشق، ورغم البحث الشديد فلم يتم العثور عليها.

نحو الشرق:

في ربيع عام ١٨٤٢م (١٢٥٨هـ) وبعد عودته من سانت بطرسبورغ طلب والن من مجلس الجامعة تأجيل رحلته لمدة عام، ففي خلال هذا العام سيقوم بدراسة الطب؛ لكي يعمل طبيبًا في الصحراء. كلفت الجامعة والن قبل السفر بمهام عديدة فكان عليه أن يرسل مستحضرات تشريحية (خاصة بعلم التشريح) مثل الجماجم، والهياكل العظمية الخاصة

(9) A. L. M. Hjelt, op. cit., pp.1-44

بالحيوانات... كما كان عليه أن يحصل للمكتبة على مخطوطات عربية وكتب مطبوعة من القاهرة. وكان والن قد عمل أمينًا عامًا في المكتبة لمدة عام. وقد حصل والن من المجلس على ٣٠٠ روبل فضية للحصول على هذه الأشياء، على الرغم من أن بعض أعضاء المجلس رأوا أن فكرة إحضار كتب من القاهرة لا تفيد بشيء، وعدّ بعضهم الآخر أن مبلغ ٣٠٠ روبل كثير جدًا، أما والن فقد عدَّ المبلغ ضئيلاً جدًا.

كان والن لا يزال يتمنى إلى آخر لحظة قبل السفر أن يذهب إلى مصر مع معلمه الطنطاوي، ولكن هذه الأمنية لم تتحقق. على أي حال في شهر يوليو عام ١٨٤٣م (جمادى الآخرة ١٢٥٩هـ) حضر الطنطاوي إلى هلسنكي عن طريق تالين (عاصمة استونيا)، القريبة من هلسنكي، لوداع والن وكان معه دي مايسون ١٨٠٧-١٨٧٣م (١٢٢١-١٢٨٩هـ) المدرس بالمعهد الشرقي، وهكذا قضى والن الأيام العشرة الأخيرة قبل سفره مع صديقه المصري، وفي ٢٨ يوليو (٢ رجب ١٢٥٩هـ) وبعد تأخير طويل رحلت سفينة والن وكان الطنطاوي آخر مودعيه، وتمنى له رحلة سعيدة(١٠).

ذهب والن إلى هامبورغ، باريس، مرسيليا ثم إلى إسطنبول التي وصل إليها في ٢٥ نوفمبر (٤ ذي القعدة ١٢٥٩هـ). وقد قضى هناك أسبوعين ثم ركب سفينة فرنسية إلى الإسكندرية ملتقى الشرق والغرب ووصل إليها في ١٤ ديسمبر ١٨٤٣ (٤ ذي الحجة ١٢٥٩هـ). قضى والن في الإسكندرية خمسة

(10) Kaj Öhrnberg, G. A. Wallin, 2007, p. 53.

أسابيع بشخصيته الأوروبية المسيحية العادية، ثم حدث الكثير في يومي ٢١ و ٢٢ يناير ١٨٤٤م (١ و ٢ المحرم ١٢٥٩هـ) ففي اليوم الأول خلع والن الزي الأوروبي وحلق شعره واستحم في حمام عربي ثم ارتدى الثوب المحلي. في اليوم التالي أبحر عبر النيل إلى القاهرة التي وصل إليها في ٢٩ يناير (٩ المحرم). وهناك ظهر والن بشخصية جديدة وسمّى نفسه "ولي"، وادّعى أنه قادم من بخارى من آسيا الوسطى الواقعة تحت سيطرة القيصر الروسي، وعلاوة على ذلك فقد وصل إلى القاهرة راكبا حمارًا.

القاهرة:

كانت القاهرة هي منطقة الإمداد والوطن بالنسبة لوالن خلال السنوات الخمس والنصف التالية، فقد قام بثلاث رحلات إلى الصحراء من القاهرة، وهناك أصبح هذا المتعلم الأكاديمي القادم من الشمال مسلمًا، وكانت القاهرة لا تزال في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي (منتصف القرن الثاني عشر الهجري) مركزًا حضاريًا واقتصاديًا وروحانيًا للعالم الإسلامي المترابط الذي كان يمتد مجاله من المحيط الأطلنطي حتى جزر الهند الشرقية. قضى والن في مصر ثلاث سنوات عاش منها في القاهرة وحدها سنتين ونصف.

بعد عودة والن من صعيد مصر بدأ في التحضير لرحلة شبه الجزيرة العربية، وكان هذا يعني أن يجهز المتاع والأدوية والأشياء المتعلقة بتأجير الجمال، أما مظهره ولغته العربية

فلم يحمل والن لهما همًا، فقد عدَّه الناس شرقيًا ومسلمًا. إلى جانب ذلك ابتكر والن لنفسه لغة سرية لكتابة مذكراته في الصحراء دون خوف أن ينكشف محتواها للغرباء؛ فقد كتب والن مذكراته باللغة السويدية، ولكن بالحروف العربية، وقد كتب في هذا الوقت إلى بلده أنه مستعد لرحلته الأولى إلى الصحراء، وهو متفائل بالنجاح.

رحلة الصحراء الأولى:

لم يكن من المتوقع أن تُنفَّذ رحلات والن كما خطط لها في سانت بطرسبورغ، وقد أقر والن بذلك بعد قدومه مباشرة إلى القاهرة؛ ففي عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر الميلادي (منتصف العقد الخامس والسادس من القرن الثالث عشر الهجري) حاول محمد علي باشا حاكم مصر أن يضم شبه الجزيرة العربية إلى سلطته. ولذلك أخبر بعض الناس والن أنه ليس من الحكمة أن يذهب إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق البحر الأحمر كما كان مخططًا من قبل؛ وذلك لأنهم كانوا يتعاملون بشك وحذر في شبه الجزيرة مع كل من يأتي إلى هناك من مصر؛ ولهذا السبب كان من الأفضل الذهاب عن طريق الشمال كما فعل والن فعلا. وعلى الرغم من ذلك شكّوا أن والن كان جاسوسًا مُرسلاً من قبل محمد علي باشا! وبحسب الخطة الجديدة التي وضعها والن فإنه سيصل إلى العقبة بعد خمسة عشر يومًا، وتعد الرحلة آمنة حتى العقبة، أما بعد ذلك فستتحكم الظروف في سير الرحلة. "وعمومًا سأحاول اختراق الصحراء من هناك

مباشرة إلى الجوف المشهورة بأغانيها وشعرها. وسوف أبقى هناك فترة طويلة، ثم أذهب إلى سدير التي تضم آثارًا تشُد الانتباه، ثم أمرّ على جبل شمر ثم إلى الدرعية، وبذلك أكون قريبًا من الخليج العربي ثم أذهب إلى البصرة التي تعد أول مناطق رحلتي الرئيسة". ولكن والن اكتشف أن هذه الخطط التي وضعها في أماكنها لن تتحقق، وتحققت رحلته الأولى للصحراء بطريقة مختلفة عما كان يفكر فيه.

ودّع العديد من الأصحاب القاهريين والن عند أبواب القاهرة في ١١/٤/١٨٤٥م (٤/٢/١٢٦١هـ)، وهناك انتظره بدوي ومعه جملان، وكان هذا البدوي قد وعد أن يكون دليلاً لوالن حتى العقبة، بعد ساعة واحدة من بداية الرحلة تراجع البدوي وسلّم والن إلى بدوي آخر لكي يوصله إلى العقبة.

كان اليوم الأول مليئًا بالمفاجآت السيئة والسعيدة أيضًا، فمن المفاجآت السعيدة أن ركوب الجمل لم يكن بالأمر الصعب الذي تخيله؛ فقد كان خائفًا جدًا من ركوب الجمل، وكان العديد من الناس قد أخبروه أن ركوب الجمل يحتاج إلى تدريب مسبق، ولكنه عندما ركب الجمل شعر كأنه شيء معتاد عليه. كان والن يتدرب على ترتيل القرآن على ظهر الجمل، وقد جعله هذا يهتز بجسده بنفس إيقاع حركة الجمل.

بعد أسبوع قام والن بتغيير المرشد البدوي مرة أخرى وتغيّر خط سير الرحلة فلن يمرّ على العقبة، وإنما سيذهب

مباشرة إلى الجوف عن طريق معان. قضى والن أربعة أشهر في الجوف قبل أن يكمل رحلته إلى حائل، التي وصل إليها في ٢١ سبتمبر (٢٠ رمضان). وكان والن أول رحالة أوروبي يعبر هذا الطريق ويذهب إلى حائل.

وقد عانى والن في الأماكن التي توقف فيها بعض الشيء، فكان يلتف حوله الناس ويمطرونه بالأسئلة وبطلب الأدوية ولكن هذه هي ضريبة مهنة الطب، وكان الناس يطلبون منه علاج المرضى. ومما لا شك فيه أن أدوات الطب الأوروبية التي استعملها والن أثارت الشك فيه. كما اتضح لوالن أن اسم ولي لم يكن مناسبًا؛ لأنه يُطلَق عامة على الأولياء، ولذلك غير اسمه إلى والي بين البدو، ولكنه لم يكن اختيارًا جيدا؛ لأن والي اسم من أسماء الله الحسنى. وأراد والن أن يقنع البدو أن هذا الاسم شائع الاستعمال بين قومه، ولكن البدو أشاروا عليه أن يستخدم اسم عبدالوالي.

كانت حائل هي عاصمة الأمير عبدالله بن رشيد، لم تكن في حائل أماكن سكن للمسافرين؛ لأنها لم تكن مكان حج، ولكن والن كان يعرف أنه يمكن أن يسكن في مقر ضيافة الأمير فقد كان حقًا لكل مسافر أن يبيت أو يبقى كما يشاء في ضيافته، فهذا هو الكرم العربي. قضى والن هناك ستة أيام، وكان الطعام يُقدَّم مرتين عند شروق الشمس وغروبها لنحو مئتين من العرب القادمين من كل مكان. كان والن ينام في المسجد وعندئذ قابل درويشًا طائفًا من بلاد فارس وصاحَبه وأجّرا معًا غرفة وانتقلا إليها. كانت حياة والن في

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ، السنة الخامسة والثلاثون
الدارة

حائل كالحياة الملكية بالمقارنة بالشهور الأربعة التي قضاها في الجوف؛ ففي الجوف كان يعيش على التمر والعصيدة، أما في حائل فكان لحم الغنم والخضروات والمياه النقية يزيد من إحساسه بالراحة في هذا البلد، ونسي والن العالم كله وقضى هناك ما يقارب ثلاثة شهور سعيدة لدرجة أنه فكر مرات عديدة في اقتراح أصحابه من حائل أن يعيش معهم إلى نهاية العمر. ولم لا فقد عرض عليه واحد من أشهر شعراء نجد أن يبقى في حائل ويتزوج من ابنته البالغة من العمر ١٥ عامًا التي كانت كما قال والن "من أرهف ظباء العرب"، ولكن لم يشأ رب العباد، وهنا اكتشف والن قلة ما يحمله من مال، وكان لابد له من قطع الرحلة والتوجه إلى القطيف.

حاول الدرويش الفارسي أن يقنع والن بأن يأتي معه إلى مكة للحج، ولكن والن لم يرد؛ لأنه خاف أن يغامر بهذه الرحلة إلا إذا كان مستعدًا الاستعداد الكامل لها، ولكنه غيَّر رأيه عندما قدمت قافلة الحجاج من بغداد في منتصف نوفمبر (ذي القعدة ١٢٦١هـ) والتي كانت تضم حجاجًا شيعة كالغالبية العظمى من سكان بلاد فارس، وضمت القافلة ١٥٠٠ بعير، وقرر والن أن يذهب معهم إلى المدينة. رحلت القافلة في ٢٠ نوفمبر (٢١ ذي القعدة ١٢٦١هـ)، وبعد ثمانية أيام (٨٥ ساعة من السير) وصلت القافلة إلى قبر الرسول محمد ﷺ. حينئذ اختبأ والن في وسط الحجاج لكي لا يدفع الرسوم الباهظة لأنه كان دون مال، وفي المدينة زار والن قبر الرسول وأبي بكر وفاطمة، وقد عدّ والن الذي كان قد رأى

مساجد القاهرة وإسطنبول العظيمة، أن مسجد الرسول ﷺ كان من أعظم وأجمل المساجد التي رآها على الإطلاق.

كان والن ينوي أن يذهب مباشرة من المدينة إلى ينبعٍ على شاطئ البحر الأحمر، ولكن هذا الطريق لم يكن مأمونًا في فترة الحج، وذلك كمعظم الطرق المؤدية إلى مكة والمدينة في ذلك الوقت، وقرر أن يستمر مع القافلة حتى مكة. غادرت القافلة المدينة في ٢٩ نوفمبر (٣٠ ذي القعدة) ووصلت إلى مكة في ٧ ديسمبر ١٨٤٥م (٨ ذي الحجة ١٢٦٢هـ)، "وكان أول واجباتنا أن نقوم بالشعائر الخاصة بالحجاج في المسجد الحرام... توقفنا أمام باب المسجد في فناء مربع ثم قلنا: أشهد أن هذا الحرم حرمك، وأن هذا البيت بيتك. ثم ذهبنا إلى مقام إبراهيم وصلينا ركعتين، ثم طفنا حول الكعبة سبع مرات... وفي كل مرة وصلنا إلى الركن الجنوبي للكعبة مسحنا بأيدينا على الكعبة ثم مسحنا وجهنا بأيدينا، في المرة السابعة والأخيرة توقفنا عند الركنِ الشرقي الموضوع فيه الحجر الأسود. كان هذا المكان ممتلئًا بالناس، وكان الجميع يريد أن يقبّل هذا الحجر الأسود الصغير المعطر، وبجانب باب الكعبة أي في الجانب الشمالي الشرقي من البناء قريبا من الحجر الأسود، كان يقف مجموعة من العبيد السود، وكان مع كل واحد منهم عصا يلوح بها لإبعاد الناس عندما يصبح الازدحام غير مطاق، ومع هذا نجحت في تقبيل الحجر الأسود دون أن تصل إليّ ضربات العصا... ثم ذهبنا بعد ذلك إلى بئر زمزم، وأعطينا لرافع المياه بعض النقود،

ليرفع إلينا الماء وصببنا على أنفسنا وعلى ملابسنا بعضًا من هذه المياه؛ وبهذا أتممنا الشعائر الأولى في بيت الله. بعد ذلك كان علينا أن نقوم بالسعي بين جبلي الصفا والمروة القريبين من المسجد، ثم يكون السعي بهرولة بطيئة مع ترديد بعض الأقوال أو الأدعية أو التزام الصمت، ويكون الجري سبع مرات مع الوقوف عند كل جبل، فعند كل جبل سُلّم، وهناك يتم ترديد بعض الأدعية أو التزام الصمت وسماع الآخرين إذا لم يكن الإنسان يعرف هذه الأدعية. كان الازدحام في هذه المنطقة شديدًا؛ ولذلك يجب أن يكون المرء حذرًا لكي لا يقع... وبهذا تكون الشعائر الأولى قد تمت...

في مساء اليوم التالي ٨ ديسمبر (٨ ذي الحجة) يذهب الحجاج كل على حدة إلى منى ويقضون الليل هناك. ومنى سهل طويل يقع بين الجبال وعلى أطرافها مكان يشبه المدينة ولكنه في الحقيقة مكان مهجور يُعمر فقط بالحجاج أيام الحج. وفي اليوم التالي يذهب الجميع إلى سهل مكشوف ومتساوٍ يقع به جبل عرفات. كان هذا السهل جميلاً جدًا وفي قمةً خضرته الخريفية... وفي منتصف النهار صعدنا إلى منطقة رملية على مقربة من جبل عرفات ومكثنا هناك حتى صلاة العصر ثم ذهب كل واحد على ظهر جمله إلى قاع الجبل وجلس دون حركة في تلك الصحراء حتى غروب الشمس. وعرفات جبل منخفض من الجرانيت وله قمتان تغطيهما حجارة متلاصقة صغيرة وكبيرة، وفي أعلى الجبل منبر يشبه البرج يلقي الإمام من عليه الخطبة للحجاج مع أن

الكثير منهم لا يسمع شيئًا من الازدحام. كانت هذه هي ذروة الحج ومن أجلها يأتي الناس من أبعد البلاد، ويسمى هذا اليوم بيوم الوقوف أو وقفة عرفات.

وأخيرًا غربت الشمس وتم الإعلان عن ذلك بطلقة مدفع، وبدأ الجميع في رحلة العودة دون أي نظام. ولحسن الحظ لم يستمر رمح الجمال إلا أقل من ساعة، حيث وصلنا إلى المزدلفة إلى مخيم مبيت الحجاج، وهناك جمع كل واحد لنفسه ٧٠ حجرًا صغيرًا ونام، وفي صباح اليوم التالي رجعنا إلى منى، وأول ما فعلناه أن ذبحنا شاة، وأعطينا لحمها للفقراء، ثم حللنا الإحرام وارتدينا ملابسنا، وبدأ السوق بعد ذلك، وكان الذهاب إلى السوق يعد الهدف الرئيس للعديد من الناس، وقضينا في مني أيام ١٠ و١١ و ١٢، وكانت هذه الأيام مملة جدًا لي؛ لأنه لم يكن هناك خيمة، ولذلك أحرقتنا الشمس نهارًا، وهطل علينا المطر ليلاً. ليس هذا فحسب بل عم المكان رائحة كريهة وقذارة، والسبب ذبح الأضاحي، ولا يمكن لأحد تخيل هذه الرائحة إلا الموجودين فيها. في ١٢ ديسمبر (١٢ ذي الحجة) اتجهنا إلى مكة".

لم تكن رحلة الحج خالية من المخاطر فقد كانت مغامرة للذين يخافون من انكشاف حقيقة دينهم أو حتى بالنسبة للناس العاديين. ففي بعض السنوات المظلمة في القرن الثامن عشر مات العديد من الحجاج. وفي عام ١٨٢٤م (١٢٣٩هـ) مات نحو ٤٠٠٠ حاج من الحر والعطش، وبعد ذلك بعامين دفن ١٢٠٠٠ حاج في أحضان الصحراء. وبعد عام واحد

فقط من العام الذي حج فيه والن مات ٥٠٠ حاج و١٢٠٠ حصان و ٩٠٠ جمل في طريق العودة من المدينة إلى دمشق.

انتقد الناس فيما بعد والن على عدم استفاضته في وصف الحج، وقد علل والن قلة مذكراته بخوفه من انكشاف الحقيقة. ولكنه يوضح لنا أنه قد وصف زيارته لمكة في خطابه المرسل إلى فنلندا(١١).

كان هذا باللغة السويدية، أما الذين لا يعرفون السويدية فلم يعرفوا إلا ما كتبه والن في جملتين باللغة الإنجليزية عن الحج في مقاله(١٢)، وهنا يجب أن نتذكر أن بوركهارت كان قد وصف رحلته للحج في كتاب ضخم يبلغ ٥٠٠ صفحة. على أي حال كنا نتمنى من والن أن يعطي تفاصيل أكثر عن رحلته من حائل إلى المدينة، إذ كانت القوافل القادمة من بلاد فارس تعبر عن طريق فيد، ولكن في عام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ) استراحت القافلة في حائل، ولا يوجد لدينا من قبل وصف للطريق من حائل إلى المدينة.

لم تُعجب والن الحياة في مكة أيام السوق ولا سيما أن جعبته كانت خالية من المال؛ لذلك أراد أن يسرع إلى البحر الأحمر، ولكنه كان راضيًا عن رحلته للحج عمومًا بالرغم من

---

(١١) وصف والن حجه في رسالة إلى أستاذه غيتلين مؤرخة في ١٨٤٦/٨/٢٩م. انظر:

Kaj Öhrnberg, 2007, pp. 437-447.

(12) Georg August Wallin, Narrative of a Journey From Cairo to Madina and Mecca..., in 1845, The Journal of Royal Geographical Society, No. 24, 1854, pp. 115-207.

أنه لم يكن مستعدًا لها، وقد اقتنع والن أنه بجانب الروح الطيبة التي سادت الرحلة وسيره مع ثلاثة أو أربعة من الأوروبيين الذين تجرؤوا على الذهاب للحج فقد كان للرحلة فوائد عملية أيضًا ستفيده في الرحلات القادمة.

على أي حال كان يمكن لوالن استخدام لقب حاج في العالم الإسلامي كله، وفي ١٥ ديسمبر غادر والن مكة نحو جدة، ومن هناك أبحر إلى مصر ووصل إلى القاهرة في ١٤ مارس ١٨٤٦م (١٧ ربيع الأول ١٢٦٢هـ).

رحلة الصحراء الثانية:

أخذ والن يفكر بعد عودته إلى القاهرة في كيفية تمويل رحلته في الشرق الأوسط حتى نهاية عام ١٨٤٨م (١٢٦٤هـ)؛ فقد كان يعتقد أن المنحة التي حصل عليها ستكفيه حتى عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ) أو ١٨٤٥م (١٢٦١هـ)، ولكن بعد وصوله إلى مصر بعدة شهور وفي أبريل ١٨٤٤م (ربيع الأول ١٢٦٠هـ) كتب إلى غيتلين أنه لن يقدر على عمل شيء في هذه الفترة القصيرة، وطلب منه بحث إمكانية تمويل رحلته للسنوات الثلاث القادمة ١٨٤٦-١٨٤٩م (١٢٦٢-١٢٦٥هـ) في الشرق الأوسط. ثم كتب إلى غيتلين مرة أخرى في سبتمبر ١٨٤٤م (شعبان ١٢٦٠هـ) وأوضح أنه إذا لم يحصل على مساعدة من الجامعة فيمكن لعشرة من أصدقائه أن يجمعوا له فيما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ روبل فضية. وهذا المبلغ سيكفيه حتى نهاية عام ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ) والتي سيتم فيها التقديم على المنحة المالية لجامعة هلسنكي التي تُمنَح كل خمس

سنوات. وعندما رجع والن من رحلة الصحراء الأولى وجد في انتظاره ١٠٠٠ روبل فضية أرسلها إليه غيتلين[١٣].

كان والن قد كتب في الخطاب الذي أرسله في سبتمبر أن رحلاته القادمة ستتم في أعوام ١٨٤٧-١٨٤٨م (١٢٦٣-١٢٦٤هـ)، وكان والن قبل رحلته الأولى للصحراء يرى أنه من الحكمة أن يذهب في أعوام ١٨٤٧-١٨٤٨م (١٢٦٣-١٢٦٤هـ) إلى شرق شبه الجزيرة وجنوبها ليبحث الآثار واللغة الحميرية. وكان والن قد وقع في خطأ باعتقاده أن اللهجات العربية في الجنوب تمثل تطور اللغة العربية في مراحلها الأولى. وقد أكدت الرحلة الأولى ذلك. وفي خطابه لغيتلين في أواخر مارس ١٨٤٦م (ربيع الثاني ١٢٦٢هـ) أوضح والن أنه يريد الذهاب في المرة القادمة إلى اليمن القاطنة في قلبه، أو إلى الأجزاء الشرقية من نجد، وكذلك إلى بغداد والبصرة. من بغداد يمكن أن يذهب إلى عمان والمهرة المجهولتين تمامًا. وقد كتب والن في الأول من أغسطس ١٨٤٦م (٩ شعبان ١٢٦٢هـ) في طلبه المقدم للحصول على منحة جامعة هلسنكي عن هذه الخطط المحببة إليه، ولكنها كانت تعد خططًا غير واقعية.

أرسل والن طلبه للحصول على منحة جامعة هلسنكي في الأول من أغسطس من القاهرة، أي قبل انتهاء ميعاد التقديم في آخر شهر أكتوبر ١٨٤٦م (ذي القعدة ١٢٦٢هـ) بوقت كاف، وليتأكد والن من وصول طلبه، في وقت كان البريد فيه

(13) H. Holma, op.cit., p.8.

غير مضمون وبطيء، أرسل نسخة من طلب التقديم على المنحة في يوم ٢٩ من الشهر نفسه. ومع ذلك لم يصل أي من الخطابين حتى نهاية عام ١٨٤٦م (١٢٦٢هـ)، وبالصدفة المحضة بقي الخطابان في مخزن وزارة الخارجية في سانت بطرسبورغ ووصلا إلى هلسنكي في فبراير ١٨٤٧م (صفر ١٢٦٣هـ)، ومن حسن حظ والن أن مجلس الاختيار للمنحة تشكك في عدالة التقديم إلى المنحة، وأعلن أن التقديم سيبدأ من جديد وسوف يستمر حتى نهاية فبراير ١٨٤٧م (صفر ١٢٦٣هـ)، وبذلك حصل والن على فرصته.

يصف والن في طلبه رحلته الأولى في الصحراء، ويعتقد أنه تعرف على اللغة وطباع الناس بصورة أعمق، وأنه قد حصل على معلومات جغرافية، وعلى معلومات في مجالات أخرى مفيدة جدًا وغير معروفة من قبل. ومع هذا كله فقد كانت هذه هي المحاولة الأولى. يقول والن: "أما بالنسبة للرحلات القادمة التي أريد عملها في السنوات القادمة فغايتي الرئيسة هي الاتجاه إلى المناطق الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة وكذلك إلى المناطق الداخلية لنجد... ويوجد في المهرة، التي لم يزرها أي أوروبي من قبل حسب ما أفادني به القنصل الفرنسي فرسنل، العديد من الآثار والنقوش باللهجة الحميرية القديمة. ولكي أقوم بهذه الرحلات لا بد أن أنقل محل سكني من مصر إلى البصرة. فمن البصرة أستطيع الذهاب إلى هذه الأماكن عن طريق الخليج العربي إلى جانب أن العرب في الجزيرة كانوا يشكّون

في كل من يأتي من مصر، ويعرفون أن هناك حرية في العقيدة في مصر، وهم لا يحبون ذلك كما لا يحبون أي شيء يختلف عن عقائدهم. ولهذا السبب سأذهب عن طريق القدس إلى دمشق ومن هناك عبر الصحراء عبر مناطق البلقاء ونقرة الشام المجهولة إلى بغداد والبصرة. وهناك سوف أزور أولاً منطقة الأحساء المشهورة وكذلك حدود منطقة نجد، ولا تزال هذه المناطق مشهورة بغناها وبمهارة أهلها. ومن هناك سأستمر إذا أمكن عبر الصحراء الكبرى إلى عمان ثم إلى المهرة. أما إذا استحال ذلك فسأرجع إلى البصرة وأبحر من هناك إلى أحد ميناءي عمان. ولا بد لي أن أبقى فترة طويلة في المهرة ولا يمكن لي تحديد هذه الفترة مسبقاً. من هناك سأذهب عبر مرتفعات الأحقاف إلى صنعاء، لكي أكمل المعلومات التي وصلت إلينا من أرناود ووريده (Arnaud & Wrede) خلال رحلتهم إلى اليمن في العام الماضي ١٨٤٣م (١٢٥٩هـ). ثم أستمر في الطريق، حسب المعلومات التي حصلت عليها، في الصحراء عبر وادي الدواسر إلى الرياض التي يوجد فيها رجل نجد الإمام فيصل. ومن هناك أتبع طريق الحج إلى الحجاز، وبهذا أكون قد زرت أهم مناطق شبه الجزيرة العربية عبر هذه الطرق التي تشبه المثلث. ويمكن تحديد مكانة هذه الأماكن لبعضها دون الحاجة إلى علم الفلك. بافتراض أن القيام بهذه الرحلات سوف يأخذ كل الوقت والمال المحدد من الجامعة القيصرية، فسوف أضطر للرجوع إلى الوطن بعد وصولي إلى الحجاز"[١٤].

(14) Kaj Örnberg, 2007, pp. 448-450.

كان والن قد عرف بعد رحلته الأولى إلى الصحراء أنه من الصعب تحقيق الخطط المرسومة للرحلة في شبه الجزيرة العربية. ولتوضيح ذلك أضاف والن في طلبه للمنحة أنه أينما ذهب فإنه يجد أماكن مغمورة وقبائل بدوية تعطي معلومات أكثر عن التاريخ المبكر لهذه المنطقة.

هنا يجب الاعتراف أنه لو كانت خطة والن تحققت لكان قد أصبح أعظم الباحثين في شبه الجزيرة العربية، وكان سيستحق هذا على ذهابه من الأحساء إلى عُمان عن طريق "الصحراء الكبرى". فهذا الطريق هو طريق الربع الخالي المخيف الذي كان الإنجليزي بيرترام توماس (Bertram Thomas) أول أوروبي يعبره من الجنوب إلى الشمال في أعوام ١٩٣٠-١٩٣١م (١٣٤٨-١٣٤٩هـ)، في الوقت الذي كان يستعد فيه توماس لرحلته كان هناك شخص إنكليزي آخر اسمه جون فيلبي (St. John Philby) يستعد في الرياض للرحلة نفسها. ولكن فيلبي أجَّل رحلته بعد معرفته بنجاح رحلة توماس إلى يناير ١٩٣٢م (شعبان ١٣٥٠هـ) حيث عبر الصحراء من الشمال إلى الجنوب.

في هذه المرة تقدم اثنان فقط بطلب الحصول على المنحة هما والن والطبيب فون فيلبراند. وفي هذه المرة أُعطيت المنحة إلى الطبيب بغالبية ١٠ إلى ٧ أصوات، على الرغم من تقدير المجلس لطلب والن. وقد سُوِّغ هذا القرار بأن والن كان قد حصل على هذه المنحة سابقًا، وليس من المعقول أن يحصل عليها مرة أخرى؛ لئلا يحصل هو وحده على منحة الجامعة القليلة عشر سنوات متتالية.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ السنة الخامسة والثلاثون
الدارة

يجب هنا أن نذكر مساندة الأستاذ نرفاندر (Nervander) لوالن، فقد قال: إن دراسة وبحث والن في الجزيرة العربية تعادل في أهميتها الدراسات التي تمت في إفريقيا أو اكتشاف الطريق الجنوبي الشرقي، ثم إن ما حققه والن بالفعل يعادل ما حققه نيبور وفورسكال وبوركهارت. وفي العام نفسه تم الإعلان عن فتح باب التقديم لمنحة الإسكندر، وتقدم اثنان أيضًا بطلب الحصول على هذه المنحة، والن وفريدرك نيلاندر (Fredrik Nylander) عالم النبات. قدمت والدة والن طلبه الذي كان به خطة الرحلة التي قدمها إلى جامعة هلسنكي نفسها، وفي هذه المرة تم إعطاء المنحة لوالن بغالبية كبيرة ١٦ مقابل صوت واحد.

لم يكن والن يعلم شيئًا عن هذا كله، فقد اعتقد أن طلبه لم يصل إلى هلسنكي، وخطط والن أن يقوم برحلة قصيرة إلى الصحراء، حيث يذهب أولاً إلى دير سانتا كاترين في سيناء. وهناك حسب الأحوال سيذهب إلى مدائن صالح أو إلى البتراء ووادي موسى. ولم يخطط لعمل أي شيء آخر في هذه الرحلة، وكان ينوي العودة إلى القاهرة في موعد أقصاه آخر مارس ١٨٤٧م (ربيع الثاني ١٣٦٣هـ)، وكان يتمنى عندئذ حصوله على رد من غيتلين "يكون أو لا يكون". كان والن يعد هذه الرحلة للنقاهة والسياحة، ولكنها كانت رحلته الثانية للصحراء لزيارة الأماكن المقدسة أكثر من أي شيء آخر.

الرحلة الثالثة:

أرسل والن رسالة من حجز الإسكندرية إلى هلسنكي بتاريخ ٨ يونيو (٢٤ جمادى الآخرة)، وكانت الرسالة قصيرة، على غير العادة فقد كان من الواضح أنه مكتئب وغاضب وكان يتساءل: ماذا يفعل؟ فقد أصبح بدون مال ولا يكفي ما معه من مال حتى للرجوع إلى بلاده. وكان والن لا يزال يعتقد أن طلبه للحصول على المنحة لم يصل إلى هلسنكي، في الوقت نفسه لم يرد والن أن يرجع إلى بلده في ذلك الوقت، ولكن ربما يكون الحل الوحيد لمشكلته هذه هو أن يعيش على أنه درويش، ويعتمد على عطف وكرم الناس. ولكن بعد عودته إلى القاهرة بيومين كانت فرحته كبيرة فقد استلم خطاب غيتلين الذي أخبره فيه بما حدث لطلبه للمنحة، وأيضًا بالقرار السعيد بالحصول على المنحة الأخرى.

كان والن ينوي أن يبدأ رحلته الثالثة في برد الشتاء، وفي أثناء تحضيره لهذه الرحلة زار بني سويف وواحة الفيوم المشهورة بعنبها وورودها. ولكنه على أي حال قضى في القاهرة الجزء الأعظم من وقته في التحضير للرحلة، وعلى غير العادة احتاج والن إلى جواز سفر في هذه الرحلة، فقد بدأ حاكم مصر محمد علي باشا في استخدام هذه الطريقة التي كرهها والن.

وبدأ العصر الذهبي الذي كان يتنقل فيه المرء بحرية في البلاد الإسلامية يقترب من نهايته. وكان جواز سفر والن باسم عبدالمولى، فقد سماه بهذا شيخ من الرياض كان يعيش

في القاهرة[١٥]؛ لأنه رأى أن اسم عبدالوالي غير مناسب في نجد.

اعتقد والن أن ما معه من مال ربما سيكفيه لمدة عامين في الصحراء، وكانت خطة رحلته لا تختلف في مضمونها عن الخطة التي أرسلها إلى هلسنكي، حيث سيكون مكان التوقف الأول في ميناء المويلح، ومن هناك سيتبع طريق القوافل إلى تيماء عبر تبوك. وكان يريد الذهاب من هناك مرة أخرى إلى حائل ليرى أصدقاءه القدماء قبل أن يذهب إلى الرياض.

وكان مع والن خطاب توصية من الشيخ المذكور آنفًا إلى الإمام فيصل بن سعود في الرياض، كان والن يأمل أن يستمع إلى الخطب الدينية في مسجد الرياض. وكان ينوي أن يقضي صيف ١٨٤٨م (١٢٦٤هـ) في الرياض، كما كان ينوي أيضا أن يقوم برحلة علمية إلى الربع الخالي، وكانت هذه الفكرة غير واقعية وتشبه إلى حد كبير الفكرة التي عرضها في سانت بطرسبورغ في الذهاب إلى مكة لتعلم العربية. ومن هناك سيذهب عن طريق عمان إلى المهرة، فقد كان يتمنى أن يقضي على شاطئ الجزيرة العربية الجنوبي وقتًا طويلاً حتى نهاية صيف ١٨٤٩م (١٢٦٥هـ)، بشرط ألا يكون ما معه من مال قد انتهى، وسوف يذهب بعد ذلك مباشرة إلى عدن ومن هناك على متن مركب إنكليزي إلى مصر.

---

(١٥) هو الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله ابن الشيخ محمد بن عبدالوهاب وقد كان مقيمًا في القاهرة في تلك الفترة.

وقد أخبر أصدقاءه ألا يقلقوا عليه إلا في حالة عدم سماعهم شيئًا عنه حتى أواخر عام ١٨٤٩م (١٢٦٥هـ)، وقد تحقق شكّه في تحقيق خطته للرحلة التي كان قد وضعها من قبل، فلم يتحقق من هذه الخطة إلا الأجزاء الأولى حتى حائل.

أرسل والن خطابا إلى غيتلين في ١٤ ديسمبر ١٨٤٧م (٧ محرم ١٢٦٣هـ) يصف فيه شعوره في الليلة السابقة للرحلة: "عندما ينوي البدوي أن يذهب إلى رحلة طويلة فإن أول ما يطمئن عليه هو سنام الجمل، فإن كان كبيرًا وممتلئًا وإن ضغط عليه من مختلف الجوانب يكون مشدودا اطمأن إلى نجاح رحلته. علاوة على ذلك يكون ضميره مستريحًا ومفعمًا بالأمل؛ لأنه يعرف عندئذ أن راحلته ستتحمل المشاق حتى إذا كانت الصحراء خالية من الزرع والماء، فالجمل يعيش على ما خزنه في أيام الخير الوفير في سنامه. وسوف يحتاج كل شخص إلى سنام إذا أراد أن يغزو الصحراء وبالطبع فإن لكل شخص سنام خاص به. وأنا مشتاق إلى الصحراء من كل قلبي... وشعوري الآن مشابه لسنام الجمل، فأنا مستعد للقيام برحلة طويلة إلى الصحراء"(١٦). غادر والن القاهرة في اليوم نفسه مع المرشد البدوي الذي كان قد أوصله إلى دير سانت كاترين منذ قرابة عامين.

قضى والن في المويلح ثلاثة أسابيع، ومن هناك ذهب إلى الصحراء على عجل وزار كل القبائل البدوية التي قابلته في

(16) Kaj Öhrnberg, 2007, p462.

الطريق. كان هناك جماعة مرافقة لوالن مكونة من ستة رجال وجملين، وادعت هذه الجماعة أنها تقوم بأعمال مهمة، ولكن الهدف الرئيس كان الاستمتاع بكرم البدو وأكل لحم الغنم كما يشتهون. وقد قام طبيب الجماعة عبدالمولى بواجبه الطبي عندما اقتربت الجماعة من مخيم الشيخ سليم أعظم أشخاص المنطقة؛ فقد كان الشيخ مريضا، وعندما علم أن والن طبيب أرسل في طلبه. كان الشيخ يبلغ الخمسين من عمره، وعندما رآه والن أقر أنه مريض بمرض في الصدر، وقد قام والن برعاية الشيخ الذي كان على مشارف الموت بتنظيم طعامه فقط. مات الشيخ سليم في ١١ مارس (٦ ربيع الثاني)، وقد حاولت أرملته أن تزوج ابنتها لوالن، ولكن والن رحل عندئذ إلى تبوك.

كانت تبوك مدينة صغيرة ذات مئة بيت من الحجر، فيها حامية عسكرية مكونة من سبعة رجال. وكانت تعد مجرد استراحة صغيرة لسالكي طريق الحج من سوريا. وبناء على الظروف المحيطة قضى والن في هذه المدينة الصغيرة ثلاثة أسابيع، فقد اضطر أن ينتظر البدوي الذي سوف يرافقه إلى تيماء.

وأخيرًا وفي بداية أبريل (جمادى الأولى ١٢٦٤هـ) وصل بدوي اسمه عقيل من قبيلة بلي، ووعد أن يرافق والن، وتوقفا في الطريق عند مخيم عائلة عقيل، وهناك أتت بنته عمشاء التي كانت تبلغ من العمر ١٧ أو ١٨ عامًا لتسأل الطبيب عن بعض النصائح الطبية. كانت هذه الفتاة قد تزوجت من ابن

عمها منذ ثلاث سنوات، وكان زوجها يريد أن يتزوج من امرأة أخرى لأن عمشاء لم تلد في هذه السنوات الثلاث إلا بنتًا واحدة فقط. كانت عمشاء في نظر والن من أجمل النساء التي رآها، ولكن الأجمل عنده كانت امرأة نوبية من صعيد مصر وكان يتذكرها دائمًا باشتياق وحنين. اقترح والن على عمشاء أن تترك زوجها وتهرب معه إلى مكان آخر؛ لكي يُجبر عرب هذا المكان الزوج على الطلاق. بعد ذلك يعود والنٍ معها ويتزوجها ويعيشان مع القبيلة في سلام. وكتب قائلاً: "كان التداعب بالرومانسية في الصحراء شعورًا لطيفًا، ووضعت لهذا التخيل نهاية مناسبة: ماذا يمكن أن أفعل في أوروبا التي أصبحت غريبًا عنها؟ يمكن لي أن أعيش هنا إلى النهاية مع أبناء الصحراء، وأحاول الحصول على إبل وقطيع من الغنم، وأستمتع بحياة الصحراء البسيطة بعيدًا عن الحياة الترفيهية والزهو والتحضر الزائف". ولكن والن تعلم من رحلاته أن من ولد في الصحراء وترعرع فيها هو فقط من يمكنه أن يعيش فيها لفترة طويلة، وأن يتحمل مناخها. ولذلك قرر بقلب مكسور أن يستمر في رحلته، وغادر في ١٦ أبريل (١٣ جمادى الأولى) إلى تيماء. وكان في الجماعة التي يقودها عقيل هذه المرة تسعة أشخاص وستة جمال، وكان هدفهم هو القيام بغزوة بعد أن يتركوا والن في تيماء. وكان لوصول والن مع هذا الجمع آثاره، فقد انتشرت شائعة تقول بأن والن حضر ليشتري خيولاً لعباس باشا حفيد محمد علي باشا، وبالصدفة وبعد ساعات قليلة من وصول والن إلى تيماء في ١٩ أبريل (٢٢ جمادى الأولى) وصل إلى هناك

أيضًا عبد من عبيد عباس باشا اسمه بشير، كان هذا العبد قد وصل من حائل ومعه قطيع من الخيل متجهًا إلى مصر. وجاء رجل من الجماعة المرافقة لبشير للتحدث مع والن ولمعرفة أغراضه، فهو الرجل الذي يقول عنه سكان المدينة إنه رسول عباس باشا. تضايق والن من هذه المقابلة وقرر الإسراع في رحلته إلى الأمام، وبعد قضاء نحو أسبوع في تيماء التي كانت مجهولة للأوروبيين استمر والن في رحلته عبر الصحراء نحو حائل.

وبعد يوم واحد فقط قابل والن ومرشده جماعة أخرى كانت تضم ستة عشر رجلاً من رجال الإمام فيصل بن سعود في طريق عودتهم من القاهرة، وكانوا قد انطلقوا في رحلتهم منذ سبعة أشهر من أجل إهداء خيول أرسلها سيدهم الإمام فيصل هدية إلى عباس باشا. وكان من بين الجماعة عبد أرسله عباس باشا إلى فيصل لكي يشتري من هناك الفرس التي كانت تعد الأفضل في الجزيرة العربية. وطلب والن من هؤلاء الرجال أن يذهب معهم إلى الرياض، فلم يكن والن يأمل أن يجد أفضل من هؤلاء للوصول إلى فيصل، ووافق البدو وقالوا: إنهم يعرفونه، وظن والن أنهم قد سمعوا عنه من البدو الذين عاش معهم، ولكن ظن والن تغير في حائل.

وصلت الجماعة إلى حائل في ٢ مايو (٢٩ جمادى الأولى) وأقام والن في نفس المنزل الذي أقام فيه أثناء زيارته الأولى في سبتمبر ١٨٤٥م (١٢٦١هـ)، وبسبب مهنة الطب التي كانت لعنة عليه في بعض الأحيان، تأخر والن في مغادرة المدينة

أكثر من المدة المحددة ورحلت الجماعة الأخرى إلى الرياض بدونه. وكان في هذا التأخير إنقاذ لحياة والن، فبعد أن قضى والن بعض الوقت في المدينة وصلت إليه فتاة صغيرة كان قد تعرّف عليها في المرة السابقة لتحذره من ميعاد الذهاب إلى الرياض، فقد كانت واثقة تمامًا من أن والن سيُقتَل لو ذهب إلى فيصل؛ لأن فيصلاً ورجاله كانوا يستحقرون ويشكون في كل شيء قادم من مصر. ولكن المشكلة الكبرى أن الفتاة قالت: إن والن معروف على أنه مسيحي.

ظن والن أن انكشاف أمره يرجع إلى أنه طلب قبل رحيله من القاهرة خطاب توصية من محمد علي باشا عن طريق القنصل الروسي للذهاب إلى الجزيرة العربية. وعلى الرغم من أن الطلب رُفض إلا أن هذه المعلومات على ما يبدو كانت قد وصلت إلى مسامع حفيده عباس باشا الذي أخبر بدوره الرجال المهمين في نجد عن هذا الموضوع. بعد تفكير عميق قرر والن أن يغير من خطته ويسافر مباشرة من حائل إلى بغداد(١٧).

لذا رحل والن مع جماعة تتكون من أربعة أفراد في ٣ يونيو (١٩ جمادى الثانية) من جبل شمر نحو العراق، وذهبت الجماعة عن طريق النجف.

لحظ والن أنه قد أتى إلى عالم مختلف، فعلى الرغم من أنه كان في العراق إلا أن المناخ المحيط في هذه المدينة

(17) Kaj Öhrnberg, 2007,pp.462-499.

الروحية الشيعية كان فارسيًا تمامًا، سخر والن من هؤلاء الحجاج الشيعة الذين كانت أهم أمنياتهم أن يُدفنوا بجوار علي.

وصل والن إلى بغداد في منتصف الصيف في ٢٥ يونيو ١٨٤٨م (٢٤ رجب ١٣٦٤هـ)، وقد أصابت بغداد، عاصمة العباسيين المزدهرة، والن بخيبة أمل عند اقترابه منها، فقد انتظر والن أن يرى بشائر المدينة بمآذنها وقبابها العالية من بعيد على غرار القاهرة وإستانبول؛ ولكنه لم يلحظ شيئًا من هذا حتى دخول المدينة.

وقد طالت مدة إقامة والن في بغداد الموحشة أكثر من المتوقع، فحتى شهر أغسطس (رمضان ١٢٦٤هـ) لم يكن والن يعلم شيئًا عما سوف يحدث بعد ذلك. وكان من ضمن الاحتمالات أن يذهب إلى البصرة، ومن هناك يبحر إلى القطيف أو إلى مسقط ولكن قيظ الصيف جعل هذا الاحتمال آخر ما يمكن عمله. فيمكن القيام بهذه الرحلة التي كان مخططًا لها منذ فترة طويلة في شهر نوفمبر (شهر ذي الحجة)، ولكن ماذا يفعل والن حتى هذا الوقت؟

كان والن يقيم في المسكن المخصص للشيعة القادمين من شيراز، وأثار هذا في نفسه حبه القديم للغة الفارسية مرة أخرى. وعلى الرغم من اقتناعه بأنه سيخسر الكثير بتركه لعرب الصحراء وإقامته مع الفرس إلا أنه قرر القيام برحلة إلى بلاد فارس لمدة ثلاثة شهور. وكان سيذهب إلى شيراز عن طريق أصفهان، ومن هناك يعبر الخليج إلى شبه الجزيرة العربية بعد أن ينتهي القيظ.

يشرح والن في خطابه المؤرخ في ١٣ سبتمبر (١٥ شوال ١٢٦٤هـ) إلى غيتلين رحلته القادمة إلى بلاد فارس، وبعد عودته من هناك سيذهب إلى البصرة ثم يبحر من هناك إلى عدن ثم إلى أوروبا، أما الرحلات الطويلة إلى الصحراء فيمكن أن تؤجَّل قليلاً إلى المستقبل. كان هناك سببان يدفعان لتغيير خطة والن: السبب الأول عدم توافر المال، أما السبب الثاني فهو حالة الكآبة التي أصابت والن، فقد كان قلقًا بسبب بعده عن أوروبا وعن علمها وعاداتها وتقربه من الحياة الشرقية، ولذلك فقد كان في حاجة إلى العودة بسرعة إلى أوروبا؛ لأن حياته غدت كثوب الدرويش المكون من رقع صغيرة، ولم يتبق على اكتمال الثوب إلا رقعتين هما فارس واليمن(١٨).

وبعد يومين اتجه والن صوب حدود بلاد فارس، وكان يفكر في بعده عن بلده وشوقه في الوقت نفسه لرؤية بلاد فارس؛ فقد كانت فارس مشهورة بأدبها وبجمال طبيعتها المزدهرة؛ ولذلك أراد والن زيارة هذه البلاد، ولكنه علم بوفاة الشاه محمد ١٨٠٨-١٨٤٨م (١٢٢٣-١٢٦٤هـ) قبل وصوله إلى الحدود. وكذلك علم بأن البلاد في حالة اضطراب، ورأى أنه من الأفضل أن ينتظر حتى تهدأ الأمور هناك. وعندما وصل وفد الحجاج العائد من مكة الذي كان يتكون من ٤ إلى ٥ آلاف حاج إلى الحدود تشجع والن وقرر أن يذهب معهم في ١٢ أكتوبر (١٥ ذي القعدة).

(18) Kaj Öhrnberg, 2007,pp.500-503.

في الغالب لم يذهب أي فنلندي إلى بلاد فارس قبل والن إلا هنريك برينير (Henrik Brenner) المولود في مدينة كرونوبي عام ١٦٦٩م (١٠٨٠هـ)، فبعد دراسته للغات والفلسفة في توركو وأوبسالا وفي عام ١٦٩٧م (١١٠٩هـ) ذهب مع سفير السويد لودفيج فابريتيوس إلى بلاد فارس ليكمل دراسته هناك. قضى برينير معظم وقته في أصفهان العاصمة في ذلك الوقت، ثم عاد في عام ١٧٠٠م (١١١٢هـ) مع سفير فارس المفوض إلى ستوكهولم ساروج خان بك، ونشبت في هذا الوقت الحرب بين روسيا والسويد وتم القبض على برينير في موسكو؛ لأنه كان يعد من الأعداء في هذا الوقت. وسُجن في روسيا طيلة فترة الحرب، ولم يرجع برينير إلى ستوكهولم إلا في عام ١٧٢٢م (١١٣٥هـ) بعد عقد الصلح بين البلدين.

لم يكن هناك غرض علمي من رحلة والن؛ فقد أراد فقط أن يقضي بعض الوقت في البلد الذي درس بعض أدبه، وكان الجزء الأعظم من ملاحظات والن المدونة يتكلم عن شيئين: أولاً المقارنة بين العرب والفرس التي كانت تنتهي دائمًا في صالح العرب، أما الثاني فهو وصف حياة وطباع الشيعة. وقد زار والن قبري عظماء الشعر في فارس هما: سعدي (توفي ١٢٩٢م/ ٦٩١هـ) وحافظ (توفي ١٣٨٩م/ ٧٩١هـ) في شيراز. وقد ذهب والن في بلاد فارس من كرمنشاه التي كان فيها فيما بين ١٧و ٢٤ أكتوبر (٢٠ و ٢٧ ذي القعدة) إلى أصفهان من ٩ إلى ١٨ نوفمبر (١٣ إلى ٢٢ ذي الحجة) ثم شيراز من

٢٩ نوفمبر إلى ١٤ ديسمبر (٤ إلى ١٩ المحرم) ثم إلى الخليج العربي، وبعد ذلك اتجه إلى بوشهر التي وصل إليها في ليلة أعياد الميلاد.

ووصل والن إلى البصرة في ١٣ يناير ١٨٤٩م (١٩ صفر ١٢٦٥هـ)، كان والن يخطط في بعض الأحيان للعيش في هذه المدينة. وقضى شهرين من أسوأ الشهور في حياته في هذه المنطقة القذرة ولم يكن معه مال، ثم رجع على متن سفينة إنكليزية إلى بغداد، ثم حدث ما توقعه منذ نصف عام في خطابه لغيتلين، ويوضح ذلك في خطابه المؤرخ بـ ١٥ أبريل (٢٣ جمادى الأولى): "لاأستطيع الآن التفكير في الذهاب إلى الجزيرة العربية، وبالنسبة لبحث اللغة الحميرية والبحوث الأخرى التي أريد عملها فقد تبخرت في الهواء، وأصبحت مكسور الجناح كالفلاح الذي انكسر منه قدر الحليب في الشارع؛ لذا عليَّ أن أرجع إلى مصر عن طريق الموصل وحلب وبيروت، ولا بد أن أعطي ظهري للشرق وأنا أرى الرياح تحطم أحلامي"(١٩).

ولكنه لم يذهب إلى الموصل ولا إلى حلب، كما أنه لم يذهب إلى أماكن عديدة كانت في خطته؛ فقد اختار والن الذي يريد العودة بسرعة إلى أوروبا طريقًا أقل أمانًا ولكنه أسرع، وهو الطريق الذي يسلكه البريد الإنجليزي إلى دمشق؛ فقد كانت القوافل تقوم بهذه الرحلة في شهر، ولكن البريد الإنجليزي كان يصل في ثمانية أو تسعة أيام. وقد

(19) Kaj Öhrnberg, 2007,pp.500-552.

حذّر بعض الناس والن من التعب الجسدي في الرحلة، ولكنه عرف أنه أيضًا يستطيع تحمل ما يتحمله البدوي؛ علاوة على ذلك كان الطريق خطرًا؛ فقد سرق البدو حمولة البريد في المرات الأربع السابقة، وقتلوا ساعي البريد في المرة الأخيرة. وقد رحل والن مع حمولة البريد في ١٧ أبريل (٢٥ جمادى الأولى ١٢٦٥هـ) على ظهر جمل صوب دمشق، وكان قد تعلم من البدو القدرة على النوم على ظهر الجمل، بعد أن كان يتعجب من قدرتهم على ذلك. وكانت هذه القدرة مهمة جدًا في هذه الرحلة التي تستمر بدون توقف إلا القليل. في اليوم الثامن ظهر فجأة عشرة رجال يركبون الجمال، وسرقوا من المسافرين كل شيء حتى ملابسهم الداخلية. وانكشف بعد ذلك أن السارقين من بدو الرولة، وكان شيخهم الأكبر حطاب بن شعلان "أخو" (حامية) والن خلال رحلته الأولى. وكان والن قد نجح في الجوف في معالجة الشيخ من أمراضه العضوية والنفسية. ولذلك لم يكن والن من الأشخاص الذين يمكن سرقتهم، وأعاد السارقون على مضض الجزء الأعظم من المسروقات.

ووصل والن إلى دمشق في يوم ٢٦ أبريل (٤ جمادى الآخرة ١٢٦٥هـ)، واستراح هناك لمدة أسبوعين قبل أن يتوجه إلى بيروت، وذهب على متن سفينة فرنسية تعمل بالبخار إلى مصر. وحُجز والن مرة أخرى في الإسكندرية ولم يرجع من رحلته للصحراء التي استغرقت سنة ونصف إلى القاهرة إلا في الأول من يونيو (١١ رجب ١٢٦٥هـ).

رحلة العودة إلى هلسنكي:

كان في وداع والن في الإسكندرية الرحالة الألمان أدولف فون فريده و بريم (Adolf von Wrede & A. E. Brehm)، وذلك في ٩ أغسطس ١٨٤٩م (٢١ رمضان ١٢٦٥هـ)، وركب سفينة تعمل بالبخار إلى أوروبا. وقبل أسبوع من سفره كان محمد علي الذي حكم مصر فترة طويلة قد مات في الإسكندرية، وتابع والن كيف نُقل جسده من الإسكندرية إلى القاهرة ليدفن هناك. قضى والن في الشرق ست سنوات من أمتع سنوات حياته وهاهو الآن عائد إلى بلاده.

خطة الرحلة الجديدة:

اتضح لوالن أثناء وجوده في لندن أنه لن يبقى في أوروبا. وكان راولنسون (H. C. Rawlinson) المعروف بأبي علماء الحضارة الآشورية قد استعلم من والن في أثناء وجوده في لندن عن رغبته في القيام برحلات جديدة إلى شبه الجزيرة العربية. قابل والن راولينسون لأول مرة في بغداد في أثناء رحلته الثالثة في الصحراء عندما كان راولينسون يعمل قنصلاً لبريطانيا. وبدأ والن بشغف كبير في التخطيط لرحلة جديدة شاملة بعد أن وصل إلى هلسنكي مباشرة. وقد عد والن أن رحلاته السابقة كانت إعدادًا جيدًا لرحلاته التالية، ولم يكن راضيًا عن نتائج رحلاته السابقة. وبعد أسبوعين فقط من عودته إلى هلسنكي تم إعلامه بطريقة غير رسمية أن الجمعية التاريخية الملكية البريطانية مستعدة للمشاركة في تحمل النفقات إذا كانت عنده رغبة في القيام برحلة

جديدة إلى شبه الجزيرة العربية. وقد تضمن الاقتراح قيام والن برحلة مدتها قرابة عامين ومنحه نحو ٣٠٠ جنيه إسترليني.

بعد ذلك أرسل سكرتير الجمعية نورتون شاو (Norton Shaw) خطابا، وحدد فيه أن الرحلة ستكون لمدة عامين، وسيدفع البريطانيون ٢٠٠ جنيه إسترليني من تكاليف هذه الرحلة. ولكنه رفض هذا الاقتراح مباشرة، فلم يكن ينوي أن يقوم بمثل هذه الرحلات القصيرة التي ينقصها الوقت والمال الكافيان لتحقيق ما هو مخطط له مثلما حدث في المرات السابقة.

وكتب والن إلى شاو في ١٣ يناير ١٨٥١م (١١ ربيع الأول ١٢٦٧هـ) يقول له: "سأبقي الذهاب إلى الشرق ولا سيما إلى صحراء شبه الجزيرة العربية الهدف الأول والأكبر في حياتي، وسأحاول أن أنفذ خطتي للذهاب إلى هناك بأسرع وقت ممكن... يمكن أن أرجع إلى هناك كرحالة أوروبي لأبحث أرض العرب المجهولة، وسوف أقدم نتائج أبحاثي إلى البلاد الغربية الطالبة للعلم، وبالطبع قبل كل شيء إلى جمعيات لندن المتحضرة... أو ربما أذهب هناك من أجل سعادتي الشخصية فسوف أبعد عن حياة أوروبا الضاغطة، وأتمتع بطبيعة الصحراء الغنية. وسوف أنعم بحياة البدو المليئة بالحرية والنشاط، وأستريح من حياة الزهو والتمسك بالتقاليد في أوروبا. ويمكن لي أن أحيا وأموت كالبدوي الحر بين رجال الصحراء الأحرار. وأنا مستعد أن أدير ظهري في

أي وقت للغرب، وأن أتجه بوجهي إلى الشرق، وسوف أفعل ذلك عاجلاً أو آجلاً"(٢٠). وقد قدر والن أن رحلته الثانية إلى الشرق ستحتاج إلى ست سنوات، سنة تُخصص للتجهيزات المختلفة، وخمس سنوات في الجزيرة العربية.

ولأن إنجلترا لم تقدر على تقديم الدعم المالي الكافي لهذه الرحلة الطويلة فقد تم من هناك الاتصال برئيس جمعية روسيا الجغرافية القيصرية الدوق الكبير كونستانتين (Kon-stantin). واقترحت جمعية إنجلترا أن تقوم الجمعيتان بالإنفاق المشترك على هذه الرحلة، وتم الاتصال بوالن من سانت بطرسبورغ لمعرفة خطته، وقد شرح والن خطته في خطاب أرسله إلى نائب رئيس الجمعية الجنرال مورافيوف (Muravjov) في ١٨٥١/٥/٦م (١٢٦٧/٧/٦هـ) وكانت خطته مشابهة إلى حد كبير لخطة رحلته الأولى للشرق. وقد تمنى أن يكون في مصر في أواخر صيف ١٨٥٢م (١٢٦٨هـ)، أما بحوثه الأساسية فسوف يبدأها من شاطئ البحر الأحمر؛ ففي الحجاز سوف يبحث آثار ما قبل الإسلام، ثم يذهب بعد ذلك إلى نجد، ومن هناك سيحاول من جديد أن يذهب إلى الرياض وإلى الربع الخالي. وغالبًا سيزور بعد ذلك بغداد، ومن هناك سوف يتجه صوب عمان والمهرة واليمن، هذه الأماكن التي لم تنجح محاولته لزيارتها في المرة السابقة. ومن عدن سوف يرجع إلى أوروبا أو سوف تستمر إقامته في

(20) K. Tallqvist, Bref Och Dagboksanteckningar of G. A. WAllin (Helsingfors, 1905), p.323-29.

منطقة أخرى من شبه الجزيرة العربية، وسيعتمد تحقيق هذا كله على إرادة الله، بمعنى آخر: إذا أعطاني الله الصحة والمال.

ولسوء التفاهم تعقدت الأمور، ورأى والن أن الدعم المادي المعروض عليه لا يكفي للقيام بالرحلة، وعلى الرغم من عدم تعارض المصالح بين إنجلترا وروسيا في الجزيرة العربية إلا أن الحقد والشك في حوافز الطرف الآخر ونواياه قد تكون هي السبب في تعثر المفاوضات بين الطرفين، علاوة على ذلك كانت روسيا ترغب في أن يتجه والن ببحوثه صوب دول وسط آسيا الإسلامية؛ لأن النفوذ الروسي ازداد في تلك المنطقة في عقد ١٨٥٠م (١٢٦٦هـ) ولكن والن أعلن في يناير ١٨٥٢م (ربيع الأول ١٢٦٨هـ) أنه لا يرغب في الذهاب إلى هذه المناطق، وعلل ذلك بأنه لا يتكلم لغات هؤلاء الناس، ولأنه "في زيارتي السريعة لبلاد فارس عام ١٨٤٨م (١٢٦٤هـ) لم أشعر تجاه هذا الشعب الذي فقد طباعه وأخلاقه أي شعور إكبار، وأعتقد أن عادات هذا الشعب وطباعه قريبة جدًا من هذه الشعوب التي تريدونني أن أذهب إليها، على عكس ذلك فأنا أشعر بالحب والاحترام تجاه البدو الشرفاء النبلاء. الخوف والضجر هما الشيئان اللذان يأتيان إلى ذهني عندما أفكر في المخاطر والمغامرات التي سأواجهها بين البلوش والأفغان والتركمان، وإذا افتقد الرحالة الرغبة في العطاء فلن نحصل على نتائج"[٢١].

---

(21) K. Tallqvist, 1905, p339-44.

كان من المتوقع ألا يعود والن من رحلته الثانية للشرق، وقد عضدت مذكراته وخطاباته هذا الاعتقاد. ويا للعجب فها هو والن الرحالة، يكتب في مذكراته في ٢٦/١٠/١٨٤٩م (١٠/١٢/١٢٦٥هـ) أنه يتمنى من الله أن يموت ويدفن في الصحراء[٢٢].

ولكن هذه الأمنية لم تتحقق؛ ففي أثناء المفاوضات حول الدعم المادي للرحلة مات والن فجأة في منزله في هلسنكي في ٢٣ أكتوبر ١٨٥٢م (١٠ محرم ١٢٦٨هـ) ولم يُعرف السبب الحقيقي لوفاته مبكرًا، لأنه لم يتم تشريح الجثة، وسيظل سبب الوفاة في محل للافتراضات. وقد يكون لبقاء والن في الشرق لمدة طويلة وتقبله لعادات وقيم هذه البلاد ثم العودة إلى بلاده، التي أصبحت غريبة عنه، السبب في إصابته بصدمة نفسية.

نتائج رحلات والن:

ذكر والن أن رحلاته للشرق كانت غير ناجحة، وقد عبر عن ذلك في رسالة أرسلها في ٦/٣/١٨٥٠م (٢٢/٤/١٢٦٦هـ) من لندن وكان حينئذ مصابًا بحالة من الكآبة "في رحلة عمري كان لديّ هدف واحد: أن أصل إلى الواحة البعيدة في الصحراء قبل غروب الشمس، ولكن راحلتي جاعت وخلا سنامها من الدهن وأدى بي التخيل إلى ضلال الطريق"[٢٣]. ولو ألقينا نظرة على خطط والن لهذه الرحلات والأهداف الموضوعة لها - وقد كانت بعيدة عن الواقع - يمكن أن نفهم خيبة أمله هذه.

(22) Kaj Öhrnberg, 2007,p.571.

(23) Ibid., 571.

كانت منشورات والن العلمية جيدة وذات قيمة، ولكنها كانت قليلة، ومن وجهة النظر هذه الأيام فهي ليست إلا ذكريات قيمة عن علم اللغة العربية في مراحلها المبكرة.

كان والن مستشرقًا إنسانيًا، فعلاوة على أنه كان يحاول أن يذيب كل الفوارق في الحياة اليومية، وقد كان فريدًا في ذلك، فقد أتى بوصفه باحثًا ورحالة تقليديًا إلى العالم الإسلامي وتقمص أدوارًا مختلفة؛ لكي يتعرف على المجتمع من الداخل. وشيئًا فشيئًا انقلب الذوبان في المجتمع من طريقة للحذر إلى طريقة في الحياة. وقد اعترف والن بأنه أصبح "شرقي الطبع"، وتخبرنا خطابات والن ومذكراته، التي تعد مستندات فريدة من نوعها، عن تعايش والن واستسلامه الكامل لحضارة الشرق وقبوله لقيم هذا المجتمع ومنها الدين.

كتب كل من نيبور وبوركهارت قبل والن وبورتون بعد والن عن بدو شبه الجزيرة العربية، ولكن والن كان أول أوروبي يتعرف عليهم فعلاً وعلى طريقتهم في الحياة ويعيش معهم لفترة طويلة. لم تكن غاية والن الرئيسة وطنية أو محلية كما كانت لمعظم الباحثين الكبار من جيله. ولذلك لم يفهم الناس في فنلندا تمامًا معاني وأهداف رحلات والن على الأقل مقارنة برحلات كاسترين. أما في المجتمع الدولي فقد بلغت سمعة والن - بصفته رحالةً وعالمًا بالحضارة العربية - ذروتها بعد وفاته مباشرة في عقد ١٨٥٠م (١٢٦٦هـ) فقد تم نشر نتائج رحلاته في المنشورات الإنجليزية والفرنسية والألمانية. ولا يشار إلى والن في كتب التاريخ الحديثة إلا بعدة سطور قليلة، أو يتم ذكره في حاشية الكتاب. ويعد هذا

الأمر مفهومًا؛ لأن مكانة الرحالة تتحدد بما يعرفه الناس عن إنتاجه. ولم يستحق والن على ما نشره مكانة أفضل ولا حتى ما نشره الآخرون من أعماله بعد وفاته. رغم أنه من الصعب أن تجد في أي مكان في العالم من حطم حاجز اللغة وأتى إلى الناس بهذا القدر الهائل من التفاصيل كمثل ما هو قادم من أعمال والن.

وبجانب المعلومات الأساسية عن حياة والن ورسالتيه للدكتوراه كان كل إنتاجه الآخر يتعلق برحلته إلى الشرق. والاستثناء الوحيد هو ما نشره في عام ١٨٥١م (١٢٦٧هـ) فقد كتب تفسيرًا لشرح العلامة بدر الدين على قصيدة والده العلامة ابن مالك المشهورة بلامية الأفعال. ولم يستطع والن نشر كل المعلومات الخاصة برحلاته إلا القليل منها. أما الغالبية العظمى من ملاحظاته العلمية ومفكراته وخطاباته فقد تُركت للآخرين لنشرها.

وإذا أردنا أن نتحدث عن هذا الموضوع بدقة فإن والن كان قد أرسل إلى المطبعة مقالاً واحدًا(٢٤).

أما المحاضرة التي ألقاها في لندن فقد نشرت في حياته وكانت بعنوان: "ملحوظات مأخوذة خلال رحلة عبر جزء من شمال الجزيرة العربية في عام ١٨٤٨م (١٢٦٤هـ)"(٢٥).

(24) G. A. Wallin, "Probe aus einer Anthologie neuarabischer, inder wuste", Zeitscrigt der Deutschen Morgenlandischen Gesellscaft, Vol.5-6, 1851-1852.

(٢٥) انظر الهامش رقم ٢١.

وفي أواخـــر صـــيف ١٨٥١م (١٢٦٧هـ) حـــصل والن على نسـخة من مـقاله هذا وأصيب بخيبة أمل، فقد اكتشف أن شخصًا يدعى فريد أيرتون (Fred Ayrton) الذي تولى مهمة نشـر المقال قـد أضـاف إلى المقـال "العـديد من التـعليـقـات والحـواشي على غرار تلاميذ المدرسة". وكان والن قد انتهى في الصـيف نفسـه من كـتـابة عـمل خـاص بـرحلتـه الأولى للصـحـراء، وكان قـد أرسله إلى لندن. ولكنه لم ينشـر إلا في عـام ١٨٥٤م (١٢٧٠هـ) وكـان تحـت عنوان: "قـصـة رحلة من القاهرة إلى المدينة ومكة عبر السويس ووادي عـربة والطفيلة والجوف وجبة وحائل ونجد في عام ١٨٤٥م"(٢٦).

ولو كـان والن مـازال حـيًـا في ذلك الوقت لكان على الأقل قـد صُدم بنفس الصدمة بعد نشـر مقاله السـابق. ففي هذه المرة تولى رينوارد (G. C. Renouard) أعمـال الخبـير، وأفسد المقـال بما أضـافـه وبتـعليـقـاته. وفي عـام ١٨٥٥م (١٢٧١هـ) نُشـر لوالن في المجلة نفسـها مقـال ثالث، وكان في هذه المرة يتعلق برحلته الثانيـة في الصـحـراء تحت عنوان: "قصة رحلة من القاهرة إلى القدس عبر جبل سينا"(٢٧).

وكـان سكرتيـر الجـمـعـيـة الملكيـة الجـغـرافـيـة البـريطانيـة الدكـتـور بورتون شـاو الذي يعـرف اللغة السـويدية جيـدًا قد ترجم هذا الجزء من الجـريدة السويدية التي كان منشـورًا بها في عام ١٨٤٧م (١٢٦٣هـ) خطاب والن عن الرحلة.

---

(٢٦) انظر الهامش رقم ١٢.

(٢٧) انظر الهامش رقم ١٦.

كـان والن قـد كـتب إلى شـاو في مـايو ١٨٥١م (رجب ١٢٦٧هـ) أنه ينوي كتابة عمل كبير للقراء عن رحلاته. آملاً أن يجد في لندن من يستطيع ترجمته عندما يتم. وقد وجد من ضمن أوراق والن بعد وفاته أوراق مكتوبة بخط اليد عن بداية رحلته الأولى في الصحراء، وقد نشرت في عام ١٨٥٣م (١٢٦٩هـ)(٢٨).

وكان هذا العمل ضخمًا جدًا فقد وصلت الأوراق المطبوعة عن الأيام الثمانية الأولى من رحلة والن الأولى في الصحراء إلى ١١٨ صفحة إلى جانب ست صفحات حواش باللغة العربية. ولا يمكن لنا تخيل حجم هذا العمل لو كان قد طُبع كله. فإذا كانت المغادرة من القاهرة قد أخذت كل هذا الاهتمام فما بالك بالباقي؟! وللأسف كان النص لا يصلح للقراءة. ولم يكن والن يحترم المجتمع الأكاديمي لتظاهره بالعلم، ولكنه نفسه كان في كتابه المخصص لقاعدة عريضة من القراء كان مدعيًا للعلم ومركزًا على مدى علمه ومهتمًا بالتفاصيل إلى ما لا نهاية، وقد وُجدت مسودات مقالين خاصّين بعلم اللغة من ضمن الأشياء التي خلفها(٢٩).

(28) Georg Aug. Wallins Forsta resa Fran Cairo till Arabiska Okneni April 1845 (Helsinki, 1853).

(29) G. A. Wallin, "Uber die Laute des Arabischen und ihre Bezeichnung", zeitschrift der Deutscen Morgenlandischen Gesellschaft, vol. 9 and 10, 1855-1858; G. A. Wallin, " Bemerkungen uber die Sprache der Beduinen", Zeitscrift der Morgenladischen Gesellschaft, vol.12, 1858.

وقـد نـشــر المغــرين (S. G. Elmgren) الجـزء الأعظم من مذكرات ومراسلات والن في أربعة مجلدات[٣٠].

وتكملة لذلك نشـر كنوت تالكفست (Knut Tallqvist) في عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ) مجموعة أخرى من رسائله[٣١].

تضم هذه الأعمال المذكورة كل الأعمال المطبوعة من إنتاج والن. وكان العمل الذي نشره المغرين ناقصًا، وقد تسبب المغرين في هذا. فقد غير وحول كثيرًا في النص حتى أصبح النص الأساسي ذا لغة تقليدية جدًا. ولأن المغرين لا يعرف العربية فقد ترك كثيرًا من المصطلحات المكتوبة باللغة العربية على هيئتها.

هذا ولابد أن تُتَرجم خطابات والن ومفكراته إلى لغة عالمية، ومن الأفضل أن تكون اللغة الإنجليزية؛ لكي يتعرف المجتمع الدولي على إنتاجه، وبذلك يحصل على المكانة الحقيقية التي يستحقها؛ فسوف يعطينا إنتاج والن الكثير من المعلومات عن العالم الإسلامي في عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر وعن ظروفه وطريقة الحياة فيه خاصة في شبه الجزيرة العربية ومصر وبلاد فارس.

الجسر المنهدم:

لم تولّد رحلات والن أي تدفق للفنلنديين على الشرق الأوسط. ليس هذا فحسب، بل إن المجتمع العلمي الأكاديمي

(30) S. G. Elrngren, Georg august wallins Reseantecknin gar Fran orienten, aren 1843-1849, 4 vol. (Helsinki, 1846-66).

(٣١) انظر الهامش رقم ٢٢.

لم يهتم في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي بالدراسات التي تتم على أرض الواقع إلا إذا كانت تتعلق بأهداف وطنية، ولم يذهب أي فنلندي إلى البلاد العربية إلا بعد وفاة والن بربع قرن. قد تبدو هذه المعلومة غريبة بعض الشيء ولكن هذه هي الحقيقة.

درس كارل فريدريك إينيبري(Karl Fredrik Eneberg) اللغات الشرقية في جامعة هلسنكي، ولكنه جذب الانتباه في الحياة الأدبية أيضًا بصفته شاعرًا واعدًا. وبعد حصوله على الماجستير في الآداب استمر إينيبري في دراسة اللغات السامية ولا سيما العربية في سانت بطرسبورغ ثم في ليبزغ وكيل. وقد ناقش رسالته للدكتوراه في عام ١٨٧٢م (١٢٨٩هـ)، وكان موضوعها عن الضمائر الشخصية في اللغة العربية، ولم تجد هذه الرسالة ولا رسالته الأخرى للأستاذية التي ناقشها في عام ١٨٧٤م (١٢٩١هـ) قبولاً في بلده ولا في الخارج، وقد تسبب ذلك في إنهاء طريقه باحثًا للغة العربية. وللمرة الثانية كان إينيبري أمام خيار صعب، ففي المرة الأولى كان قد ترك الشعر من أجل العلم، وهاهو الآن يترك اللغة العربية ليصبح أول عالم للآشوريات في فنلندا.

كان عقد ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ) هو الوقت الذي اهتم فيه علماء الأدب في كل مكان بمناقشة المشكلات المتعلقة باللغة السومرية. سكن السومريون الأجزاء الجنوبية من بلاد النهرين في بداية فترة التاريخ المكتوب، لكن أصلهم ولغتهم كانا مجهولين. وفي وقت ما طرحت فكرة القرابة بين اللغة

الآشورية، المشابهة لرؤوس المسامير في كتابتها، وعائلة اللغات الفنلندية الأوغرالية. وقد حازت هذه الفكرة على اهتمام بعض الفنلنديين خاصة أوتّو دونّير (Otto Donner 1835-1909) الذي نجح في إقناع إينيبري بالاتجاه إلى دراسة الحضارة الآشورية بعد أن كان منغمسًا في دراسة الحضارة العربية.

سافر إينيبري إلى باريس بعد شهر واحد من مناقشته لرسالة الدكتوراه في الأستاذية ليبدأ دراسة الحضارة الآشورية. وفي الغالب كان إينيبري يعلم أنه ليس هناك أي نوع من القرابة المدّعاة بين السومرية والفنلندية الأوغرالية. وقد كتب بذلك إلى معلمه فيلهيلم لاغوس (Wilhelm Lagus) في مايو ١٨٧٥م (ربيع الثاني ١٢٩٢هـ) ولكنه في أكتوبر (رمضان) من العام نفسه كتب إلى دونير بأنه من المحتمل أن تكون هناك درجة قرابة بين اللغتين. وفي ديسمبر (ذي القعدة) سافر إينيبري إلى لندن ليكمل دراساته هناك وليحاول اللحاق بالجماعة المسافرة من المتحف البريطاني إلى آثار نينوى في بلاد النهرين[٣٢].

كان رئيس الجماعة المسافرة جورج سميث (George Smith 1840-1876) مسافرًا للمرة الثالثة إلى بلاد النهرين للقيام بحفريات هناك، وقد قابله إينيبري في يناير ١٨٧٦م (ذي الحجة ١٢٩٣هـ) وحصل على موافقته بالانضمام إلى الجماعة المسافرة. وقد ظهرت بعض الخلافات في الرأي

(32) Otso Kantokorpi, Karl Fredrik Eneberg runoilija ja Orientalisti, in Otso Kantkorpi (Toim), Taikamatto (Helsinki: Suomen Itamainen Seura, 1982), p.45.

بين إينيبري وهذه الجماعة من البداية، فبينما قرر سميث الذهاب إلى بغداد أولاً ذهب إينيبري مباشرة إلى الموصل التي كانت آثار نينوى تقع على مشارفها. وفي حلب افترقت طرق الجماعة، ورحل إينيبري مع شخص يهودي من البندقية يعيش في حلب اسمه ماركو كان إينيبري قد استأجره ليكون مترجمًا وخادمًا. قضى إينيبري في الموصل خمسة أسابيع ولكن معلوماتنا عنها ضئيلة جدًا. وقد أوضحت المعلومات القليلة التي وجدت في مفكراته وكذلك خطابه المرسل إلى دونير في ٤ مايو (١٠ ربيع الثاني) أنه حزين ويريد العودة إلى فنلندا فهو لا يمتلك زمام الأمور في حياته. ويعترف في خطابه بأنه "هناك شعور غريب في البعد عن فنلندا كل هذه المسافة الطويلة. وشعر في أوقات كثيرة بالاكتئاب، وأعتقد أنه كان يجب أن يقوم بهذه المهمة شخص آخر أكثر شجاعة وجرأة وأكثر تفتّحًا مني، ولكن هذا هو نصيبي وسيكون من الخزي أن أتركه". وكانت آخر ملاحظاته المكتوبة مؤرخة في ٢٠ مايو (٢٦ ربيع الثاني): "تحطم الجسر وتوفي ناس وجمال"(٣٣). وبعد أربعة أيام في ٢٤ مايو ١٨٧٦م (١ جمادى الأولى ١٢٩٣هـ) وُجد إينيبري ميتا في فراشه. أما عن سبب الوفاة فهو غير معروف، وقد شكك البعض في أن ماركو قد أعطاه سمًا. على أي حال إن كان سبب الوفاة هذا أو ذاك فسوف تبقى حقيقة واحدة، وهي أن الشرق الذي رآه إينيبري كان يختلف عن الشرق الذي كان يحمله هذا الشاعر في صدره، وهاهو إينيبري يموت في الصحراء، وهي الأمنية التي كان والن يتمناها لنفسه.

(33) Ibid., p.51.

الرحلة الكبرى:

في نهاية القرن كانت الرحلات البطولية لدراسة الحضارات الشرقية قد انتهت واحتاج العالم إلى حرب عالمية لكي يظهر شخص مثل لورانس العرب. وقد اهتم المستشرقون في هذا الوقت بأشياء أخرى غير الأوقات المزدهرة الماضية واللغات الميتة في هذه الحضارات. ولا سيما الباحثون في الدول الاستعمارية الذين اهتموا بالوضع القائم في بلاد الشرق، ولم يكن هذا غريبًا؛ فقد عمل معظمهم - إن لم يكن كلهم - في حكومات هذه البلاد دبلوماسيين أو مستشارين. ولكن باحثي الدول غير الاستعمارية كانوا مهتمين بالدول التي سميت منذ خمسينيات القرن الميلادي العشرين (سبعينيات القرن الرابع عشر الهجري) بدول العالم الثالث، ففي أول القرن العشرين قام المستشرقون برحلاتهم، لأنه كان لابد من ذلك، فقد كانت الرحلة إلى الشرق جزءًا من برنامج التعليم، ويمكن هنا أن نذكر الرحلات الكبرى للأثرياء الصغار الإنجليز والروس والأمريكيين إلى قارة أوروبا.

كانت نتائج رحلات والن قد دُرست بطريقة أو بأخرى من قبل هواة دراسة الحضارة العربية والإسلام وكذلك كنوت تالكفست. وقد نشر تالكفست في عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ) جزءًا من خطابات ومذكرات والن غير المنشورة من عقد ١٨٦٠م (١٢٧٦هـ)[٣٤]، علاوة على ذلك فقد كتب عن سيرة حياة والن العمل الوحيد الضخم حتى يومنا

(٣٤) انظر الهامش رقم (٢٢).

هذا[٣٥]، وكانت رحلات والن هي السبب في أن تالكفست شرع في دراسة العلوم الشرقية. وبعد أن حصل على شهادة الماجستير من جامعة هلسنكي في عام ١٨٨٩م (١٣٠٦هـ) سافر إلى ألمانيا، وأكمل في جامعتي ليبزغ وبرلين دراسة اللغات السامية والحضارة الآشورية. وقد رحل تالكفست في نوفمبر ١٨٩٣م (جمادى الأولى ١٣١١هـ) في رحلته الكبرى، وذلك بعد أن حصل على منحة الإسكندر، وهي المنحة التي كان والن قد حصل عليها منذ نصف قرن من قبل، وأجَّل بها العودة إلى بلاده.

وبعد أن زار تالكفست مكتبات ومتاحف برلين وفيينا وصل إلى إسطنبول في يناير ١٨٩٤م (رجب ١٣١١هـ)، وقضى هناك شهرين في تعلم اللغة التركية وفي زيارة المتاحف والمكتبات وفي القيام برحلات حتى بورصه.

ويصف تالكفست رحلته في كتاب نشره في عام ١٩١٨م (١٣٣٦هـ)[٣٦]، أي بعد عشرين عامًا من هذه الرحلة وبعد تغير صورة العالم. ومن حسن حظنا أيضًا أن خطاباته إلى خطيبته إيرينه باكستروم (Irene Backstrom) قد حفظت، وبلغ عدد الخطابات التي أرسلها الخطيبان إلى بعضهما في هذه الفترة إلى ١٨٠ خطابًا، وكان تالكفست في هذه الخطابات أدق في وصفه للأحداث اليومية وما شاهده أكثر من عمله الذي نشر في نهاية الحرب

(35) K. Tallqvist, Yrjo Aukusti Wallin (Helsinki, 1903).

(36) K. Tallqvist, Palvelig Och ihelig Mark (Helsingfors, 1918).

العالمية[٣٧]. وقد زار تالكفست مقابر المسلمين، التي عدها الأكبر في الشرق، في سكوتاري في الجزء الآسيوي من إسطنبول. وفي وصفه لهذه المقابر يوضح لخطيبته أن السبب في كبر مساحتها يرجع إلى رغبة الأتراك في أن يُدفنوا في أرض آسيوية رحبة. ثم يتبع ذلك بوصف دقيق للمقابر بطريقة شعرية لكن كتابه لم يتضمن وصفًا للمقابر. وكان يستخدم كثيرًا تعبير "رجل أوروبا المريض" تعبيرًا عن الأتراك، ويقول: إن الأتراك، كانوا يعرفون أن الأوروبيين سيطردونهم من أوروبا ولذلك بنوا مقابرهم في الجانب الآسيوي من بلادهم. وأضاف: إن مناخ آسيا يناسب الرجل المريض. ويعد هذا العمل رمزًا جيدًا لتوضيح أن معظم كتب الرحلات تُولد من المواقف الاجتماعية.

وقد رأى تالكفست منظرًا بديعًا من على سطح السفينة بعد مغادرته إستانبول بأحد عشر يومًا، وكان هذا المنظر أجمل ما رأى على الإطلاق: منازل بيروت البيضاء في وسط الخضرة وفي الخلف قمم جبال لبنان المغطاة بالثلوج، وكان البحر الأبيض المتوسط يتوج ذلك كله، وكان صباح يوم ربيعي جميل، فكانت الطبيعة مفعمة بالزهور والهواء معطرًا برائحة النباتات والورود، وظل يتذكر هذا المنظر الذي لا ينسى بعد مرور ثلاثين عامًا.

(37) Knut Tallqvist Och Hans fastmo: Deras brewaxing Under hans resa i orenten 1893-1899 (Heisnafors, 1980).

خاتمة:

يعــد أدب الرحلة من الأجـزاء الغنيــة في الأدب العــربي، وهذا النوع ينضم إلى علم الأدب أكثر منه إلى علم الجغرافيا. وهناك رحــالان اثنان يعـدان مـثــلاً أعلى وصـورة للكمـال في وصفهم الأدبي. والاثنان من الجزء الغربي من العالم الإسلامي، واحـد من الأندلس والآخـر من المغـرب؛ أمـا الأول فـهـو ابن جبير ١١٤٥-١٢١٧م (٥٣٩-٦١٣هـ) الذي قام برحلة إلى العالم العربي الإسلامي ١١٨٣-١١٨٥م (٥٧٨-٥٨٠هـ) وكانت الأماكن الرئيسة في رحلته هـي مكة والمدينة ولكن برنامـجه تضـمن أيضًا الإسكندرية والقاهرة وبغداد ودمشق. أما الثاني فهو ابن بطوطة ١٣٠٤-١٣٦٨ أو ١٣٧٧م (٧٠٣-٧٦٩/٧٧٠ أو ٧٧٨هـ) الذي استحق لقب "الرحالة الإسلامي". فقد قام فيما بين أعوام ١٣٢٥هـ و١٣٥٤هـ برحلة إلى كل البلاد الإسلامية، بل تخطى حدود البلاد الإسلامية وذهب إلى سيلان والصين وإسطنبول.

يذكر المستشرق الإنجليزي نيتّون (I. R. Netton) أن كتاب ابن جبير مثله مثل مكان فرساي المملوء بالمستنقعات والخالي من الشجر قبل أن يقوم بستاني لودفيغ الرابع عشر أندريه لي نوتري (Andre Le Notre 1613-1700) بتـحـويله إلى حديقة فرنسية جميلة، وكتاب ابن بطوطة مثله مثل هذه الحديقة. إذا أنزلنا هذا التصنيف على الرحالة الفنلنديين إلى بلاد الشرق فسيعد إنتاج والن مثل الغابة البرية المملوءة بالأعشاب المتفرقة في كل مكان، أما إنتاج تالكفست فمثل الحديقة الفرنسية.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٠هـ السنة الخامسة والثلاثون
الدارة

ويجب مـراعـاة أن والن رجل العلم يحـاول بدون إدراك ولا فهم أن ينزع الأعشـاب الصغيرة الضـارة من غابتـه الوحشـية، في حين أن لتالكفست حديقة هـي غـاية في النظام والترتيب، ولكنـه يتـرك الأعـشـاب الضـارة والنبـاتات المزهـرة الصـغيـرة لتنمو في هذه الحديقة.



برنامج تواصل
قسيمة اشتراك

يقدم برنامج تواصل الخدمات التالية:

١ - إصدارات الدارة من الكتب التي تصدر خلال سنة الاشتراك حال صدورها.

٢ - أعداد مجلة الدارة التي تصدر خلال سنة الاشتراك.

٣ - أعداد النشرة التاريخية للدارة التي تصدر خلال سنة الاشتراك.

٤ - إحاطة المشترك بنشاطات الدارة العلمية ومحاضراتها وفعالياتها الثقافية المختلفة، وتزويده بالأدلة التعريفية الخاصة بالندوات والمؤتمرات والمعارض التي تقيمها الدارة.

٥ - في حال رغبة المشترك الحصول على نسخة ثانية من أي إصدار من إصدارات الدارة يمكن له الحصول عليها بنصف السعر المقرر.



برنامج تواصل
قسيمة اشتراك

يقدم برنامج تواصل الخدمات التالية:

١ - إصدارات الدارة من الكتب التي تصدر خلال سنة الاشتراك حال صدورها.

٢ - أعداد مجلة الدارة التي تصدر خلال سنة الاشتراك.

٣ - أعداد النشرة التاريخية للدارة التي تصدر خلال سنة الاشتراك.

٤ - إحاطة المشترك بنشاطات الدارة العلمية ومحاضراتها وفعالياتها الثقافية المختلفة، وتزويده بالأدلة التعريفية الخاصة بالندوات والمؤتمرات والمعارض التي تقيمها الدارة.

٥ - في حال رغبة المشترك الحصول على نسخة ثانية من أي إصدار من إصدارات الدارة يمكن له الحصول عليها بنصف السعر المقرر.

دراسة نقدية لكتاب

"من أخبار القبائل في نجد خلال المدة ٨٥٠ - ١٣٠٠هـ"

أ. تركي القدّاح العتيبي

إن المتتبع لأخبار القبائل في نجد - وربما في غيرها من أنحاء الجزيرة العربية - يلحظ قلة من دوّن أخبارها وأحداثها رغم كثرتها خلال القرون الماضية، ولا يوجد من دوّن وقائع البدو في نجد خاصة بشيء من الاستطراد سوى مؤرخين متأخرين أمثال ابن بسام في كتابه "تحفة المشتاق"(١)، ومقبل الذكير في تاريخه(٢)، وإبراهيم بن عيسى في تاريخه، ومحمد العلي العبيّد في مخطوطته "النجم اللامع". وكان أول من تصدى لهذا الأمر وحاول جمع تلك

---

(١) لقد استوعب كتاب "تحفة المشتاق" جزءًا لا بأس به من أحداث وقائع البادية بدأها من منتصف القرن التاسع الهجري وما تلاه، وقد شكك البعض في الأحداث التي أوردها ابن بسام في تاريخه لأنه لا يذكر مصادره التي ينقل عنها، كذلك اتفاق أسلوبه في سرد تلك الوقائع، غير أن جزءًا من هذه الأحداث ذكرها المؤرخ إبراهيم بن عيسى في تاريخه، ومع ذلك فهو أيضًا لم يذكر مصدره المباشر في نقل هذه الأحداث. انظر: ورقات غير منشورة من تاريخ الشيخ إبراهيم ابن عيسى، للدكتور أحمد بن عبدالعزيز البسام، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس والثلاثون - شوال ١٤٢٢هـ، ص٢٧٧، وما بعدها.

(٢) مقبل الذكير له تاريخ مخطوط متعدد العناوين.

الأخبار وإصدارها في كتاب مستقل الباحث/ خلف بن حديّد آل مبارك حين أصدر عام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، كتابه "من أحداث البدو"، والذي جاء في ١٧١ صفحة، وقد اشتمل الكتاب على أخبار قبائل البادية من عام ٢٠٠ إلى عام ١٣٦٥هـ، وتحدث عن أحداث تلك القبائل داخل الجزيرة العربية وخارجها واعتمد على مصادر مختلفة، ومع ذلك فقد فاته الكثير من الأخبار، إلا أنه يبقى صاحب السبق الأول في هذا المجال. ثم حمل تلك الفكرة الأخ فائز بن موسى البدراني الحربي فأصدر بعد عامين كتابه الموسوم: "من أخبار القبائل في نجد خلال المدة من ٨٥٠ - ١٢٠٠هـ"، وجاء كتابه في طبعته الأولى عام ١٤١٥هـ في٣٥٢ صفحة، ثم طبع في عام ١٤١٦هـ، وجاء في ٢٤٢ صفحة، وقد ابتدأ بما ذكره ابن بسام في كتابه سالف الذكر حيث فرّغ أغلب الأخبار الواردة فيه عن قبائل البادية، ثم ألحق به حوادث القبائل خلال القرن الثالث عشر الهجري في الجزء الثاني، ثم نشره مع الجزء الأول وأصدرهما في كتاب واحد يقع في ٤٠٤ صفحة(٣). وكانت فكرة الكتاب جميلة لو وضع لبحثه خطة واضحة ومنهجًا محكمًا يسير عليه، حتى تتضح حياديته؛ لأن من يتمعن في كتابه يرى - في

(٣) نشر المؤلف بحثه عن القبائل في نجد في القرن الثالث عشر الهجري على شكل حلقات في مجلة الدرعية، الأولى في العدد الثاني، ربيع الآخر ١٤١٩هـ، والأخيرة في العدد العشرين، ذي الحجة ١٤٢٣هـ، وكنت قد اطلعت على بعضها، ونشرت تعقيبًا على الحلقة الثالثة، وكانت بداية هذه الدراسة تعقيبًا كتبته على الحلقة الأخيرة التي نشرت في المجلة المذكورة، حيث لحظت أخطاء واضحة لا يمكن تجاهلها، ثم جمع المؤلف تلك المقالات بأخطائها وأصدرها في كتاب مما جعلني أعيد النظر فيه كله وأصدر هذه الدراسة.

رأيي - اضطرابًا في المنهج، وهذا ما سوف أشير إليه في هذه الدراسة، إذ إن المآخذ على كتابه ليست استدراكات وتصويبات فقط؛ بل هي ملحوظات على المنهج.

والحقيقة أني، بعد تتبع مثل هذه الأخبار، ظهر لي من خلال ما قرأته من بعض التواريخ أن هناك العديد من الملحوظات التي رغبت أن أشير إليها لإفادة القارئ الكريم. وقد اجتهدت في تقسيم هذه الملحوظات إلى قسمين.

القسم الأول - الملحوظات العامة.

القسم الثاني - الملحوظات المنهجية.

وأود أن أشير إلى أن التصحيحات والاستدراكات التي وقفت عليها في الكتاب كثيرة، واقتصرت في هذه الدراسة على نماذج منها. وقبل الشروع في ذكر هذه الملحوظات أرى أنه من الانصاف الإشارة إلى إيجابيات الكتاب فأقول ما يلي:

١ - أن الكتاب استوعب قسمًا لا بأس به من أخبار القبائل في نجد.

٢ - استفاد المؤلف من وثائق الدولة السعودية الأولى والثانية والمنشورة في كتاب "من وثائق الدولة السعودية الأولى في عصر محمد علي..." للدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم.

٣ - أن المؤلف يورد أحيانًا الخبر عن أكثر من مؤرخ.

٤ - شمل الكتاب فهارس فنية شاملة للكتاب وهذا مما يسهل الرجوع إلى المعلومة.

القسم الأول - الملحوظات العامة:

أ - جعل عنوان كتابه: "من أخبار القبائل في نجد خلال المدة ٨٥٠ - ١٣٠٠هـ"، وكتابه يتناول أخبار البادية، ولا أظن أن هذا العنوان صحيح، فكان الأجدر أن يسميه: "من أخبار قبائل البادية في نجد خلال المدة ٨٥٠ - ١٣٠٠هـ". وذلك أن هناك قبائل حاضرة لم يكن لها بادية كقبيلة بني حنيفة، (والتي منها الأسرة المالكة آل سعود)، وبني تميم، وبني زيد، وباهلة، والشثور، وعائذ، وغيرهم.

ومما يدل على أن عنوان الكتاب لا يمثل محتوياته ما ورد في (ص ٧) للمؤلف حيث يقول:" ومن خلال متابعتي لمصادر تاريخنا لاحظت أن تاريخ بادية نجد لم يكن يحظى باهتمام مؤرخينا الذين كانوا كلهم من أبناء الحواضر والقرى النجدية... أما تاريخ البادية والقبائل في نجد فما كان يدونون منه إلا ما كان له علاقة بتلك الحواضر".

وهذا فيه تناقض واضح حيث يذكر في العنوان (أخبار القبائل)، وفي المقدمة يذكر (بادية نجد)، و(تاريخ البادية والقبائل)، مما يدل على أن المؤلف يريد بكتابه أخبار البادية وأحداثها، ولكن لم يوفق في اختيار عنوان مناسب لمحتوى الكتاب.

ب - لم يذكر المؤلف بداية الحدث العظيم الذي نتج عنه قيام الدولة السعودية الأولى، وهو المبايعة التي تمت بين الشيخين والإمامين محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب، وتحالفهما الذي غير مجرى التاريخ في نجد

وما حولها بقبائلها - بادية وحاضرة - وإماراتها ومدنها وأقاليمها[٤].

والغريب أنه ذكر في عام ١٠٨٠هـ خبر استيلاء بني خالد على الأحساء مع أن الخبر ليس من حوادث نجد، وعلل ذكره للخبر بالدور الذي لعبه بنو خالد بعد ذلك فكان الأولى به أن يذكر حدث اتفاق الإمامين؛ إذ هو بداية قيام الدولة وذلك للأمور التالية:

١ - أن الحدث وقع في نجد وخبر استيلاء بني خالد في الأحساء.

٢ - أن تأثير قيام الدولة السعودية الأولى في قبائل نجد أعظم بكثير من قيام دولة بني خالد في الأحساء.

٣ - أن قيام هذا التحالف غيّر موازين القوى القبلية ومشايخها ومسار تاريخها، بينما لم تذكر المصادر التاريخية بروز التغييرات بقيام دولة بني خالد إلا بشكل أقل بكثير.

ج - لم يترجم المؤلف لحكام نجد من أئمة آل سعود أو غيرهم:

فقد خلا كتابه من وجود تراجم لأي حاكم من أئمة آل سعود، الذين كان لهم دور قوي وفعال في صراعات تلك القبائل وتموجاتها، بل وصنع خريطة جديدة لديار تلك القبائل وأماكنها.

---

(٤) ذكر المؤلف (ص١٥٣) قيام الدولة السعودية الأولى ووصف الاتفاق بأنه حدث مهم ولكنه لم يضعه ضمن أخبار كتابه وأحداثه.

والغريب أن المؤلف أفرد أربع صفحات لذكر تراجم أمراء قبيلة بني خالد، حيث ترجم لـ (١٤) حاكمًا منهم (ص٣٥٠-٣٥٤)، وذكر في (ص٧٨) ما يلي: "وقد أوردنا خبر استيلائهم على الأحساء رغم أنه ليس من حوادث نجد القبلية التي هي موضوع هذا الكتاب، وذلك للدور الذي لعبه بني خالد في نجد كما سيأتي ودخولهم مسرح الصراع القبلي والسياسي وتأثيرهم على تغيير ميزان القوى لقبائل نجد... إلخ".

قلت: ليس لي اعتراض على الكلام السابق ولكن مهما وصلت قوة نفوذ حكام بني خالد على تلك القبائل النجدية فلا يقارن بالنفوذ القوي والمركزي لأئمة آل سعود في الدولة السعودية الأولى والثانية (مجال بحث هذا الكتاب)، وكان الواجب على المؤلف إفراد كل إمام من أئمة آل سعود بترجمة وافية كما فعل مع أمراء بني خالد.

د - ذكر المؤلف في (ص١٩) أن مؤلف "تحفة المشتاق" الذي اعتمد المؤلف في أغلب كتابه عليه هو أحمد بن محمد بن عبدالله بن بسام المتوفى سنة ١٠٤٠هـ، وأن أحد أحفاده - وهو عبدالله بن محمد البسام المتوفى سنة ١٣٤٦هـ - قام بإكمال هذا الكتاب المخطوط وهو "تحفة المشتاق"، ثم أصبح ينقل عن "تحفة المشتاق" ويقول تأليف أحمد بن بسام وعبدالله بن بسام. وهذا غير صحيح؛ وذلك أن صاحب التحفة هو عبدالله بن محمد بن بسام المتوفى سنة ١٣٤٦هـ، الذي ذكر في مقدمته المؤرخين الذين نقل عنهم تلك المعلومات، وكل تواريخهم معروفة إلا تاريخ أحمد بن بسام. وتاريخ أحمد بن بسام غير "تحفة المشتاق"؛ إذ إن التحفة تبدأ

من عام ٨٥٠هـ، وأما تاريخ أحمد بن بسام فلا يبدأ إلا بعد ١٦٥ عامًا من هذا التاريخ، حيث يبدأ عام ١٠١٥هـ، كما ذكر ذلك حفيده صاحب "تحفة المشتاق"(٥).

ومن الأمور الملفتة أن المؤلف ذكر في (ص٣٧١) نقلاً عن الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام (صاحب كتاب علماء نجد) نصًا حول نسب قبيلة الظفير، ولما انتهى من نقله الأول قال ما يلي: "وقال عنهم في تحفة المشتاق".

قلت: يبدو أنه اختلط عليه علماء آل بسام، حيث جعل عضو هيئة كبار العلماء سابقًا الشيخ عبدالله البسام المتوفى سنة ١٤٢٣هـ، مؤلفًا لكتاب "تحفة المشتاق"؟! مع العلم أن مؤلف التحفة هو كما أسلفت عبدالله بن محمد البسام المتوفى سنة ١٣٤٦هـ، وليس عبدالله بن عبدالرحمن البسام المتوفى سنة ١٤٢٣هـ!!

هـ - انتقاد المؤلف لبعض مؤرخي الحاضرة بأنهم لا يهتمون بأخبار البادية:

ذكر في مقدمته (ص ٧) ما يلي: "ومن خلال متابعتي لمصادر تاريخنا لاحظت أن تاريخ بادية نجد لم يكن يحظى باهتمام مؤرخينا الذين كانوا كلهم من أبناء الحواضر والقرى النجدية فلا غرابة أن يتركز اهتمامهم حول تاريخ تلك الحواضر، مثل تاريخ إنشاء البلدان وتسجيل ما له علاقة بالأحوال السياسية والاجتماعية فيها. أما تاريخ البادية والقبائل في نجد فما كانوا يدونون منه إلا ما كان له علاقة بتلك الحواضر".

(٥) انظر: كتاب تحفة المشتاق، تحقيق الأستاذ إبراهيم الخالدي، الكويت: دار المختلف، ط١، ٢٠٠٠م، ص٢١.

قلت: ليس صحيحًا أن أخبار البادية لم تحظَ باهتمام المؤرخين (أبناء الحواضر والقرى النجدية) - كما يصفهم المؤلف - بل الصحيح ينافي ذلك تمامًا، فأخبار البادية تملأ تلك الكتب وإن كانت تتفاوت من مؤرخ لآخر، فمثلاً ذكر ابن بشر أخبارًا كثيرة ومنها مناخ المربع سنة ١٢٤٩هـ، والذي لم يكن له علاقة بالمدن والحواضر، ولكن ما ذكره ابن بشر لا يقارن بما ذكره ابن بسام صاحب "تحفة المشتاق"، أو ما فصل فيه إبراهيم بن صالح بن عيسى في تواريخه المختلفة، ومحمد العلي العبيّد صاحب" النجم اللامع"، وقل مثل ذلك على تواريخ مقبل الذكير وغيره من المؤرخين. وأنا أستغرب، فإذا لم يكن للمؤرخين اهتمام بأخبار البادية، فمن أين ملأ المؤلف كتابه بكل تلك الأخبار؟ بل إن ما نقله من مؤرخي البادية أنفسهم - الرواة الشفويين - لا يتعدى عدد الأصابع، هذا غير القصائد الشعبية التي تُعد بالمئات وتضاهي قصائد الحاضرة، والتي لم يشترك في تدوينها أحد من أبناء البادية (الصويغ، الربيعي، ابن يحيى، الهطلاني، منديل الفهيد، ... إلخ)، وكل هؤلاء من رواة الحاضرة.

القسم الثاني - الملحوظات المنهجية:

ضعف المنهج العلمي في تحقيق الأحداث التاريخية من خلال القصور في الرجوع إلى المصادر التي تحدثت عن أخبار القبائل في نجد وإغفال الكثير منها، ولقد كان المنهج العلمي الصحيح للمؤلف حينما أراد أن يكتب عن أخبار البادية في منطقة نجد أن يرجع لجميع المصادر التي تحدثت عن تاريخ المنطقة (النجدية وغير النجدية، والأجنبية) ثم

يخرج منها الأخبار المتعلقة بالبادية، وهذا ما يتفق مع عنوان كتابه (أخبار القبائل في نجد).

ولكن حينما نستعرض المصادر التي رجع لها مؤلف الكتاب نجد أن هناك عشرات الكتب التي تحدثت عن تلك القبائل النجدية، ومع ذلك لم يشر لها المؤلف وإنما جعل جل اهتمامه بالمصادر النجدية فقط، ما عدا بعض المصادر القليلة غير النجدية كتاريخ العصامي والدر الفاخر لعبدالهادي بن محمد الطاهر (توفي عام ١١٣٩هـ)، وأغفل كثيرًا من المصادر المخطوطة والمطبوعة، والتي توجد جميعها في دارة الملك عبدالعزيز. ومن المصادر التي لم يرجع إليها، وهي مرتبة حسب المناطق ما يلي:

أ - من المصادر النجدية:

١ - كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، لمؤلف مجهول(٦)؛ تحقيق د. عبدالله العثيمين، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٢ - تاريخ ابن لعبون، خزانة التواريخ النجدية، جمع الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام، ط١، الرياض، دار العاصمة، ١٤١٩هـ.

٣ - تاريخ ابن عيسى، خزانة التواريخ النجدية، جمع الشيخ عبدالله البسام، ط ١، الرياض، دار العاصمة، ١٤١٩هـ.

---

(٦) ذكر د. محمد خير البقاعي أن مؤلف هذا الكتاب هو سليمان النجدي. انظر: مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الثالثة والثلاثون، ١٤٢٨هـ، ص١٤٤.

٤ - مجموع ابن عيسى، وهو مخطوط متداول بكثرة لدى الباحثين، ويوجد نسخة منه في دارة الملك عبدالعزيز.

٥ - تاريخ ملوك آل سعود، للأمير سعود بن هذلول، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٦ - أنساب الأسر الحاكمة في الأحساء، للشيخ أبي عبدالرحمن الظاهري، ط١، الرياض، دار اليمامة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

ب - من تواريخ مكة المكرمة:

٧ - بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، لابن فهد (ت ٩٢٢هـ)، يوجد نسخة منه في مكتبة الحرم المكي برقم ٣٠٤ تاريخ، منها نسخة في دارة الملك عبدالعزيز، (والكتاب مطبوع).

٨ - نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، لجارالله بن فهد (ت ٩٥٤هـ)؛ تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط١، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٩ - إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن، لمحمد بن علي الطبري (ت ١١٧٣هـ)، الجزء الثالث الذي لا يزال مخطوطاً يوجد نسخة منه في دارة الملك عبدالعزيز برقم٢٨٥م.

١٠ - منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، لعلي بن تاج الدين بن تقي الدين السنجاري (ت ١١٢٥هـ)، من مطبوعات جامعة أم القرى بمكة.

١١ - تاريخ أشراف مكة، لعبدالله بن عبدالشكور (ت ١٢٥٧هـ)، مخطوط يوجد نسخة منه في دارة الملك عبدالعزيز برقم ٥٦٣.

ج - تواريخ متفرقة مثل:

١٢ - مطالع السعود، لعثمان بن سند الوائلي، تحقيق د. عماد عبدالسلام رؤوف وسهيلة عبدالمجيد القيسي، بغداد: الدار الوطنية النشر.

١٣ - درر نحور الحور العين، للطف الله جحاف (نشر ما يتعلق بنجد وقبائلها الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - في مجلة العرب، س٢٦، ص٤٣٣، وس٢٩، ص٨٧٣).

١٤ - أصول الخيل العربية الحديثة، لحمد الجاسر، ط١، دار اليمامة، ١٤١٥هـ (ومع أن هذا الكتاب من مصادر المؤلف إلا أنه فاته تسجيل ما فيه من وقائع البادية وهي ليست بالقليلة).

د - من الكتب الأجنبية(٧):

١٥ - تاريخ الدولة السعودية الأولى، لفيلكس مانجان، ترجمة وتعليق د. محمد خير محمود البقاعي، ط١، دارة الملك

---

(٧) من الملحوظ أن بعض هذه الكتب قد عُرِّبَ بعد صدور كتاب (من أخبار القبائل في نجد) إلا أن أصولها الأجنبية موجودة ومتاحة للباحثين، وكان الأولى بالمؤلف أن يستعين بها أو يرجع إليها، خاصة أنه قد استفاد من كتاب دوتي (ترحال في صحراء الجزيرة العربية) فنقل منه في كتابه (مذكرات تاريخية) ما يخص خلف بن ناحل أحد أعلام قبيلة حرب. انظر: مذكرات تاريخية عن بعض أعلام قبيلة حرب، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٢٣٧، وما بعدها.

عبدالعزيز، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، مع أن د. منير العجلاني نقل منه وكتاب العجلاني من مصادر المؤلف.

١٦- وسط الجزيرة العربية وشرقها، لوليم جيفور بالجريف، ترجمة صبري محمد حسن، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١م.

١٧- نجد الشمالية، رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم، لكارلو غوارماني؛ ترجمته من الإيطالية إلى الإنجليزية السيدة كابيل كيود، تقديم وتعليق دوجلاس كادوثار، لندن، مطبعة أورجونوت، ١٩٣٨م.

١٨- ترحال في صحراء الجزيرة العربية، لتشارلز دوتي، ترجمة صبري محمد حسن، مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م.

١٩- دليل الخليج، لـ ج.ج. لوريمر، ترجمة المكتب الثقافي لحاكم قطر، بيروت: دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع[د. ت]، (وهو قسمان: قسم تاريخي يقع في ٧ أجزاء، وآخر جغرافي يقع في ٧ أجزاء أخرى).

٢٠ - اكتشاف جزيرة العرب، لجاكلين بيرين، ترجمة قدري قلعجي، تقديم الشيخ حمد الجاسر، الرياض، منشورات الفاخرية [د. ت].

ومع أني لا أستطيع الشرح بتوسع عن كل الملحوظات المنهجية، إلا أني سأشير هنا إلى عناوينها:

١ - نقله لبعض الأحداث عن مصادر متأخرة مع أنه يوجد من ذكرها من المتقدمين.

٢ - عدم الدقة في نقل الخبر.

٣ - عدم الدقة في نقل نتائج المعارك.

٤ - إهمال أسماء بعض المشاهير والأعلام في بعض المعارك.

٥ - تجاوز عدد من الأخبار والحوادث من المصادر التي نقل منها.

٦ - التناقض في قبول الرواية وردها.

٧ - الاضطراب في تحديد المواضع والتعريف بها.

هذا ما أحببت إيضاحه وأرجو أن أكون قد وفقت بتقديم ملحوظات مفيدة للمؤلف والقارئ الكريم.

TRANSLATED ARTICLES

BOOK REVIEWS

CONTENTS

ARTICLES